اليهود في القرآن

تحليل علمي لنصوص القرآن في اليهود على ضوء الأحداث الحاضرة
مع قصص أنبياء الله ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام

TABBARAH
"AL-YAHUD FI AL-QURAN"

تأليف

عفيف عبد الفتّاح طبّاره

الطبعة العاشرة

دار العلم للملايين
ص.ب : ١٠٨٥ - بيروت
تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٦٥

الطبعة العاشرة

تمّوز (يوليو) ١٩٨٤

مقدمة الكتاب

لفضيلة الاستاذ

شريف خليل سكر

الأديان السماوية تدعو لمكارم الاخلاق ، وتحث على الفضيلة وتنشر المحبة والسلام ، وتحارب الحقد والضغينة والعنصرية .. فهل هذا الكتاب يدعو الى ذلك ؟ أم انه يوجج في النفوس الخصال الذميمة التي حاربتها الأديان ، ويسم الاسلام بأنه دين يدعو الى العصبية المذهبية والعنصرية المقيتة !

قد يتهمه البعض بهذه التهم ؛ لكن المؤلف بريء منها إذ ليس بوسع مسلم ان يتهجم على اليهودية لأنها دين سماوي مقدس يدين المسلم باحترامه ، فهو يتحدث عن اليهود لا عن اليهودية ثم هو يتحدث عن فريق من اليهود لا عن اليهود كافة ، فإن اليهود ككل أمة فيهم الخبيث والطيب ، قال تعالى فيهم :

(وقطّعناهم في الأرض أُمَماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك [1]) [2] .

لقد مني العرب في جاهليتهم بطائفة من اليهود ، قدموا اليهم لاجئين من مختلف الاقطار فراراً من العسف والاضطهاد ، ولكنهم حين ساكنوا العرب وجاوروهم لم يحسنوا الجوار ، فلم يكن شأنهم شأن اللاجيء المتواضع ولا شأن الاخ المواطن ، فقد استكبروا واستعلوا على العرب في عقر دارهم ... ولم يجرؤ العرب على مناصبتهم العداء واخراجهم من بلادهم لأنهم احتاطوا لهذا الأمر فأقاموا في قلاع محصنة ، كما انهم كانوا متضامنين اجتماعياً ، وكانوا

---

١ – ومنهم دون ذلك : ومنهم الذين لا يوصفون بالصلاح ، وهم الكافرون الفاسقون .

٢ – سورة الأعراف : آية ١٦٨ .

يشعلون نيران الفتنة بين القبائل حتّى من كان بينها صلات قربى كما فعلوا مع قبيلتي الأوس والخزرج .

وجاء الاسلام وحال العرب واليهود على ما ذكرنا فوحّد صفوف العرب ودعاهم الى عقيدة التوحيد السامية ، فما كان من هؤلاء اليهود إلاّ ان ناصبوا الاسلام عداء اشد من عدائهم للجاهليين الوثنيين . مما سيراه القارىء في هذا الكتاب.

هذا الكتاب إذن لم يتعرض لليهودية كدين وانما تعرض لليهود كجماعة انحرف اكثرها عن روح الديانة اليهودية التي يؤمن الاسلام بانبيائها كما يؤمن برسول المسيحية ، قال تعالى مخاطباً المسلمين :

(قولوا آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نُفرّق بين احد منهم ونحن له مسلمون)[1] .

هذا وإذا قمنا باستقصاء واحصاء ما جرى لليهود من اضطهاد ونحوه في العالم بأسره نجد ان مثل هذا الاضطهاد لم يحدث لليهود في بلاد المسلمين ، وإن اقسى ما حصل لهم في بلاد المسلمين هو ما حصل في بـدء الاسلام ، والمؤلف قد قص علينا بأسلوبه العلمي الرصين الحوادث واسبابها ودوافعها ونتائجها مما يدلنا ان المعاملة التي لقيها اليهود من الرسول كانت نتيجة لافعالهم السيئة وردة فعل لها .

ان قضية فلسطين اليوم هي سبب العداء بين العرب واليهود ، وها هو التاريخ يعيد نفسه ، فما حصل في بدء الاسلام يتكرر اليوم ، وها هم اليهود في جميع انحاء العالم يقومون بحملة مسعورة ضد العرب والمسلمين ابتغاء سلبهم فلسطين وغير فلسطين ، انهم يشوهون كل ما يمت لهم بصلة ويمنعون الغرب ان يمد لنا يد الصداقة المخلصة ، لقد سلطوا اجهزة الاعلام في العالم الغربي للنيل من كرامتنا ، وحينما نرى ذلك كله نقول صدق الله العظيم حين قال :

---

١ – سورة البقرة آية ١٣٦ .

(لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا) [1] .

هذا ، ومما يلاحظه القارىء ان القرآن الكريم الذي وصف اليهود بأنهم اشد الناس عداوة للذين آمنوا قد اثنى على النصارى بقوله :

(ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون)[2] .

ومن المعروف لدى أئمة التفسير ان اهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، لكن الذي يقرأ هذا الكتاب يتبين له شيء آخر لم يتبينه بعض المسلمين وكثير من النصارى ، وهو ان اكثر الآيات التي تعنف اهل الكتاب انما المقصود بها هم اليهود لا النصارى ، ومن يرجع الى اسباب نزول الآيات يعرف مدى صحة هذا القول .

إن دعاة التآلف والمحبة بين المسلمين والمسيحيين يجدون في هذا الكتاب خير دليل لهم ، بل ان اليهود انفسهم لا يمنعهم ما جاء في حق الكثيرين منهم ان يعودوا الى رشدهم ويُرجعوا الحق الى اهله ، ويعيشوا كما كانوا من قبل اهل ذمة للمسلمين ، ولهم بعد ذلك ما لنا وعليهم ما علينا ، قال الله تعالى :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم[3] وتقسطوا[4] اليهم إن الله يحب المقسطين)[5] .

لقد سمى المؤلف كتابه (اليهود في القرآن) وقد عرض فيه بعض ما ورد في القرآن من آيات في شأن اليهود تصور طبائعهم ونفوسهم أصدق تصوير .

كما وجـد المؤلف ان بحثه عن اليهودية لا تتم فصوله ولا يستقيم معناه إلا اذا اردفه ببضع دراسات لها علاقة وثيقة ببحثه عن اليهودية فاختار

---

١ – سورة المائدة آية ٨٢ .

٢ – نفس المصدر .

٣ – تبروهم : تحسنوا معاملتهم .

٤ – تقسطوا : تعدلوا .

٥ – الممتحنة : آية ٨ .

قصص ثلاثة انبياء كرام هم : ابراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام فاختيار المؤلف لقصص هؤلاء الانبياء كان موفقاً جداً :

فابراهيم هو ابو الأنبياء وجدُّ اليهود والنصارى والمسلمين وهو الصلة الروحية التي تجمع بين هذه الأديان الثلاثة .

٢ اما يوسف عليه السلام فسيرته مليئة بالعبر والعظات الباهرة والأحداث المثيرة ويتراءى لنا ذلك من غدر اخوته به ثم انتقاله الى مصر وما جرى له فيها من حوادث كان ابرزها ان أصبح وزير الملك .

٣ واما موسى عليه السلام فهو نبي اليهود الأكبر وهو مخلصهم من الأضطهاد الفرعوني وهو الذي انزلت عليه التوراة ، ولذلك فإن له مكانة رفيعة عند اليهود.

فالمؤلف حين استعرض حياة هؤلاء الأنبياء لم يغفل ان يبرز مواطن العظمة في سلوكهم ومنهج حياتهم مما يصح ان يتخذ مثالاً وقدوة للناس في كافة العصور. كما انه أثناء عرضه قصة يوسف وموسى صوّر لنا البيئة اليهودية وما فيها من كيد وجحود وعصيان .

وقد كانت للدروس والعبر التي استخلصها المؤلف من قصص هؤلاء الأنبياء روعة واي روعة فقد اظهر ان القرآن الكريم لم يكن في قصصه مؤرخاً وراوياً بل واعظاً ومرشداً مما يجعل له ميزة خاصة ينفرد بها عن التوراة .

كما ان المؤلف كان جل اهتمامه منصباً على الآيات القرآنية المتعلقة ببحثه يشرحها شرحاً وافياً مبسطاً يبين مواطن الاعجاز العلمي والادبي ليظهر ان القرآن وحي الهي .

واخيراً أؤكد لك ايها القارىء انك ستجد في هذا الكتاب غذاء للعقل بما ستحصل عليه من المعارف التي استخلصها المؤلف من عشرات المراجع الهامة ، كما ستجد فيه غذاء للروح ومتعة لا تقدر بثمن ، تحمد المؤلف على جهده الموفق ، ويدعوك الى نصح اخوانك في الانسانية لقراءته لما سيقدمه لهم من فائدة لا تقدّر بثمن .

شريف خليل سكر

الباب الأول

اليهود في نظر القرآن

- اليهود في جزيرة العرب
- بوادر النزاع بين محمد واليهود
- تآمر اليهود على الإسلام
- عبادة اليهود للمال
- طبائع اليهود
- هجاء كفار بني إسرائيل
- من وصايا القرآن لبني إسرائيل
- النزاع المسلح بين المسلمين واليهود
- لن تدوم دولة لإسرائيل

الفصل الأول

اليهود في جزيرة العرب

اسماء اليهود – اصل اليهود – اسباب سكن اليهود في جزيرة العرب – اليهود عند ظهور الاسلام – اثر اليهود في انتشار الاسلام – التقاء الرسول باليهود في يثرب .

اسماء اليهود

يقال لهم عبرانيون وعبريون من العبر ، أي من عبور ابراهيم جدهم الأعلى نهر الفرات ، وهم قد دعوا اسرائيليين وبني اسرائيل نسبة الى اسرائيل نبي الله وهو يعقوب فأطلق الاسم على جميع الاسباط من عقبه ثم على فئة منهم الى ان انقرضت فعمهم الاسم جميعاً .

ويُقال لهم (هود) و (هادوا) وقد تغلبت كلمة (يهود) عليهم واصلها (يهوذا) وهم سبط من اسباط بني اسرائيل سموا بهذا الاسم تمييزاً لهم عن الاسباط العشرة الذين سموا (اسرائيل) الى ان تشتت الاسباط وأسر يهوذا فمن ثمَّ دُعي جميع نسل يعقوب (يهـوداً) [1] ويهوذا جد

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢/٢٧ د .

هذا السبط وهو رابع اولاد يعقوب .

ومعنى هاد ، يهود ، هوداً ، وتهوّد : تاب ورجع الى الحق ، وفي القرآن (إنّا هُدْنا اليك) اي تبنا اليك ، وسميت اليهود اشتقاقاً من هادوا أي تابوا [1] واطلق القرآن عليهم عبارة (اهل الكتاب) وهي لا تعني أنهم اصحاب علم بالكتابة وانما المراد بذلك انهم اهل كتاب سماوي منزّل وهو التوراة ، ويدخل في هذه التسمية ايضاً النصارى لوجود كتاب سماوي لديهم وهو الانجيل ، وهكذا فإن تسمية (اهل الكتاب) في القرآن يُقصَد بها اليهود والنصارى .

اصل اليهود

لاحظ المعنيون بلغات الشرق الأدنى اوجه شبه ظاهرة بين البابلية والآشورية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والآرامية والعربية ، واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وامثالها ... فقالوا بوجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الأقوام واطلقوا على تلك الوحـــدة اسم (الجنس السامي) نسبة الى سام بن نوح [2] .

اما المهد الاصلي للساميين فقد ذهب العلماء في ذلك مذاهب شتى فرأى نفر منهم انه أرض بابل في شمال العراق ، ورأى آخرون ان جزيرة العرب هي المهد الأول ، وذهب فريق ثالث الى ان افريقية هي وطن الساميين وذهب آخرون الى غير ذلك .

اسباب سكن اليهود في جزيرة العرب

يرجع بعض الباحثين تسرّب اليهود الى الجزيرة العربية الى هذه الأسباب :
« ان فلسطين كانت بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من

(١) قاموس لسان العرب .
(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام – للدكتور جواد علي ج ١ ص ١٤٨ .

جهة ومصر والعراق من جهة اخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها الى اسواق مدن بني اسرائيل وكنعان ، وكان تجار اليهود يرحلون الى سبأ في عهد سليمان وبعده » [1] . ومنها : « زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مطردة جعلت البلاد تضيق عن ان تسعهم وتنفسح لعملهم في سبيل الحياة ، وقد بلغ عددهم في ذلك الحين اكثر من اربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد ان يهاجروا الى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والجزيرة العربية .

ومنها : انه بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ ب . م) التي انتهت بخراب فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود في اصقاع العالم قصدت جموع كثيرة اخرى من اليهود بلاد العرب كما يحدثنا بذلك المؤرخ اليهودي يوسف الذي شهد تلك الحروب وكان قائداً لبعض وحداتها [2] وهذا ما تؤيده المصادر العربية التي جاء فيها : لما ظهر الروم على بني اسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا ، فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين الى الحجاز وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز » [3]

وهناك أسباب اخرى أدت الى انتشار اليهود في يثرب لا يمكن التعويل عليها علمياً . كما انتشر اليهود في اليمن وهذا ليس مجال بحثنا هنا فاننا نستعرض فقط الفئات اليهودية التي احتك بها الاسلام .

اليهود عند ظهور الاسلام

كانت منطقة يثرب وهي التي تُعرف اليوم بـ (المدينة المنورة) المركز

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب – ولفنسون ص ٨ .

(٢) تاريخ اليهود – ولفنسون ص ٩ .

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٨٣ ، والاغاني ١٩/٩٤ .

الاكبر لليهودية عند ظهور الاسلام .. كما انتشر اليهود جماعات جماعات استقروا في مواضع المياه والعيون من وادي القرى [1] وتيماء وخيبر فبنوا فيها الآطام [2] لحماية انفسهم وارضهم وزرعهم من اعتداء الاعراب عليهم ، وقد امنوا على انفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع إتاوات لهم وعلى تقديم الهدايا اليهم لاسترضائهم [3] .

وقد سكن يثرب عدة قبائل يهودية اشهرها بنو النضير ، وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وكان يسكن في المدينة من العرب قبيلتا الأوس والخزرج ، ويرجح رواة التاريخ مجيء قبيلتي الأوس والخزرج الى يثرب بعد حادث سيل العرم جاءوا اليها لسوء حالهم والتماساً لوطن جديد . والخزرج اخوة الأوس في عُرف النسابين فالخزرج جدهم شقيق الأوس الذي تنتمي اليهما قبيلتا الأوس والخزرج .

وحينما نزل الأوس والخزرج المدينة لم يكن لهم حول ولا قوة ولذلك قنعوا بالذي حصلوا عليه من ارض ضعيفة ومن رزق شحيح اما المال والثروة والجاه فلليهود . بقوا على ذلك امداً حتى ذهب مالك بن العجلان وهو من الخزرج الى أبي جبيلة ملك الغساسنة يطلب منه النصـــرة على اليهود فجاء ابو جبيلة على رأس جيش الى الحجاز وفتك باليهود وتمت الغلبة من يومئذ للأوس والخزرج . بعد ان غدر مالك بن عجلان برؤساء اليهود وقتل منهم بضعة وثمانين رجلاً [5]

---

(١) واد خصيب به يمر طريق التجارة القديم الذي يصل بلاد الشام باليمن .

(٢) الآطام : جمع أطم وهو القصر والحصن المبني بالحجارة وكل بناء مرتفع .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام – للدكتور جواد علي – جـ ٦ ص ٩ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ص ٨٤ .

(٥) الاغاني ١٩/٩٥ .

اثر اليهود في انتشار الاسلام

بدأ محمد صلى الله عليه وسلم دعوته الى الاسلام في جو مشحون بالشدائد والصعاب ، واعداؤه اخذوا يتمادون في اساءتهم اليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوجدت دعوته لديهم آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وبيان ذلك : ان نفراً من الخزرج خرجوا الى مكة في موسم الحج فلقيهم محمد فسألهم عن شأنهم وعرف انهم من موالي اليهود ، وقد كان اليهود بيثرب يقولون لهم إذا اختلفوا واياهم : (ان نبياً مبعوثاً الآن قد اظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله اولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله انه النبي الذي وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا له : إنّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ، ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ... ثم انصرفوا عن الرسول راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا [1]).

ويمكن القول ان التنبوءات التي كان يطلقها اليهود حول مبعث النبي الجديد والأخبار التي كانوا يروجونها بين العرب كان لها بعض الاثر في استجابة اليثربيين للاسلام . فاليهود رسخ في نفوسهم اعتقاد بأنه سيجيء نبي ينقذهم من البوس والشقاء ويتغلب على اعداء الشعب المختار ، فلما عرض النبي رسالته على افراد من الخزرج تنبه العرب الى اقوال اليهود فأقبلوا يعتنقون الإسلام بينما كفر اليهود بدعوة الرسول كبرياء واعراضاً عن الحق الذي جاء به نبي ليس منهم . ويوئيد هذا الرأي ان استجابة اهل يثرب للاسلام كانت اكثر من استجابة أهل مكة .

التقاء الرسول باليهود في يثرب

اضطر الرسول محمد عليه السلام الى الهجرة الى يثرب بعد ان اشتد

---

(١) ابن هشام ٢/١٩٠ .

عليه ايذاء قريش في مكة ، وبعد ان قصدوا قتله ، وكان انصاره في يثرب قد كثر عددهم وقويت شوكتهم .

وفي يثرب معقل اليهود التقى الرسول محمد مع اليهود وجهاً لوجه فأحسن معاملتهم لعلهم يؤمنون برسالته وأمنهم على اموالهم وانفسهم ، وزارهم وطمأنهم ، ثم تعاهد معهم في صحائف كتب لهم فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم ما داموا موفين بالعهد ، وقد طلب الى جميع المسلمين الوفاء بما جاء فيها ، ومُنِعوا من التجاوز والتطاول على من في يثرب من يهود [1] .

وجعل لليهود نصيباً من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم النفقة معهم في الحروب [2] .

وبذلك يتضح انه لم تكن علاقات اليهود مع المسلمين سيئة في الأيام الأولى من مجيء الرسول الى يثرب فقد رأت اليهود ان الاسلام دين اعترف بأنبيائهم وانه دين توحيد وانه في بعض احكامه قريب من احكام ديانتهم ، وانه يناهض الأوثان ، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعامهم ، وأجاز التزوج من بناتهم كما تصرح بذلك الآية القرآنية (اليوم أحِلّ لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حِلّ لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم) . المائدة : ٥ .

كما ان الرسول عندما هاجر الى المدينة اتخذ بيت المقدس قبلة له في الصلاة تأليفاً لقلوبهم وكان اليهود يصومون عاشوراء فلما قَدِمَ الرسول يثرب ورآهم يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بني اسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، فقال الرسول : فأنا احق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً [3] .

---

(١) ابن هشام ٣/٧٤ .
(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢/١٧ .
(٣) البخاري جـ ١ ص ٤٩٨ .

الفصل الثاني

بوادر النزاع بين محمد واليهود

دعوة اليهود للاسلام – المناقشة الدينية – لوم اليهود على عدم اسلامهم – تحويل القبلة – مخالفة اليهود في تشريعاتهم .

دعوة اليهود للاسلام

يقول الكاتب اسرائيل ولفنسون في تحليل أسباب النزاع بين محمد عليه السلام واليهود : (لو وقفت تعاليم الرسول عند محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكلف اليهود ان يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين . ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وانفسهم حتى يحطم الأصنام ويقضي على العقائد الوثنية لكن بشرط ألاّ يتعرض لهم ولدينهم ، وبشرط ألاّ يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها ، وتأبى ان تعترف بأنه يوجد نبي من غير بني اسرائيل ...) [1] .

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب – ولفنسون – ص ١٢٢ .

هذا رأي الكاتب في أسباب نزاع محمد واليهود ، ولكن الحقيقة انه ما كانت رسالة محمد مهادنة قوم ضالين ، ولا التزلف الى أي فئة ابتغاء مغنم عارض ، بل كانت رسالته الى الناس جميعاً رضيت هذه الفئة أم غضبت تلك ، لأنه منفذ أمر ربه (قل يا أيّها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) .

كانت رسالته الى العرب أوّلاً لينشلهم من عبادة الأوثان واقتراف الآثام ، وكانت رسالته ايضاً لليهود لإصلاح ما طرأ على دينهم من بدع ، وما اعتورت اخلاقهم من فساد وانحراف عن اصول دينهم . فها هو القرآن الكريم يدعو بني اسرائيل للايمان برسالة محمد .

(يا بني إسرائيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ التي أنْعَمْتُ عليكم ، وأوْفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيايَ فارهبون . وآمنوا بما أنزلتُ مُصَدّقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافرٍ به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتقون . ولا تلبِسُوا الحق بالباطلِ وتكتموا الحقّ وأنتُم تعلمون) البقرة : ٤٠

في هذه الآيات يذكّر الله بني اسرائيل بالنعم التي تفضّل بها عليهم وهذا يوجب عليهم الانصياع لأوامر الله وعدم التمرد عليها والوفاء بعهد الله اي عبادته وحده والخضوع لشرائعه والايمان بمحمد الذي تنطبق صفاته على ما جاء في كتبهم عن النبي الموعود ، فلو وفى بنو اسرائيل بهذا العهد لوفى الله بعهده لهم من الرفعة في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة . ثم يدعوهم الله للايمان بالقرآن المنزل من عنده المصدّق لما معهم من مقاصد الدين الالهي وأن لا يكونوا أول من يكفر به مستبدلين بهدايته عرضاً قليلاً زائلاً من متاع الحياة الدنيا . بل عليهم ان يتقوا ويخافوا الله وحده وأن لا يخلطوا الحق المنزل من عنده – وهو القرآن – بالباطل المفترى من عندهم . ولا يكتموا الحق الذي يعرفونه من انطباق صفات الرسول محمد على النبي الذي وُعدوا به في كتبهم .

فالعداوة بدأت بين الرسول واليهود عندما وُجهت اليهم دعوة الاسلام

« فلما وجهت الدعوة اليهم للدخول فيه امتعضوا منه ، ومن هنا اخذوا يخاصمون الرسول »[1] .

المناقشة الدينية

تطور النزاع بين الرسول واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين فكان احبار اليهود يوجهون الأسئلة الى رسول الله ، ويظنون انهم يصلون فيها الى حد التعجيز ، فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ، وكانوا يطالبون الرسول بأن يأتي بالمعجزات كما صرّح بذلك القرآن (الذين قالوا : إن الله عَهِدَ إلينا[2] ألاّ نؤمِنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقُرْبانٍ تأكُلُهُ النـارُ) آل عمران : ١٨٣ .

وطلب اليهود من الرسول ان يأتيهم بكتاب من السماء (يسألُكَ أهلُ الكتاب أن تُنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذَلِكَ ، فقالوا : أرِنا اللهَ جهرةً فأخذَتْهُمُ الصاعقةُ بِظُلْمِهِمْ) النساء : ١٥٣ .

وقال يهود لرسول الله : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله فليُكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله تعالى في ذلك : (وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينّا الآيات لقوم يوقنون) . البقرة : ١١٨

لوم اليهود على عدم اسلامهم

واستمر اليهود في الخصام والجدال فجعل القرآن يلومهم ويعنفهم على عدم الايمان برسالة محمد (ولما جاءهم رسولٌ مِنْ عِندِ الله مُصدّق لِما مَعَهُمْ . نَبَذَ[3] فريقٌ مِنَ الذين أوتوا الكِتابَ كِتَابَ اللهِ وراء

---

(١) M watt, Muhammad at Medina p. 195 .

(٢) عهد الينا : أمرنا واوصانا .

(٣) نبذ : طرح ورمى به لقلة الاعتداد به ، أو اهمله .

ظهورهِم كأنّهم لا يعلمون) البقرة : ١٠١ .

والمعنى : ولما جاءهم رسول من عند الله – وهو محمد عليه السلام – مطابقة أوصافه لما في كتبهم نبذ فريق من اليهود ما ذكر في كتبهم عن هذا الرسول ، كأنه لم يرد فيها ذكره ولم يعلموا عنه شيئاً .

ويقول الله تعالى فيهم ايضاً : (ولمّا جاءهُم كِتابٌ مِنْ عند الله مُصدّقٌ لِمَا مَعَهُم وكانوا من قبْلُ يستفتحونَ على الذين كفروا ، فلمّا جاءهُم ما عَرَفوا كفروا به ، فلعنةُ الله على الكافرين . بئسَ ما اشتروا به أنْفُسَهُم : أنْ يكفروا بما أنْزَلَ الله بَغياً أن يُنَزّل اللهُ من فَضْلِهِ على من يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ فباءُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وللكافرين عَذَابٌ مُهين) البقرة : ٨٩ . ٩٠ .

والمعنى: ولما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن مصدق لما معهم من التوراة ، وقد كانوا من قبل رسالة محمد يطلبون الفتح والنصر على مشركي العرب بالنبي المنتظر ، فلما اتاهم محمد الذي تنطبق صفاته على صفات النبي الموعود به في كتبهم كفروا به حسداً لأنه ليس منهم بل من العرب ، فاستحقوا بذلك الجحود لعنة الله وهي الطرد من رحمته ، ألا بئس الشيء الذي باعوا انفسهم في سبيله وهو الكفر بما انزل الله من الوحي ظلماً منهم وعناداً ان ينزل الله الوحي من فضله على من يختاره من عباده ، فاستوجبوا بكفرهم غضب الله مجدداً وان أمثال هؤلاء يستحقون عذاباً مذلاً لعنادهم .

أو نرى القرآن يحذرهم من عاقبة عدم ايمانهم الذي يستوجب غضب الله عليهم (يا أيّها الذين أُوتوا الكتابَ آمنوا بما نزّلْنا مُصَدّقاً لِمَا مَعَكُمْ من قبل ان نطمِسَ وجوهاً فنرُدّها على أدبارها ، أو نلعنَهم كما لَعَنّا اصحاب السَبْتِ وكان أمْرُ الله مفعولا) . النساء : ٤٧ .

والمعنى : آمنوا ايها اليهود بما أنزلنا وهو القرآن المصدق لما معكم من مقاصد الدين من قبل أن نستأصل أثركم ووجوه مقاصدكم ونردها خاسئة

مخذولة متقهقرة الى الخلف بإظهار الإسلام ونصره ، او نطردكم من رحمتنا كما طردنا الذين خالفوا أمرنا حين فعلوا ما نهوا عنه وهو الصيد يوم السبت [1] .

هذه الآية تدل على ان القرآن وحي إلهي ، فالقرآن هدد اليهود بالاستئصال والخسران إذا ظلوا على كفرهم ، فما هي إلاّ فترة وجيزة حتّى تحقق وعد الله فيهم فهزمهم رسول الله محمد في جميع محاولاتهم العدوانية على الاسلام فقتل منهم الرسول من قتل وأجلى الآخرين عن قراهم تاركين اموالهم مشردين هائمين على وجوههم .

تحـويل القبلة

وقد اغاظ اليهود تحويل القِبْلة من القدس الى مكة فبعد سبعة عشر شهراً من مقام محمد عليه السلام بالمدينة المنورة كان طوالها يتجه في صلاته نحو بيت المقدس ، اوحى الله له ان يجعل قبلته ووجهته في الصلاة الى المسجد الحرام بيت ابراهيم عليه السلام الذي بناه لعبادة الله (قد نرى تقلّبَ وجهك في السماء [2] فلنولينّك قبْلةً ترضاها ، فولّ وَجْهَكَ شطْرَ المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فوَلّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ) [3] البقرة : ١٤٤ .

رأى اليهود في هذا التغيير دلالة على تحول خطير ضدهم فجاء نفر منهم : رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الاشرف الى النبي يقولون له : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم انك

---

(١) كان محرماً على اليهود العمل والصيد يوم السبت .

(٢) ذكر العلماء ان النبي لما قدم المدينة توجه في صلاته الى قبلتهم ليكون ذلك ادعى لهم لقبول الاسلام فلما تبين عنادهم وأيس منهم أحب ان يحول قبلته وقد حدث ان صارح جبريل برغبته هذه . متمنياً عليه أن يدعو ربه بذلك ولكن جبريل قال له انت اكرم مني عند الله فادعه بذلك . وعندما صعد جبريل نحو السماء ظل النبي ينظر اليه وهو يتمنى ان يحقق الله رغبته . فنزلت الآية الكريمة (قد نرى تقلب وجهك في السماء) .

(٣) شطره : نحوه

على مِلة ابراهيم ودينه ؟ ارجع الى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك .

ولكن الأمر بتحويل القبلة بقي نافذاً لم يتحوّل ، وغدت مكة قبلة المسلمين يتجهون اليها في صلواتهم ، ونعت القرآن هؤلاء المعترضين على الرسول بـ (السفهاء) قال الله تعالى (سيقول السفهاء من الناس : ما ولاّهُمْ عن قِبْلتِهِمُ التي كانوا عليها قل : لله المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاءُ الى صراطٍ مستقيم) البقرة : ١٤٢ .

مخالفة اليهود في تشريعاتهم

وحقد اليهود أيضاً على ما رأوه من نسخ الاسلام لأحكام من شريعتهم . من ذلك صوم عاشوراء ، صامه المسلمون في اول عهدهم بالمدينة المنورة ثم اهملوه بصيام شهر رمضان ، ومنه تحليل اكل بعض المأكولات المحرمة عند يهود مثل اكل لحوم الابل ، فبعد ان أحلّ الاسلام ما حرمه يهود من الاطعمة قالوا : إذا كنت يا محمد على ملة ابراهيم والنبيين من بعده فكيف تستحل ما كان محرماً عليه وعليهم كلحم الابل فرد عليهم القرآن بقوله (كُلّ الطعام كان حِلاً لبني اسرائيلَ إلاّ ما حرَّم اسرائيلُ على نفسه من قبْلِ أن تُنَزَّل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين) آل عمران : ٩٣ .

هذه الآية ترد على اليهود بأن كل الطعام كان مباحاً لبني يعقوب من قبل نزول التوراة إلاّ ما حرمه يعقوب على نفسه لسبب يختص به فحرموه على انفسهم دون امر من الله ، ثم امر الله رسوله محمداً ان يطلب منهم أن يأتوا من التوراة بدليل يثبت ان شريعة ابراهيم تحرم ذلك إن كانوا صادقين ، فعجزوا عن الأتيان بدليل وأفحموا لأن التوراة لا تؤيد دعواهم .

الفصل الثالث

تآمر اليهود على الإسلام

الحصار الاقتصادي – اثارة الاحقاد الدينية والفتن – بث الشكوك في الاسلام – التجسس على الاسلام – محاولة التأثير على الرسول .

تبين مما تقدم ان رفض اليهود للدعوة الاسلامية كان سبب الخصومة – في مرحلتها الأولى – بين اليهود والمسلمين . كما ان اليهود لما رأوا الرسول الف بين قلوب اهل يثرب واوجد منهم كتلة واحدة سوف تحد من سلطانهم لا محالة ، لذلك بدأوا بمقاومته وتنظيم المؤامرات ضده وقد ذكر القرآن بعض مؤامراتهم وكشف نياتهم السيئة التي ارادوا بها محاربة الاسلام ليحذر المسلمون من شرهم والى القارىء بعض مؤامراتهم :

الحصـــار الاقتصادي

قام بعض اليهود بمؤامرة تهدف الى ابعاد المسلمين عن دينهم وذلك بمقاطعتهم اقتصادياً وامتناعهم عن دفع ما يجب عليهم دفعه من ديون وبيوع وأمانات لمن اعتنق الاسلام مدّعين ان ما كان لهم من حق انما كان لهم قبل الاسلام ، وان دخولهم في هذا الدين قد ابطل حقهم فيه والى ذلك يشير القرآن :

﴿ ومِنْ أهلِ الكتاب مَنْ إن تأمَنْهُ بقنطارٍ يؤدّه اليك ومنهم مَنْ إن تأمَنْهُ بدينارٍ لا يؤدّه اليك إلاّ ما دُمت عليه قائماً [١]، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ آل عمران : ٧٥ .

ويذكر المفسرون أن رجالاً من أهل الجاهلية – اي قبل الاسلام – باعوا يهوداً بضاعة ثم اسلموا ولما طلبوا من هؤلاء اليهود دفع الثمن ، قالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء عندنا لانكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادعوا انهم وجدوا ذلك في كتابهم فقال الله في الآية ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

عداوتهم للاسلام

ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ذات يوم بيت مِدراس اليهود فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فِنْحاص بن عَازُورا ، وكان من علمائهم ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق الله وأسْلِم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، فآمن وصدّق ، وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة ، ويضاعف لك الثواب . فقال فنحاص : يا أبا بكر ، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلاّ الفقير من الغني ، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء ، ولو كان غنياً مااستقرضنا أموالنا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، وضرب وجه فِنْحاص ضربة شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله . فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله لأبي بكر : ما الذي حملك على ماصنعت ؟ فقال : يارسول الله إن عدوّ الله قال قولاً عظيماً ،

---

(١) الا ما دمت عليه قائماً : الا إذا لازمته واحرجته .

زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فغضبتُ لله وضربت وجهه . فجحد ذلك فِنْحاص ، فأنزل الله رداً على فِنْحاص وتصديقاً لأبي بكر ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . سَنَكْتُبُ ما قالوا وقَتْلَهُمُ الأنبياء بغير حقّ ونقول ذُوقوا عذاب الحَرِيق ﴾ آل عمران ١٨١

اثارة الاحقاد الدفينة والفتن

ومن مؤامراتهم على الاسلام استغلال الاحقاد الدفينة التي كانت تعتلج في نفوس اهل يثْرب من الأوس والخزرج قبل الاسلام وإثارتها ، يدلنا على ذلك ما رواه ابن اسحق ، واليكم ملخصه :

« مر شاس بن قيس – وكان يهودياً شديد الطعن على المسلمين – على نفر من الأوس والخزرج بعد ان نزع الاسلام ما بينهم من احقاد وضغائن فغاظه ما رأى من أُلفتهم وصلاح ذات بَيْنهم فجلس اليهم ، واخذ يجرهم شيئاً فشيئاً الى أحداث الماضي المشحون بالعداوة والخصومة ، واخذ ينشدهم بعض ما قيل في حروبهم[1] من الشعر فحرك من وجدانهم وهاج من عصبيتهم ، وما زال بهم حتى تنادوا فيما بينهم : السلاح . السلاح ، وكاد يقع الصدام فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم مخاطباً اياهم : أبدعوى الجاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله للاسلام واكرمكم به ... واستنقذكم من الكفر وألف بين قلوبكم ، فعرف القوم عندئذ انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين قد اطفأ الله عنهم كيد عدو المسلمين شاس بن قيس ، وفي هذه الحادثة نزل الوحي الالهي[2] :

---

(١) المراد بذلك معركة يوم بعاث يوم اقتتل الأوس والخزرج وانتصر الأوس .

(٢) راجع ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(قُلْ يا أهلَ الكتاب لِمَ تَصُدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجاً وأنتم شُهداءُ وما الله بغافِلٍ عمّا تعملون . يا أيّها الذين آمنوا إن تُطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وانتم تُتْلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يَعتصم بالله فقد هُدِيَ الى صراط مستقيم) آل عمران : ٩٩ ــ ١٠١ .

وهذا الذي فعله شاس بن قيس يفعله اعداء المسلمين دائماً والصهيونيون حالياً فحري بالمسلمين والعرب ان يجتنبوا كيدهم وأن يأخذوا درساً من هذه الحادثة فلا يجعلوا لاعدائهم سبيلاً الى التفريق بين وحدتهم واخوتهم في الدين .

بث الشكوك في الاسلام

وعمد اليهود الى إضعاف الايمان في نفوس المسلمين وزعزعة ثقتهم بالاسلام ، وذلك باثارة الشكوك في قلوبهم وتلقينهم أن ما في الاسلام انما هو تحريف لبعض ما جاء في التوراة وان في القرآن تناقضاً وغير ذلك من شبهات .

والحقيقة ان الاسلام ما هو إلاّ دعوة صريحة الى الرجوع للدين الحق الذي جاء به جميع المرسلين وتطهيره مما اعتوره من اوهام واختلافات أثارت البغضاء بين البشرية .

ذكر القرآن محاولات اليهود في صد المسلمين عن الاسلام بقوله : (ودّت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يُضلون إلاّ انفسهم وما يشعرون . يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وانتم تشهدون) آل عمران : ٦٩ ، ٧٠ .

والمعنى : احبت طائفة من يهود ان يوقعوكم في الضلال بإلقاء الشبه التي توهن عقيدتكم ، ولكنهم حين يبغون اضلالكم بالشبه إنما ينصرفون

عن النظر في طرق الهداية التي أتى بها محمد فيكون ذلك داعياً الى ضلالهم غير شاعرين بهذا الضلال الذي يلازمهم . ثم يقول الله تعالى لهم : لِمَ تكفرون ايها اليهود بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد وانتم تشهدون بصحتها بما جاء في كتبكم من نعته والبشارة به .

ومن مؤامرات اليهود لتشكيك المسلمين في دينهم ما ذكره القرآن :

(وقالت طائِفَةٌ مِنْ أهلِ الكتاب آمنوا بالذي أُنْزِل على الذين آمنوا وجْهَ النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) آل عمران : ٧٢ .

جاء في اسباب نزول هذه الآية ان بعض اليهود تحدثوا فيما بينهم قائلين : « اعطوهم الرضى بدينهم اول النهار واكفروا آخره فإنه اجدر ان يصدقوكم ويعلموا انكم قد رأيتم منه ما تكرهون وهو اجدر ان يرجعوا عن دينهم » .

وهذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود المسلمين عن الاسلام مبني على قاعدة طبيعية من سلوك البشر وهي : أن علامة الحق ان لا يرجع عنه من يقتنع به . وقد فقه هرقل والي الروم هذه الحقيقة فكان مما سأل عنه ابا سفيان ـ احد خصوم محمد ـ قوله (هل يرجع عن الاسلام من دخل فيه ، فقال ابو سفيان : لا) .

فاليهود ارادوا غش الناس من هذه الناحية ليقولوا لولا ان ظهر لهؤلاء بطلان الاسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه .

ولكن ما تعليل هذه المحاولات المستمرة في اضلال المسلمين عن دينهم ؟ فلقد كانوا يعبدون من قبل : الأوثان ، والوثنية من اشد ما تستهجنها اليهودية بينما الاسلام دين توحيد يقارب اليهودية في التوحيد ، فكان الأحرى باليهود أن يؤيدوا الاسلام لا أن يتآمروا عليه هذا التآمر الفاضح .

لكن تعليل مؤامراتهم أوضحها القرآن بقوله :

(ودَّ كثيرٌ من أهْلِ الكتاب لو يَرُدونَــكُم مِنْ بَعْدِ إيمانكم كفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ ما تبين لَهُمُ الحَقّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتيَ الله بأمْرِهِ إن الله عــلى كل شيء قدير) البقرة : ١٠٩ .

هذه الآية تعلل سبب حرص اليهود على اضلال المسلمين وتذكر انه : الحسد !. الحسد من دعوة الاسلام التي عرفوا انها الحق وأنها بدأت تؤتي ثمارها في معتنقيها فألفت بين قلوبهم وبدأت تنهض بهم وترفع شأنهم .

ولكن الحاسد يتمنى ان يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم ان تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من اثرها سيادة المحسود عليه ، وادخاله تحت سلطانه وهذا ما كان يتوقعه اليهود ، وهذا ما صرح به القرآن بقوله :

(مَا يَودّ الذين كفروا مِنْ أهْلِ الكتاب ولا المشركين أن يُنَزّل عليكم مِن خَيْرٍ من ربكم والله يَختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) البقرة : ١٠٥ .

ولكن أمام هذه المحاولات الدنيئة يظهر سمو القرآن فهو كتاب السلام والمسامحة فيأمر المسلمين بالعفو والصفح وذلك في تتمة الآية التي ذكرت حسد اليهود ، فيقول تعالى : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) . وفي هذا النص القرآني ايضاً وعد بالمعونة والتأييد وحسن العاقبة ، وهذا الوعد الذي تحقق بعد فترة قصيرة مما يدل على ان القرآن وحي الهي كما يدل على صدق رسالة محمد .

التجسس عـلى المسلمين

وذكر أهل الأخبار اسماء جماعة من يهود دخلوا في الاسلام ولكنهم كانوا يبطنون الكفر به ، وكان اسلامهم وسيلة للتجسس عليه ولنقل

اخبار الرسول وما يريد عمله الى اليهود والى حلفائهم المشركين . وكان جلوسهم الى بعض المسلمين لاستراق السمع ، ولاثارة الشكوك في قلوب المستضعفين منهم وللاتصال بمن كان على شاكلتهم من منافقي الأوس والخزرج للعمل معاً على تقويض الاسلام واثارة الفتنة بين المسلمين. ولإبطال اثر هذه الفتنة نزل الوحي الالهي بالنهي عن الاتصال باليهود والاطمئنان اليهم ، وبقطع الصلة بهم ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دُونِكُم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عَنِتّمْ قد بَدَتِ البغضَاءُ مِنْ افواههم وما تخفي صُدُورهم اكبرُ قد بيّنا لكم الآيات إن كُنتم تعقلون) آل عمران : ١١٨ .

والمعنى : لا تتخذوا ايها المؤمنون اخصاء واصدقاء من غير دينكم تطلعونهم على اسراركم لأنهم يريدون افسادكم ويتمنون وقوعكم بالضرر ، قد ظهرت امارات البغضاء من زلات السنتهم وما تضمره قلوبهم اعظم مما يبدو . قد أظهر الله لكم العلامات التي يتميز بها الصديق من العدو فاحذروهم إن كنتم من اصحاب العقول والادراك الصحيح .

ليس معنى الآية نهي المسلم عن مصادقة من يخالفه في دينه مطلقاً بل الآية تحرم مصادقة الذي يتصف بصفات السوء ويتمنى وقوع الضرر للمسلمين وقد قُصِدَ بهذه الصفات اليهود الذين كانوا اشد الناس حرباً على الاسلام في بدء ظهوره . اما الذين ظهر اخلاصهم للمؤمنين فالقرآن يأمر بمصادقتهم والاحسان اليهم والعدل معهم وهذا ما تنطق به الآية القرآنية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا[١] اليهم ان الله يحب المقسطين) الممتحنة : ٨ .

وهذا ما سار عليه المسلمون في الماضي في اشد ايام حماسهم الديني فقد اكرموا الطوائف المسيحية التي كانت تعيش بينهم اشد الاكرام وقرّبوا

(١) التقسط : العدل .

علماءهم واسندوا اليهم اكبر المناصب في خدمة الدولة الاسلامية كما هو مشهور في التاريخ.

ولنعرض الآيات القرآنية التي عقّبت على منع مصادقة اليهود:

(ها أنتم أولاءِ تُحبّونهم ولا يحبّونَكم وتُؤمنون بالكتاب كُلّه وإذا لَقُوكُم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قُل موتوا بغيظكم إن الله عليم بِذَاتِ الصدور. إن تمسسكم حَسَنَة تسُؤْهُم وإن تُصِبكُمْ سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط) آل عمران: ۱۱۹، ۱۲۰.

تأمل قوله تعالى (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) فالقرآن ينطق بأفصح عبارة واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذي هو أثر من آثار الاسلام وهو أنهم يحبون اشد الناس عداوة لهم. هنا يلتقي الاسلام مع المسيحية في إرادة الخير للانسانية في قول السيد المسيح: (احبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم).

ومعنى قوله تعالى: (وتؤمنون بالكتاب كله) أي انكم ايها المسلمون تؤمنون بجميع ما أنزل الله من كتب مقدسة كالتوراة والانجيل والقرآن، فليس في نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الالهية او النبيين الذين جاءوا بها، فحبكم اياهم هو بمقتضى ايمانكم هذا، وكان الأحرى ان يحبوكم لأنكم تؤمنون بكتب الله، وبعد ان بيّن الله نفاقهم نحو المؤمنين أمر رسوله محمداً بالرد على لؤمهم وغدرهم ونفاقهم بهذه الجملة البليغة التي تحمل اشد انواع الازدراء بهم (قل موتوا بغيظكم).

واخيراً بيّن القرآن نيات اليهود السيئة نحو المؤمنين، وان هذه النيات لن تضر المؤمنين إذا صبروا على اذاهم واتقوا موالاتهم، لأن الله سيحفظهم من كيدهم (لا يضركم كيدهم شيئاً) هذا الوعد الالهي الذي تحقق في نصره للمؤمنين وخذلانه لليهود وهزيمتهم في جميع محاولاتهم العدوانية.

محاولة التأثير على الرسول

ومن مؤامراتهم على الاسلام محاولتهم فتنة محمد نفسه والتأثير عليه للعبث بتعاليم الله وعدم الحكم بها على وجهها الصحيح ، فقد ذكر اهل السير والأخبار ان زعماء يهود قال بعضهم لبعض : (اذهبوا بنا الى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه فانما هو بشر ، فأتَوه ، فقالوا له : يا محمد ، انك قد عرفت أنّا أحبار يهود واشرافهم وسادتهم ، وانّا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا ، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك رسول الله عليهم [1] فأنزل الله فيهم : (وأنِ احكم بينهم بما أنزَلَ الله ولا تتبع أهواءهُم واحذرْهُم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فإن تولّوا فاعلم أنما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون) المائدة : ٤٩ .

في هذه الآية تظهر سمو تعاليم الاسلام فالله يأمر رسوله محمداً بأن يحكم بين اليهود بما أنزل الله وان لا يتبع رغباتهم واهواءهم في الحكم ، ويحذره من أن يصرفوه عن بعض ما أنزل الله عليه ، فإن اعرضوا عن حكم الله وارادوا غيره فاعلم يا محمد بأن الله انما يريد ان يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم التي اقترفوها وسيجازيهم في الآخرة على عصيانهم وتمردهم وإن كثيراً من الناس لمتمردون على احكام الشريعة .

هذا النص القرآني يسمو بالاحكام العادلة ويجعل تنفيذها أمراً محتماً بصرف النظر عن أوضاع الناس او اي مؤثرات اخرى ، ويجعل القانون واحداً لكل الناس ولكل الطبقات ، كما ان هذا النص القرآني هو ارشاد للقضاة كي لا ينقادوا لأهواء السادة والكبراء الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على حساب الحق والعدالة .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ / ٢١٦ .

الفصل الرابع

عبادة اليهود للمال

دواعي حب المال عند اليهود ـ حرمة العمل يوم السبت ـ المادة الطاغية عند اليهود .

دواعي حب المال عند اليهود

ليس في تاريخ البشرية أمة اشتهرت بحب المال والسعي الى جمعه كما اشتهر به اليهود فقد سلكوا في ذلك كل الطرق المشروعة وغير المشروعة ، حتى ما كان بعيداً عن المروءة ، واسرفوا في الحرص على جمع المال الى حدّ العبادة . حتى ان السيد المسيح الذي ارسله الله لهداية بني اسرائيل خاطبهم بهذه الكلمة الرائعة : (لا تعبدوا ربين : الله والمال) .

ولكن ما هو سبب هذا الحرص على جمع المال ؟

لعل ذلك يرجع الى عقيدتهم التي تصفهم بأنهم شعب الله المختار ، ولهذا هم يريدون السيطرة على العالم ، والمال من الوسائل الهامة التي تمكنهم من الوصول الى هدفهم . وها هم الآن يسيّرون دفة الدول الكبرى بالمال الذي اكتنزوه والذي يحركون به اقتصاديات العالم وسياسته .

ولعل ذلك يرجع ايضاً الى عقيدتهم المادية فهم لا يؤمنون إلاّ بهذه الحياة المادية ولا حياة اخرى عندهم ، وقد اشار القرآن الى ذلـك حين تحدث عنهم فقال : (يا أيّها الذين آمنوا لا تتولّوْا قوْماً غَضِبَ الله عليهم قد يَئِسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من اصحاب القبور) الممتحنة : ١٣

والمعنى : لا تصادقوا ولا تناصروا هؤلاء اليهود الذين استحقوا غضب الله ، فهم قد انقطع املهم من ثواب الدار الآخرة بسبب نكرانها ، كما انقطع أمل الكفار الوثنيين من التقائهم بالموتى الذين سكنوا القبور يوم القيامة .

هذا الحكم الذي نطق به القرآن عن اليهود هو حكم اظهرت الدراسات الدينية صدقه مما يشهد ان القرآن وحي إلهي ، فالتوراة التي في ايدي اليهود لا تجد فيها ذكراً للروح ولا للحياة الآخرة [١] .

يقول (ول ديورانت) : « ان اليهود قلما كانوا يشيرون الى حيـاة اخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء من الخلود . وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا » [٢] .

هذه العقيدة التي تنكر وجود حياة اخرى يُجازى فيها المحسن على احسانه ، والمسيء على اساءته تؤدي بالانسان الى الانزلاق في هاوية المنكرات واقتراف الآثام ، وتجعل المادة واللذات الجسدية الهدف الذي لأجله يعيش ويحيا ، وهذا ما جعل اليهود قوماً ماديين يحرصون على جمع المال بمختلف السبل . قد وصفهم بهذا الوصف ادولف هتلر إذ قال « ... ذلك ان اليهود لا يمكنهم ان يؤلفوا منظمة دينية لأنهم لا مثالية لهم ولأنهم لا يتطلعون الى

---

(١) لقد نجم عن عدم ذكر اليوم الآخر في كتب العهد القديم ضعف هذه العقيدة عند اليهود الذين انقسموا بالنسبة هذا المعتقد الى قسمين : قسم يعرفون باسم (فريسيين) يعتقدون بيوم الدين وقسم يعرف باسم (صدوقيين) ينكرون البعث والقيامة . والقرآن أشار الى هذين المعتقدين كما تراه في هذا البحث .

(٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥ .

ما وراء عالمنا هذا فالتلمود لا يشير بكلمة الى العالم الآخر »[1] .

ولكن على الرغم من عقيدتهم هذه كان في زمن البعثة المحمدية يهود يدّعون بأن ثواب الدار الآخرة خاص بهم وحدهم ، فطلب القرآن منهم الدليل على صدق ادعائهم بأن يتمنوا الموت الذي يوصلهم الى هذا النعيم الخالص لهم ، فإن لم يتمنوا الموت فما هم بصادقين في دعواهم قال تعالى : (قُلْ إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عِندَ الله خالصةً مِنْ دُونِ الناسِ فتَمَنّوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمَنّوْهُ ابداً بما قدّمت ايديهم والله عليم بالظالمين) البقرة : ٩٤ ، ٩٥ .

علّل القرآن المانع لهم من تمني الموت بأنهم يعرفون انفسهم انهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة ، فتمني الموت هو الميزان الذي يعطينا الحكم الصحيح على ايمان الشخص . فالمؤمن المحسن لا يخشى الموت لأن وراءه حياة افضل من هذه الحياة ، بينما العاصي المقترف للآثام يتراءى له شبح الموت مخيفاً رهيباً . وقد بيّن القرآن حقيقة حالهم وحبهم للخلود في الأرض في تتمة الآية السابقة (ولَتجدنّهم أحْرَصَ الناسِ على حياةٍ [2] ومن الذين اشركوا ، يَوَدّ أحَدُهُم لو يُعَمّرُ ألفَ سَنَةَ وما هو بمزحزحه مِنَ العذاب أن يُعمّر ، والله بصير بما يعملون) البقرة : ٩٦

فاليهود هم احرص الناس على مطلق حياة وهم أحرص من الذين اشركوا لأنهم يتمنون مُطلق حياة ، فهم لا يؤمنون بحياة اخرى فترى الواحد منهم يتمنى ان يطول عمره في هذه الدنيا الف سنة ، ولكن تمنيهم هذا لو تحقق لن ينجيهم من عذاب الله جزاء اعمالهم .

---

(١) (كفاحي) ترجمة الأستاذ لويس الحاج

(٢) انظر الى البلاغة القرآنية في تنكير كلمة حياة التي تعبر تعبيراً دقيقاً عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها مهما كانت حقيرة القدر ضئيلة القيمة .

حرمة العمل يوم السبت

إن ارادة الله التي تحرص على هداية الشعوب الضالة عالجت هذه المادية المسيطرة على اليهود بتشريع خاص بهم وهو حرمة العمل يوم السبت .

فيوم السبت من الأيام المقدسة التي أُمِرَ اليهود مراعاة حرمتها فلا يجوز ليهودي العمل في هذا اليوم ، ولا القيام بالأفعال التي تؤدي الى نفع مادي ، ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالعمل فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيماً . ولم يكن عند اليهود خطيئة اعظم من التعدي على حرمة يوم السبت إلاّ عبادة الأوثان [1] والسبت هو (شباث Shabbath) في العبرانية بمعنى راحة ، لأنه يوم الرب فيه (استراح) [2]

يوم السبت في القرآن

وردت اشارات الى يوم السبت في مواضع من القرآن الكريم في معرض الكلام على بني اسرائيل واشير في بعضها الى اخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم والى نقضهم له وعدم مراعاتهم جميعاً لهذا العهد والى انهم اعتدوا فيـــه ، من ذلك قوله تعالى : (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهُم يومَ سبتهم شُرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلُوهُم بما كانوا يفسقون)الاعراف:١٦٣.

والمعنى : اسأل يا محمد بني اسرائيل عن خبر اهل القرية التي كانت قريبة من البحر وكان اهلها يتجاوزون حدود الله بصيد السمك في يـــوم

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ١/٥٣٧ .

(٢) في المحكم : انما سمي سبتاً لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد الى يوم الجمعة ، ولم يكن في السبت شيء من الخلق . قالوا : فأصبحت السبت منسبتة أي قد تمت وانقطع العمل فيها ... قال الازهري واخطأ من قال : سمي السبت بذلك لأن الله أمر بني اسرائيل فيه بالاستراحة ... لأنه لا يعلم في كلام العرب سبت بمعنى استراح وانما سبت قطع ، ولا يوصف الله تعالى بالاستراحة لأنه لا يتعب والراحة لا تكون الا بعد تعب . ولقد صرح القرآن بأن الله خلق الخلق في ستة ايام ولكن بدون تعب (ولقد خلقنا السموات والأرض في ستة ايام وما مسنا من لغوب) . واللغوب هو الاعياء والتعب .

السبت إذ تأتيهم الاسماك يوم السبت ظاهرة على وجه الماء ، وتختفي في الأيام الأخرى وكان ذلك إختباراً من الله لهم ليظهر المطيع من العاصي .

ويذكر العلماء كيفية الاعتداء الذي سلكه أهل هذه القرية وهو أنهم اتخذوا حظيرة يحبسون فيها الأسماك يوم السبت ليأخذوها في الأيام الأخرى ، وبهذا الاحتيال الآثم تحللوا من أمر الله ، وفوتوا على انفسهم حكمة الله التي ارادت ان تنقذهم من تهالكهم على الدنيا وانغماسهم فيها فاستحقوا بذلك غضب الله .

ثم يقول الله تعالى فيهم بعد الآية السابقة :

(وإذا قالت أمّةٌ منهم لِمَ تَعِظونَ قوماً اللهُ مهلكُهُم او مُعَذّبهم عذاباً شديداً . قالوا معذرةً الى ربكم ولعلهم يتقون . فلمّا نسوا ما ذكّروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) الاعراف : ١٦٤ ، ١٦٥ .

والمعنى : ولكن جماعة منهم قالت للذين وعظوهم وحذروهم من مغبة عملهم : لاي سبب تنصحون قوماً الله مهلكهم بسبب ما يرتكبونه ، ومعذبهم في الآخرة عذاباً شديداً ؟ فرد عليهم الناصحون : وعظناكم اعتذاراً الى ربكم عن السكوت عن المنكر ورجاء ان تتقوا ربكم . ولكن لما أعرض المعتدون عن النصح حتى صار كالمنسي انجى الله الذين نهوا عن السوء وعاقب الذين ظلموا بعذاب شديد جزاء خروجهم عن طاعة الله .

المادة الطاغية عند اليهود

وبسبب إمعانهم المعيب في الحصول على المادة حرّم الله عليهم طيبات كانت حلالاً لهم من قبل ، قال الله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذِهِمُ الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم اموالَ الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

والمعنى : ان هؤلاء اليهود قد استحقوا بالظلم الذي اقترفوه ان يحرّم الله عليهم طيّبات كانت حلالاً لهم ولمن قبلهم فتحريمها عليهم كان عقوبة وتربية لهم ، من هذا الظلم منعهم كثيراً من الناس من الدخول في دين الله ثم عصيانهم ومعاندتهم انبياءهم ، وكذلك اخذهم الربا رغم انهم قد نهوا عنه . ثم ذكر القرآن نوعاً آخر من ظلمهم ايضاً وهو (اكلهم اموال الناس بالباطل) كالرشوة والغش وتطفيف الكيل والاحتكار والمضاربات . فهذا النص القرآني الموجز يعلن عن روح مادية طاغية امتلأت بها نفوسهم . ففي سبيل المادة أباحوا الربا ، وحسبنا ان نعلم انهم هم الذين جعلوا النظم المالية الحديثة تقوم على الربا فآل روتشيلد اليهود الذين ظهروا في القرن الماضي وانتشروا في اوروبا واميركا هم الذين فرضوا تلك النظم التي تقوم على الربا في الاقتصاد العالمي ، واكثر اليهود البارزين في النواحي الاقتصادية يتعاملون بالربا فهم يقرضون الحكومات ويوجهون سياستها حسب مخططهم المرسوم .

وقد وصف ادولف هتلر طريقة اليهود في التغلغل في اقتصاديات المانيا تمهيداً للسيطرة عليها بقوله :

(... وبدأ اليهود بقرض الناس مالاً بفائدة فاحشة ولم يكن الآريون قد اعتادوا هذا النوع من القروض فما تنبهوا إلاّ بعد فوات الأوان ، وبعد ان احتكر اليهود التجارة والاعمال الفنية شغلوا في المدن أحياء خاصة بهم مؤلفين دولة ضمن دولة ، ولكن الربا الفاحش الذي كانوا يتقاضونه افقدهم عطف السكان ... واشتدت النقمة عليهم عندما راحوا يسترهنون الأرض الواسعة ويتحكمون برقاب مالكيها وفلاحيها تحكماً جعل ضحاياهم تتألب ضدهم في نهاية الأمر وقد اكتشفت في هؤلاء الغرباء طفيليات مزعجة وخطرة)[1] .

---

(١) كفاحي ص ١٧٧ من الترجمة العربية للاستاذ لويس الحاج .

الفصل الخامس

طبائع اليهود

غرور اليهود بأفضليتهم على البشر — اماني اليهود بمغفرة الله — جُبن اليهود — غدرهم واجرامهم — يفسدون في الأرض — اشعالهم الحروب وبث التفرقة — يزاولون السحر .

غرور اليهود بأفضليتهم على البشر

في التعاليم اليهودية نجد الزعم القائل : ان بني اسرائيل هم « الشعب المختار » هذه الفكرة مع ما تحمل من مس لكرامة الشعوب الاخرى فانها تشجع معتنقيها على العدوان واستغلال الغير والاستهانة بالمعاصي والآثام اتكالاً على هذا التفضيل .

ان المطلع على القرآن الكريم يلمح فيه اشارة الى هذا التفضيل ، ولكن على خلاف ما يفهمه بنو اسرائيل ، يشير القرآن الى ذلك ليصحح مفهومه لديهم . يقول تعالى : (يا بني إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ الَّتي أنْعَمْتُ عليكم وأنّي فضّلتُكم على العالمين ١ . واتّقوا يوماً لا تَجزي نَفْسٌ عَن

(١) العالمين : المقصود به عالم زمانهم .

نَفْسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ مِنها شفاعةٌ ولا يؤْخَذُ منها عَدْلٌ ولا هُمْ يُنصرون) البقرة : ٤٧ ، ٤٨ .

إنّ تفضيل بني اسرائيل الذي قصده القرآن ما كان تفضيلهم على المؤمنين العاملين بشريعة الله بل كان تفضيلهم على شرّ طاغية في الوجود ألا وهو فرعون وحاشيته . وما فضّلهم رب العالمين عليه إلاّ لأنهم كانوا مظلومين وكان هو الظالم ، كما ذكر القرآن في كلامه عن بني اسرائيل (ونُريدُ ان نَمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض) وقوله تعالى (وتَمّت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) .

وما كان تفضيل القرآن تفضيلاً شخصياً لذواتهم او لجنسهم وانما يفضّل الله قوماً على قوم حسب اعمالهم ، ولذا بعد أن يأتي التفضيل في صدر الآية يعود الشطر الثاني من الآية فيحذرهم ان يغتروا بهذا التفضيل لأن كل نفس ستجزى بعملها قال تعالى (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عَدْلٌ ولا هم يُنصرون) .

والمعنى : احذروا يا بني اسرائيل يوم القيامة الذي سيقع فيه الحساب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً كتفكير ذنبها ولا يُقبل منها ان تأتي بشفيع يشفع لها ، ولا يؤخذ منها فداء او بدل عن سيئاتها ، ولا يستطيع احد ان يدفع العذاب عن مستحقيه .

فلو كان بنو اسرائيل مفضلين على البشر كما يعتقدون لما وجّه الله اليهم هذا الخطاب الصريح من ان الله سيجازيهم على اعمالهم ، ولا ينفعهم شفيع ولا تؤخذ منهم فدية للخلاص من عقاب الله إذا كانوا مذنبين .

وقد علّل بعض العلماء هــذا التفضيل بكثرة انبيائهم ، ولكن كثرة انبيائهم دليل اتّهام على سوء عنصرهم ، فكانوا كلما حسنت احوالهم على يد نبي ثم مات ارتدوا الى بغيهم وعصيانهم فيرسل الله نبياً آخر لاصلاحهم .

وهذا التفضيل الذي يدّعونه من انهم وحدهم ابناء الله واحباؤه انكره الله ايضاً بقوله : (وقالتِ اليهودُ والنصارى نحنُ أبناءُ الله وأحِبّاؤه ، قُلْ فلِمَ يُعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بَشَرٌ مِمّن خَلَقَ ، يغفر لمن يشاء ويُعَذّب من يشاء) المائدة : ١٨ .

انظر الى هذا البرهان المفحم على نفي تفضيلهم ، فالقرآن يقول لهم بصراحة : إذا كنتم ايها اليهود مفضلين على البشر كما تزعمون فلِمَ هذه العقوبات التي عاقبكم الله بها عبر العصور بسبب عصيانكم فشردكم واصبحتم مثلاً سيئاً للبشرية بسبب سوء اعمالكم ، وفي قوله تعالى في الآية (بل انتم بشر مِمّن خلَق) رد قاطع على فكرة التمييز العنصري وعلى فكرة (شعب الله المختار) .

فالشعوب ــ في نظر القرآن ــ تتساوى عند الله ولا فضل لشخص على آخر ولا لأبيض على أسود إلاّ بعمله وتقواه ، وخير الشعوب هي التي تؤمن بالله وتدعو الى الخير وتنهى عن الشر وتقوم بواجبات العدالة . وقد وصف القرآن أمة محمد بخير الأمم ، قال تعالى : (كُنْتُم خيرَ أمّةٍ أُخرِجَت للناس تأمــرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران : ١١٠

فالخير والامتياز هنا مقرونان بالصفات التي ذكرتها الآية القرآنية . من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله .

اماني اليهود بمغفرة الله

رسخ في وهم اليهود ان الخلاص والنجاة جماعي لا فردي ، وان مجرد الانتساب الى ذرية ابراهيم يضمن لصاحبه الخلاص الأبدي .

هذه العقيدة ظلت تلازمهم وتنظم سيرتهم في مختلف اطوار التاريــخ وجعلتهم اشد الشعوب استغراقاً في الانحرافات الخلقية وانغماساً في المنكرات ، فكان ذلك داعياً الى اضطهادهم من جميع الشعوب التي جاوروها .

هذه الفكرة الضالة تعرّض لها القرآن وردّ عليها بقوله تعالى في شأن اليهود : (وقطّعناهم في الأرض أُمَماً ، منهُمُ الصالحون ومنهم دُونَ ذلك وبلوناهم بالحَسَنَاتِ والسيئات لعلهم يرجعون . فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ وَرِثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفرُ لنا وإن يأتِهِمْ عَرَضٌ مثْلُهُ يأخُذُوهُ ، ألمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه ، والدارُ الآخرةُ خير للذين يتقون افلا تعقلون) الاعراف : ١٦٨ ، ١٦٩ .

والمعنى : فرقنا اليهود في الأرض جماعات : منهم الصالحون ومنهم غير الصالحين ، وقد اختبرناهم بالنعم والنقم رجاء ان يعود المذنبون منهم عن ذنوبهم ، ثم خلف من بعد هؤلاء قوم ورثوا التوراة ولكنهم لم يعملوا بها بل أخذوا متاع الدنيا بوسائل غير مشروعة وقالوا : سيغفر الله لنا ما فعلنا ، مع ان مغفرة الله تحتم عليهم التوبة لكنهم لا يفعلون بل يصرون في الحصول على المال من الطرق غير المشروعة . ثم وبخهم الله على طلبهم المغفرة مع اصرارهم على ما هم عليه فقال : إنّا أخذنا عليهم العهد في التوراة — وقد درسوا ما فيها — ان يقولوا الحق ، وان الدار الآخرة للذين يتقون المعاصي ، أفلا يعقلون بأن نعيم الآخرة خير من متاع الدنيا .

وقد اكد القرآن هذا المعنى ايضاً ، فقد روى اهل الأخبار ان المسلمين واهل الكتاب تفاخروا فيما بينهم وادّعى كل واحد منهم ان نعيم الآخرة خاص به ، فأنزل الله هاتين الآيتين (ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يَعْمَلْ سُوءاً يُجزَ به ولا يَجِدْ له من دون الله وليّاً ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذَكَرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا) النساء : ١٢٢ ، ١٢٣ .

والمعنى : ليس الجزاء والنجاة في الآخرة بما تتمنون ايها المسلمون ولا بما يتمناه اهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بل من يعمل عملاً سيئاً يُجزَ

به ، ولا يجد له من دون الله من يعينه او ينصره ، ومن يعمل الاعمال الصالحة وهو مؤمن بالله فهؤلاء هم الناجون الذين يدخلون جنة النعيم لا فرق بين ذكر وانثى ، ولا يُظلمون أي مقدار صغير على اعمالهم .

فليس المقصود بالأديان التفاخر بها ، ولا تحصل الفائدة منها بمجرد الانتماء اليها والاعتزاز بها ، بل غاية الأديان وروحها هو الايمان بالله والعمل الصالح .

وقد سرى كثير من الغرور الى بعض أهل الأديان فجعلهم يتكلون على الشفاعات ويظنون انهم بواسطتها ينجون في الآخرة غير عابئين بأعمالهم السيئة وهذا مما يتعارض مع روح الأديان .

جُبن اليهود

وصف القرآن اليهود بالجبن ، والجبان من صفاته الغدر والخيانة ليعوض بذلك عمّا ينقصه من شجاعة .

وما تنعدم الشجاعة في قوم إلاّ ويسيطر عليهم الجبن وذلك بسبب حبهم المفرط للدنيا والتمتع بمشتهياتها ، لأن الشجاعة وليدة المخاطرة ، ووليدة العقيدة الراسخة التي يستهين صاحبها بالموت في سبيل تحقيق ما تدعو اليـــه .

فجبن اليهود سبب تعلقهم الشديد بهذه الحياة ولو كانت حقيرة ذليلة . يقول برنار لازار في كتابه الحرب على الساميين : (... ان الثواب الوحيد الذي كان البررة الصلاّح من آل اسرائيل يرجونه هو ان يجود الله عليهم بحياة طويلة باسمة الأفراح واسعة العيش ... وكان اليهودي يرى نهاية الوجود بنهاية الحياة ... ويرى ان لا سعادة للانسان إلاّ بطيبات الارض ...) [1] .

فاليهود عُرفوا بالجبن والفرار من المعارك الحامية الوطيس ولكنهم مهرة في تدبير المؤامرات ، والاعتداءات المصحوبة بالغدر والخديعة .

---

(١) نقلا عن كتاب (اليهود في التاريخ) للقس بولس عبود .

هذا الخلق ظل مسيطراً عليهم منذ الماضي البعيد فكرهتهم الشعوب التي ساكنوها وطمعت فيهم لجبنهم وغدرهم فغزتهم مرات كثيرة ، تارة من مصر ، وطوراً من سوريا وشرق الأردن وحيناً من العراق حتى انهم غزوا من اوروبا .

وقد وصفهم القرآن بالجبن والاعتداء على انبياء الله بقوله تعالى :

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلَّةُ أيْنَ ما ثُقِفوا إلاَّ بِحَبْلٍ[1] منَ الله وَحَبْلٍ من الناس وباءوا بِغَضَبٍ مِنَ الله ، وَضُرِبَتْ عليهمُ المسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بِغَيْرِ حقٍّ ، ذَلِكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدون) آل عمران : ١١٢ .

والمعنى : ان الله اوجب عليهم الهوان اينما وجدوا إلاّ في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل النـــاس وانهم استوجبوا غضب الله ، كما اوجب عليهم الاستكانة والخضوع لغيرهم وذلك بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء الذي لا يمكن ان يكون بحق بل هو عصيان منهم واعتداء .

ولكن يتبادر إلى ذهن القارىء خاطر مؤداه : كيف وصف القرآن اليهود بالذلة والمسكنة وهم اليوم ينعمون بالسيادة في فلسطين وكلمتهم مسموعة في بعض الدول الكبرى ؟

التوفيق سهل بين الواقع والنص القرآني فقد وصفهم الله بالذلة ولكن أشار الى انه قد يكون لهم سلطان بقوله (إلاّ بحبْلٍ مِنَ الله وحَبْلٍ من الناس) .

فما نال اليهود سلطاناً في الارض إلاّ بحبل من الناس (معونة الدول الغربية) في الحاضر ، وحبل من الله الذي ارادت حكمته ان ينتصروا في فلسطين لترى الشعوب العربية من خلال تلك الهزيمة واقعهـــا المظلم وقد

---

(١) الحبل العهد والذمة .

انتشر فيه الفساد والرشوة والخيانة .

وما اصدق ما قيل في ذلك «ان الاغتصاب اليهودي لأرضنا لا يمكن فهمه وتقديره إلاّ على انه نتيجة عمل طويل واعداد متواصل من قبل اليهودية العالمية التي تلاقت اهدافها مع مصالح الاستعمار في وطننا من جهة ومع الفساد السياسي الاجتماعي الشامل الذي كنا نعيش فيه من جهة ثانية »[1] .

ولقد كانت مأساة فلسطين سبباً لوثبة العرب نحو تطهير مجتمعهم من الفساد ولا يزال امام الشعوب العربية وقت وفرصة لتعبئة قواهم واصلاح مجتمعهم وجمع كلمتهم التي هي المدخل لتحرير فلسطين .

غدرهم واجرامهم

لم ينس العرب تلك الأهانة والطعنة التي اصيبوا بها في حرب فلسطين ، فعلى يد جماعة باغية مجرمة من اليهـود الصهيونيين تعرضوا لكل انواع الاعتداء والغدر والقتل الجماعي في سبيل اجلائهم عن اوطانهم وممتلكاتهم ، ولا تزال دماء ضحايا مذبحتي دير ياسين[2] وبيت دراس التي اخضلت بها أرض الوطن السليب اكبر شاهد على فداحة بغي الصهيونيين واجرامهم ، وما اقترفوا فيهما من قتل الرجال والولدان والنساء العرب والتمثيل بهم بصورة تقشعر لهولها الأبدان .

ليس ذلك الخلق الاجرامي جديداً فيهم بل هو متوارث عن آبائهم واجدادهم ؛ يقول الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون :

---

(١) كتاب « اسرائيل » تأليف الاستاذ محسن ابراهيم والاستاذ هاني الهندي .

(٢) فقد جمع الصهيونيون في قرية دير ياسين خمساً وعشرين امرأة حاملا ووضعوهن في صف طويل ثم أطلقوا عليهن النار ، وبقروا بطونهن بالمدى والحراب وأخرجوا الأجنة منها نصف اخراج كما قطعوا الأطفال إرباً إرباً امام اعين آبائهم الذين ما زالوا على قيد الحياة هذا بالاضافة إلى قتل الرجال العزل من السلاح والتمثيل بهم . وفي قرية الزيتون جمع الصهيونيون أهل القرية كلهم في المسجد ثم نسفو المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه . (نقلا عن كتاب فلسطين والغزو التتري الجديد) الذي اصدرته وزارة الثقافة والارشاد ببغداد .

« لم يكن تاريخ اليهود الكئيب غير قصة لضروب المنكرات ، فمن حديث الاسارى الذين كانوا يُنشرون بالمنشار أحياء او الذين كانوا يُشوون في الافران ، فإلى حديث الملكات اللائي كن يُطرحن لتأكلهن الكلاب ، فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يُذبحون من غير تفريق بين الرجـــال والنساء والشيب والولدان »[1] .

ومن يقرأ كتبهم المقدسة يثير انتباهه الفظائع التي ارتكبوها في المدن التي اغاروا عليها واعتماد اكثرهم على الغدر ، تأمل ما فعله سلفهم في أريحا :

(وأبسلوا[2] جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف)[3] .

والقرآن يصمهم بالاجرام حتى انهم قتلوا رسل الله : (لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رُسُلاً كلما جاءَهُم رسُولٌ بما لا تَهوى انفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يَقتُلُون) المائدة : ٧٠ . وهم قتلوا ايضاً الذين يأمرون بالعدل بين الناس (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) آل عمران : ٢١ .

كما أن القرآن يصمهم بالغدر ايضاً بقوله : (أوَكُلّما عاهدوا عهداً نَبَذَهُ فريقٌ منهم بل اكثرهم لا يؤمنون) البقرة : ١٠٠ .

هذه شهادة القرآن وهذه شهادة التاريخ فيهم فالتقيا على وصمهم بالغدر والاجرام .

يفسدون في الارض

مما لا يختلف فيه اثنان ان رباط الأمة الوثيق الذي يجعلها في مأمن من

---

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى . ترجمة الاستاذ عادل زعيتر .
(٢) ابسلوا : اسلموا للهلاك .
(٣) سفر يشوع فصل ٦ آية ٢١ .

التدهور والانحطاط هو : الاخلاق ، التي هي أثر من آثار الهداية الالهية والتي سعت الأديان الى اشاعتها ، فكلما سارت الأمة في مضمار هذه الهداية شوطاً ازدهرت حياتها وشمل السلام ربوعها ، ولذا كان تدهور الأخلاق في امة ما نذيراً بالخراب .

ومن الأهداف المرسومة عند بعض اليهود الصهيونيين تقويض الأخلاق عند الغير لإضعافه والسيطرة عليه ، هذا ما صرحت به سياستهم في كتاب (بروتوكول حكماء صهيون)[1] .

وهذا ما اعترف به ادولف هتلر إذ قال : (فمنذ ان وضع اليهود والبلاشفة نصب اعينهم تقويض صرح الدولة الألمانية رأينا الرذيلة تنصب شراكها في طريق الشبيبة الألمانية كيفما اتجهت وأنى وجدت ، ورأينا عرش الإباحية والخلاعة ينتصب في دور العرض السينمائي والمرابع والحانات وحتى في الساحات العامة ... وكيف يرجى من شبيبة هذا شأنها ان تهب للذود عن الوطن وان تستميت في الدفاع عن مؤسساته وتقاليده ...)[2] .

ومن الرائع ان القرآن سبق ان قرر هذه الحقيقة منذ اربعة عشر قرناً بما جاء في قوله تعالى عن يهود : (ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) المائدة : ٦٤ .

وقال تعالى في يهود ايضاً : (وترى كثيراً منهم يُسارعون في الإثْم والعدوان واكلهم السُحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربّانيون[3]

---

(١) جاء في بروتوكول حكماء صهيون الذي وضعوا فيه مخططاتهم السرية (... ان الشباب قد انتابه العته لا نغماسه في الفسق المبكر الذي دفعه اليه اعواننا من المدرسين والخدم والمربيات اللاتي يعملن في بيوت الاثرياء والموظفين والنساء اللواتي يعملن في اماكن اللهو ونساء المجتمع المزعومات اللواتي يقلدنهن في الفسق والترف .

(٢) كفاحي : ترجمة الاستاذ لويس الحاج ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) ربانيين : جمع رباني وهو العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي او العالم العامل والمعلم .

والأحبار [١] عن قولهم الإثم وأكْلِهِمُ السُّحْتَ لبئس ما كانوا يصنعون) المائدة : ٦٢ ، ٦٣ .

والمعنى : وترى ايها الرسول كثيراً من هؤلاء اليهود يسارعون في المعاصي والاعتداء على غيرهم وفي اكل المال الحرام كالرشوة والربا ولبئس ما يفعلونه من هذه القبائح . اما كان ينبغي ان ينهاهم علماؤهم وأئمتهم عن قول الإثم كالكذب وكل منكر قبيح كالغيبة والنميمة والطعن في الغير واكل المال الحرام كالرشوة والربا ، فبئس ما كان يصنع علماؤهم من الرضى بهذه المعاصي وترك نصحهم وعدم امرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

فما ذكره القرآن ينطبق على الصهيونيين اليهود اليوم اشد الانطباق ، فهم لا يتورعون عن الآثام وإفساد الغير بشتّى الطرق للسيطرة عليه ، وهم معتدون سلكوا جميع وسائل المكر والخداع في سبيل اخراج الفلسطينيين العرب من ديارهم ، وهم يصلون الى مآربهم بالرشوة فهم يرشون الدول الكبرى والحكام ووكالات الأنباء والصحف لمساعدتهم في تحقيق اهدافهم واطماعهم .

على ضوء هذه الحقائق نجد ونحن ننظر في اخلاق الشعب العربي وما يعانيه من ميوعة وخيانة وانحلال في الأخلاق وهو المشهور بالمروءة والنخوة والشرف فنلمس النتيجة المؤلمة وهي : إن ما يعانيه الشعب العربي اليوم هو ثمرة مخططات الصهيونيين لإضعافهم والسيطرة عليهم . فليكن زعماؤهم ومصلحوهم على بينة من هذا الخطر قبل ان يستفحل . ولتحذر الشعوب العربية هذا الوباء الخفي الذي بدأ يتسرب الى مجتمعاتهم ويهددهم بالانحلال والخسران .

---

(٣) الاحبار : جمع حبر وهو العالم والرجل الصالح ، وهو يطلق على من درس الشريعة اليهودية وتقدم فيها واتقن الاحكام وقضى بين الناس .

اشعالهم الحروب وبث التفرقة

هذه الانقلابات المتوالية على بعض حكومات البلاد العربية ، و هذا الصراع الذي يُثار من آن لآخر بين ابناء الشعب العربي الواحد وبين حكوماتهم يحتاج الى تفسير وتعليل مقبول .

هل الشعوب العربية لم تصل بعد الى حد النضوج السياسي في تكوين وحدتهم ، او أن ذلك يرجع الى تحريض من جهات غريبة تسعى للايقاع بهم لاضعافهم والاضرار بهم من الناحية المادية والسياسية ؟

كلتا الحالتين لها حظ من الواقع في تكييف الأمة العربية ، فالفرقة التي تعصف بالشعوب العربية يرجع سببها الى الصهيونيين الذين يريدون من إثارة الخلاف بين أبناء الشعوب العربية وحكوماتهم ، لأضعافهم ، وصرفهم عن المطالبة بحقهم في استرداد فلسطين .

وان اساليب الصهيونيين معروفة في كل زمن ، اما اعترف ادولف هتلر بأنهم « اشعلوا نيران الحرب العالمية ، وبذروا في داخل الريخ بذور الثورة الحمراء واستغلوا الكارثة في الوقت المناسب استغلالاً بارعاً .. » [١] .

اما اعترف ايضاً بأن الصراع الذي احتدم في المانيا بين الكاثوليك والبروتستنت هو من فعلهم . فقال : « ... ولكن اليهودي اشتم رائحة الخطر وبادر الى تنظيم الدفاع عن نفسه معتمداً على تكتيكه التقليدي فقد أثار احدى القضايا المذهبية في ثلاث صحف مأجورة ووقف يتفرج على الجدل الديني العقيم بين الكاثوليك والبروتستنت وعلى ما يترتب على هذا

(١) كفاحي ص ٣٤١ .

ملاحظة : نحن إذا اكثرنا من الاستشهاد باقوال هتلر فما ذلك إلا لتصوير واقع اليهود الصهيونيين بما ينطبق على ما وصفهم به القرآن لا اعجاباً باضطهاده اليهود وقتل عشرات الآلاف منهم بلا تمييز بين البريء والمسيء فان العدالة الالهية وشريعة القرآن تستنكر ذلك ، لأن للنفس الانسانية حرمتها مهما كان لونها ومذهبها ولأن البريء لا يؤخذ بجريرة الظالم .

الجدل من انقسام .. »[1] .

ويقول : (... ولاجل تحويل غضب السواد عنه عمل على بذر بذور الشقاق بين ابناء الوطن الواحد فحرض بافاريا على بروسيا ، وهذه على تلك ووقعت كلتاهما في الشرك ..)[2] .

ويقول ايضاً : (... لقد رأينا اليهود يدخلون انوفهم في قضايا العالم الكبرى وكان لهم يد في كل ثورة ذات طابع انقلابي ...) .

ومن المدهش ان القرآن قرّر هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً في قوله تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب اطفأهـــا الله ، ويسعون في الارض فساداً) المائدة : ٦٤ .

فمن صفاتهم التي ذكرها القرآن إثارة الحروب والفتن بين الجماعات وليس من صفة أقبح ولا اشنع من تلك ، فهي تدل على نفوس متغلغلة في الشر وسخط عام على البشرية للانتقام منها باشعال الحروب فيما بينها واثارة الانقلابات لمنفعة ذاتية يصلون اليها من وراء ذلك .

فالقرآن يقرّر انهم كلما اشعلوا ناراً للحرب خذلهم الله في مسعاهم وارتد كيدهم على انفسهم فغُلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على احد قط ، وهم في الماضي في محاولاتهم لحرب الرسول محمد وتأليب المشركين عليه لم ينالوا خيراً بل هُزموا ونصر الله رسوله عليهم وخذلهم في كيدهم .

يزاولون السحر

هل السحر من اختصاص اليهود ، وهل يؤدي الى الكفر ؟ نعم هذا ما تحدث عنه القرآن وهذا ما برز عندهم في القرون الوسطى مما يسجل للقرآن فتحاً علمياً واقعياً كسائر فتوحاته في أي شأن من شؤون الحياة الحاضرة

(١) نفس المصدر ص ٣٠٢ من الترجمة العربية .
(٢) نفس المصدر ص ١٧٠ .

والمستقبلة .

« ففي خاتمة القرون الوسطى اجتاحت المجتمعات الاوروبية دعوة منظمة وثورة واسعة النطاق على سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية ، تقوم هذه الدعوة على عبادة الشيطان ومزاولة السحر ... وتقويض النظم الاجتماعية من اساسها .

وقد ذهب بعض الباحثين مثل (ديشمبس) الى ان هذه الدعوة ترجع الى تعاليم الكابالا السرية في التعاليم العبرية في أمور الخفاء ومدارك الغيب ، فقد اسس علامة اليهود اسحق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في ايطاليا في منتصف القرن السادس عشر ، وصيغت تعاليمه بقالب عملي للاتصال بعالم الغيب وكتابة الطلاسم وشعوذة الأرقام والحروف .

يقول فولتير الكاتب الفرنسي : «كان اليهود هم الذين يلتجأ اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية ، وهذا الوهم القديم يرجع الى اسرار الكابالا التي يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون اسرارها » .

وفكرة التوسل الى الشياطين فكرة يهودية في الأصل بل هي من تقاليد اليهود ومعتقداتهم ، وقد ورد في التلمود : « إذا استطاعت العين ان تبصر الشياطين التي تعمر الكون كله كانت الحياة ضرباً من المستحيل ذلك لأن الشياطين اكثر منا عدداً وهم يحيطون بنا من كل صوب ولكل منا على يساره الف شيطان وعلى يمينه عشرة آلاف » .

ويعدد التلمود فوق ذلك الطرق التي يستطيع بها الانسان ان يبصر الشياطين وغيرها من ضروب الوهم »[1] .

« والسحر هو عمل في الأكثر للتأثير في الأرواح كي تقوم بأداء ما يطلب منها ... ويصحب هذا العمل كلام مفهوم او غير مفهوم واشارات يدعي

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة للاستاذ عبدالله عنان

الساحر انه انما يقوم به وباشارات لتسخير الأرواح »[١] .

وقد صنف (ابن خلدون) السحر اصنافاً ثلاثة : السحر بالمعنى المفهوم عند الفلاسفة وهو التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين . والطلسمات ، وهي التأثير بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر او خواص الاعداد . والشعبذة او الشعوذة ، وتكون بالتأثير في القوى المتخيلة والتصرف فيها بقوة نفس الساحر المؤثرة حتى يرى الرائي شيئاً في الخارج وليس هناك شيء)[٢] .

وقد كان اكثر السحرة من يهود وكانوا يسندون علمهم المزعوم الى بابل ، وقد جاء في القرآن عن اليهود والسحر قوله تعالى :

(واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلْكِ سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يُعلّمون الناس السحر وما أُنْزِلَ على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يُعلّمان مِنْ أحَدٍ حتى يقولا : إنّما نحنُ فِتنةٌ فلا تكفرْ فيتعلمون منهما ما يُفرّقون به بين المرءِ وزوجه وما هم بضارين به مِن أحَدٍ إلاّ بإذن الله ويتعلمون ما يَضُرّهم ولا ينفعُهُمْ ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتراهُ مَالَهُ في الآخرةِ من خلاقٍ ولبئس ما شَرَوْا به أنفسَهُم لو كانوا يعلمون) البقرة : ١٠٢ .

فاليهود اتبعوا (ما تتلو) أي ما تقص وقيل : تختلق . (الشياطين) المراد بها شياطين الانس وهم العصاة والاشرار من الناس . (على ملك سليمان وما كفر سليمان) هذا رد ونفي لتلك الاقاصيص المختلقة والتي تزعم انه ما نال الملك سليمان إلاّ بسبب معرفته السحر وانه جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيّه ثم استخرجها الناس وتناقلوها وانه ارتد في آخر عمره وعبد الاصنام ، وبنى لها المعابد ، فرد عليهم القرآن بأنه لم يكفر كما يدّعون (ولكن الشياطين كفروا) أي هؤلاء الفجرة الذين يعلمون

---

(١) Ency Religi, 8, p. 301

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣ /١٢٦ .

الناس السحر هم الذين كفروا لأنهم (يعلّمــون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فهم يعلمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما جاء عن الملكين هاروت وماروت ، وقد كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في مدينة بابل في العراق يعلمان الناس السحر ، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما ان ظنوا انهما ملكان من السماء فنفى الله عنهما الانزال من عنده بقوله (وما انزل [1]) . ومعنى (وما يعلّمان من أحَد حتى يقولا له انما نحن فتنة فلا تكفر) أي نحن اولو فتنة نبلوك ونَختبرك وننصح لك ان لا تكفر بتعاطيك السحر . فالمفهوم القرآني هو أن السحر يؤدي الى الكفر ، ويؤيد هذا ما جاء في القرآن من قبل (ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر) .

فالسحر يؤدي الى الكفر لأنه يصرف عن عبادة الله وحده وعلى السير بمقتضى شريعته والاسباب الطبيعية التي سنها الله ، بينما السحر يجعلهم يلتجئون الى غير الله من شياطين وغيرها ، ويسلكون الطرق الشريرة او المشوبة بالخداع للوصول الى غرضهم .

ثم ذكر القرآن بعد ذلك بعض نتائج السحر (فيتعلمون منهما ما يُفرّقون به بين المرء وزوجه وما هُم بضارّين به من أحَدٍ إلاّ بإذن الله) اي وما هم بضارين بسحرهم هذا من احد ، وإذا اتفق ان أصيب أحد بضرر من اعمالهم فإنما ذلك بإذن الله تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) ارشاد الى ان ليس في تعلم السحر إلاّ المضرة والتوصل به المفاسد والشرور . (ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) أي انهم يعلمون ان من اختار السحر واستبدله بما آتاه الله من اصول الدين الحق واحكام الشريعة فليس له نصيب في نعيم الآخرة (ولبئس ما شَرَوْا به انفسهم لو كانــوا يعلمون) أي ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانوا يعلمون عاقبة الاشتغال بالسحر وتركهم تعاليم الله .

---

(١) (وما انزل) : الواو استئنافية وليست عاطفة كما يتوهم و (ما) هي نافية .

الفصل السادس

هجاء كفار بني إسرائيل

عبرة هجائهم في القرآن — سوء افعالهم — نقضهم عهد الله — اعراضهم عن شريعة الله — كتمانهم تعاليم الله — لا ينتفعون بهدى الله — قساة القلوب .

عبرة هجائهم في القرآن

احتوى القرآن على آيات كثيرة في هجاء من كفر من بني اسرائيل والتنديد بأعمالهم القبيحة سواء الذين عاصروا الرسول محمداً او الذين كانوا قبله في العهد القديم ، وهنا يلتقي القرآن مـــع العهد القديم [1] في هجائهم والتنديد بأعمالهم السيئة وما جرّ ذلك عليهم من غضب الله وعذابه وتشريده إياهم في كل حقبة من تاريخهم الطويل الذي لم يذوقوا فيـــه طعم الاستقرار. « والخطاب في الآيا ت القرآنية التي سنذ كرها عام لليهود الذين كان هذا حالهم وعبرة لغيرهم لأنه منبىء عن حال طبيعية للأمم في مثل ذلك الطور

(١) ذمت اسفار العهد القديم افعال بني اسرائيل ، راجع الفصل الثاني والفصل الحادي عشر من نبوءة إرميا والفصل الثاني والفصل السادس من نبوءة حزقيال والفصل الأول من سفر نبوءة اشعيا والفصل السابع عشر من سفر الملوك الرابع .

الذي كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين الى يوم الدين لا حكاية تاريخ يُقصَدُ به الى هجاء الاسرائليين فلتحاسب أمة نفسها في افرادهــا ومجموعها لئلا يكون حالها كحال من ورد النص فيهم ، فيكون حكمها عند الله كحكمهم ، لأن الجزاء على اعمال القلوب والجوارح ،لا لمحاباة الاشخاص والأقوام او لمعاداتهم »[١].

وهجاء القرآن يمتاز بالنزاهة التي ينأى بها عن الفحش ويبتعد عن الدنس والى القارىء عرضاً لبعض ما جاء في القرآن.

سوء افعالهم

ابرز ما يطالعنا القرآن في الكلام عن كفار بني اسرائيل هو استحقاقهم لعنة الله ، واللعن في اللغة : الابعاد والطرد من رحمة الله ، وكل من لعنه الله فقد ابعده عن رحمته واستحق العذاب فصار هالكاً[٢]. قال الله تعالى في لعن الكافرين منهم :

(لُعِنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْنَ عن مُنكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفُسُهُم أن سخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) المائدة : ٧٨ — ٨٠ .

والمعنى : طرد الله كفار بني اسرائيل من رحمته واخبر بهذا في الزبور الذي انزله على نبيه داود ، وفي الانجيل الذي أنزله على نبيه عيسى ، وسبب ذلك هو عصيانهم واعتداؤهم على حرمات الله وعلى انبيائه ، وعدم تناصحهم فلا ينهى احد منهم غيره عن قبيح يفعله ، وإن اتيانهم المنكر وعدم تناهيهم

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ج ١ ط ١ ص ٢٩٧ .
(٢) قاموس لسان العرب .

عنه لمن اقبح ما كانوا يفعلون .

هذا وإن النهي عن المنكر هو سياج الآداب والفضائل لأنه يكوّن في الأمة رأياً عاماً وينشىء مسئولية لدى المجتمع ، ويحرص على صالح الفرد والمجموع ، أما اذا تُرك النهي عن المنكر فيتجرأ الفسّاق على إظهار فسقهم ويتبعهم في ذلك الكثيرون ، فيفشو عندئذٍ المنكر ويكون ذلك سبباً لانهيار الأمة واستحقاقها غضب الله .

وبعد ان بيّن القرآن عدم تناهيهم عن المنكر ذكر صفة من صفاتهم وهي : تحالفهم مع المشركين الوثنيين ضد المسلمين الموحدين ، واتخاذهم إياهم انصاراً وتعاونهم معهم على حرب الاسلام ، إن هذا التحالف لشر معصية قاموا بها وسيجدون جزاء اعمالهم غضباً من الله وخلوداً في عذاب جهنم .

نقضهم عهد الله

ويبين القرآن كيف اخذ الله العهد على بني اسرائيل ان يطيعوه وكيف نقضوا العهد فاستحقوا الطرد من رحمته .

(ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبَعَثْنَا مِنهُم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن اقمتُم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برُسُلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنّ عنكم سيئاتِكم ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار فمن كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل . فبِما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية ...) المائدة : ١٢ — ١٣ .

يبين الله في هاتين الآيتين كيف أنّه أخَذَ العهد على بني اسرائيل بطاعته ، فأقام عليهم اثني عشر رئيساً ووعدهم بأن يؤيّدهم بعونه ونصره إن أدوا الصلاة وانفقوا الزكاة وصدقوا برسله جميعاً ونصروهم ، وانفقوا في سبيل الخير . فإذا فعلوا ذلك تجاوز الله عن سيئاتهم وأدخلهم جنّات النعيم ،

أما مَن يكفر بعد ذلك فقد حاد عن الطريق المستقيم . ولكن بني اسرائيل نقضوا العهد فاستحقوا الطرد من رحمة الله وصارت قلوبهم صلبة لا تلين للحق ، فقتلوا الانبياء . وهذا ما ذكره القرآن مرة اخرى بقوله : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلْفٌ[١] بل طَبَعَ[٢] الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً) النساء : ١٥٤ .

اعراضهم عن شريعة الله

وبسبب معاداة اليهود للمؤمنين وخروجهم عن طاعة الله ونفاقهم استحقوا غضب الله والطرد من رحمته ، قال الله تعالى :

(قُل يا أهْلَ الكتاب هل تنقِمون مِنّا إلاّ أن آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنْزِل مِن قَبْلُ وأنّ اكثركم فاسقون . قُل هل أُنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغَضِبَ عليه وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازير وعَبَدَ الطاغوت اولئك شرّ مكاناً وأضَلّ عن سواء السبيل) المائدة : ٥٩ — ٦٠

والمعنى : قل ايها الرسول لهؤلاء اليهود هل سبب بغضكم لنا هو ايماننا بالله وما أنزل الينا من القرآن وما أنزل على الأنبياء من قبل ، وايماننا بأن اكثركم خارجون عن شريعة الله ؟ وقل لهم ايها الرسول : ألا اخبركم بما هو شر من عملكم هذا جزاء عند الله ؟ هذا السؤال يجيب عليه القرآن بتذكير اليهود بأسلافهم وجزائهم على فسقهم حتى لا يصيبهم مثل ذلك الجزاء الذي يتمثل بابعادهم من رحمة الله وغضبه عليهم وجعل بعضهم كالقردة في نزواتها الوضيعة والخنازير في اتباع شهواتها وجعلهم عبيد الشيطان اولئك في اكبر منزلة من الشر وهم أضل الناس عن طريق الحق .

كتمانهم تعاليم الله

ويذكر اهل الأخبار ان بعض المسلمين سألوا نفراً من احبار يهود عن

(١ و ٢) اي يصرون على الضلال بقولهم قلوبنا محجوبة عن قبول ما ندعى اليه وليس كذلك بل طمس الله على قلوبهم بسبب كفرهم فلا يؤمن منهم إلا القلة .

بعض ما في التوراة فكتموهم إياه وأبوا ان يخبروهم عنه فأنزل الله تعالى فيهم [١] : (إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بينّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) البقرة : ١٥٩ .

الكتمان تارة يكون بستر الشيء واخفائه وتارة أخرى يكون بازالته ووضع شيء آخر مكانه ، واليهود على عهد الرسول محمد فعلوا في التوراة الأمرين كليهما ، فقد اخفوا حكم رجم الزاني ، وانكروا بشارة التوراة بمحمد ، وتعسفوا في تأويل ما ورد فيها على وجه لا ينطبق على محمد ، وكذلك فعلوا بالدلائل الدالة على نبوة عيسى وزعموا انها لغيره ، هذا هو المراد بكتمان ما انزل الله من البينات .

كما ان هذه الآية تنص على ان اليهود كتموا ما في الكتب المنزلة من الهدى فلم ينشروها بين الناس « والعبرة في الآية هي ان حكمها عام وإن كان سببها خاصاً ، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة » [٢] .

ويسجل القرآن على اهل الكتاب تقصيرهم في نشر هداية الله التي انزلها عليهم بقوله :

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) آل عمـــران : ١٨٧ .

والمعنى لقد أخذ الله العهد المؤكد على اهل الكتاب ان يوضحوا معانيه والاّ يخفوا شيئاً من آياته وهدايته عن الناس فألقوه وراء ظهورهم نابذين له واستبدلوا به شيئاً من متاع الدنيا وشهواتها .

هذا التقصير الذي يسجله القرآن على اليهود وهذا التقاعس عن نشر

---

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٠٠ .

(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٥١ .

وصايا الله وفي مقدمتها عبادة الله وحده وخصوصاً بين العرب الوثنين هو امر معروف عن اليهود اعترف به الدكتور اسرائيل ولفنسون : (... ولا شك أنه كان في مقدور اليهودية ان تزيد في بسط نفوذها الديني على العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود ..) . [1]

لا ينتفعون بهدى الله

قال الله تعالى في جماعة من اليهود لم يتأثروا بتعاليم التوراة ولم يعملوا بها : (مَثَلُ الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) .

شبههم الله لعدم اتعاظهم بما في ايديهم من الهدى بالحمار الذي لا يعقل ، ثم يبرز هذا التشبيه بروعة ووضوح حين يقرن الله بين هؤلاء اليهود وقد (حمّلوا التوراة) أي كلفوا العلم والعمل بها ولكنهم لم ينتفعوا بما فيها فمثلهم كمثل الحمار الذي يحمل كتباً ضخمة ولا يدري مما ضمته شيئاً ، ولا يفرق بينها وبين سائر الاحمال ، فليس له مما يحمل من حظ غير التعب .

فهذا المثل وإن ضُرِب على جماعة من يهود فهو ينطبق على من حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه بالتزام حدوده .

ويقول الله تعالى في جماعة من يهود :

(ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلاّ امانيّ وإن هم إلاّ يظنون) .

أي ومن اليهود فريق جهلة اميون لا يقرأون ولا يكتبون ولا علم لهم بشيء من الكتاب وهو التوراة ، ولا معرفة لهم بأحكامها ، وما عندهم من الدين فهو أمان يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم .

« وهذه الأماني توجد في كل الأمم في حال الضعف والانحطاط يفتخرون

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٢

بما في ايديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسوّل لهم الأماني ان ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس »[1] .

قساة القلوب

قال الله تعالى مخاطباً يهود :

(ثم قست قلوبُكُم مِنْ بَعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة وإنَّ من الحجارة لما يتفجّر منه الانهار وإن منها لَمَا يشقّقُ فيخرج منه الماء وإن مِنَهَا لما يهبط مِنْ خشية الله وما الله بغافل عمّا تعملون)البقرة : ٧٤ .

شبه الله قلوبهم القاسية بالحجارة الصلبة وقال : بل انها اشد قسوة منها ، لأن الحجارة قد تتأثر وتنفعل فهناك احجار تنفجر منها المياه الكثيرة ، واحجار تتشقق فيخرج منها الماء عيوناً ، ومنها ما يتردى من اعلى الجبال انقياداً لارادة الله بتأثير الصواعق او البراكين او الزلازل .

والمراد بالقلوب ما اعتبرت عنواناً له وهو الوجدان والعقل . فقلوب بني اسرائيل قست ففقدت خاصية التأثر والانفعال فلم تعد الحكم والعظات والعبر تستطيع الوصول الى قلوبهم والنفاذ فيها فهبطوا من سمو الروح الانساني الى رتبة الجماد بل إلى ما دون ذلك .

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٣٥٩ .

الفصل السابع

من وصايا القرآن لبني اسرائيل

وصايا القرآن لبني اسرائيل هي وصايا ايضاً للمؤمنين ـــ عبادة الله والاحسان الى الناس ـــ قيمة النفس الانسانية وقبح الاجرام ـــ دعوة اهل الكتاب الى اتباع نور الاسلام

وصايا القرآن لبني اسرائيل هي وصايا ايضاً للمؤمنين

إن ما تتميز به الدعوة الاسلامية هو شمولها لكافة البشر فهي ليست خاصة بشعب دون شعب ، هذه الحقيقة أمر رب العالمين رسوله محمداً باعلانها الى الناس جميعاً (وما ارسلناك إلاّ رحمة للعالمين) .

فالله ـــ في الاسلام ـــ خالق الكون وهو رب العالمين واله جميع البشر على اختلافهم ، اما (يهوه) عند العبرانيين فقد كان اله بني اسرائيل ،

وكما ان رسالة محمد عامة فهي في الوقت نفسه مكملة ومتممة لما جاء به رسل الله موسى وعيسى وابراهيم وغيرهم ، ولهذا نرى في القرآن كثيراً من الوصايا التي شُرعت لأتباع موسى وعيسى وهي في الوقت نفسه وصايا مشروعة لاتباع محمد للعمل بموجبها ، ذلك أن جوهر الرسالة الالهية بين رسل الله واحد في العقائد والأخلاق اما الشرائع فتختلف حسب تطور الأمم .

عبادة الله والاحسان الى الناس

فمن الوصايا القرآنية التي خوطب بها بنو اسرائيل قوله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسناً واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم تولّيتم إلاّ قليلاً منكم وانتم مُعرِضون) البقرة : ٨٣ .

يبين الله في هذه الآية العهد الذي اخذه على بني اسرائيل ان لا يعبدوا غيره ولا يشركوا بعبادته احداً من ملك وحاخام ومال وغير ذلك من مخلوقات الله . وأخذ منهم العهد على الاحسان الى الوالدين والأقرباء واليتامى والمحتاجين الذي يعجزون عن كسب ما يكفيهم ، كما اخذ منهم العهد على حسن القول مع الناس كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم الخوض في الغيبة والنميمة ، وهذا ما يجعل الجماعة الانسانية متآلفة لاتتسرب اليها الخصومات والعداوات ، كما اخذ الله عليهم العهد على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والزكاة هي إنفاق قسم من اموال الأغنياء على المساكين ، ولكن بني اسرائيل أعرضوا عن العمل بهذه التعاليم السامية باستثناء القليل منهم .

ومن الوصايا التي جاءت في القرآن مخاطبة بني اسرائيل :

(واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفسُكم وأنتم تتلون الكِتاب أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة وانّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين . الذين يظنّون أنهم مُلاقوا ربّهم وأنهم اليه راجعون) البقرة : ٤٣ ـ ٤٦ .

يدعو القرآن بني اسرائيل إلى اقامة الصلاة ، وكانوا قد ضلوا عنها بالتمسك بالظواهر فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة ، لإن الإقامة هي الإتيان بالشيء مقوماً كاملاً بحيث تصدر عنه آثاره الحسنة . وإقامة الصلاة تكون بالتوجه إلى الله وحده والخشوع والإخلاص له بما

يحقق إصلاح النفس . ثم دعاهم القرآن بعد ذلك الى انفاق الزكاة على المحتاجين وهذا مما يصلح المجتمع ويصونه من الثورات والفتن من الطبقات المحرومة ، وبعد هذا أمرهم القرآن بالركوع وهو جزء هام من أجزاء الصلاة وقد اشير اليه امتثالاً لأمر الله وإظهاراً لخشيته وخشوعاً لعظمته ، والركوع مع الراكعين هي ان يكونوا في جماعة المسلمين ويصلوا صلاتهم ، لأن الصلاة في الاسلام من مظاهرها الركوع الى الله .

وبعد ذلك لام القرآن بني اسرائيل الذين يأمرون بوصايا الله ثم ينسون الأخذ بها رغم انهم يتلون الكتاب إذ الأحرى بهم ان يتعظوا ويتدبروا ما يقرأون من كلام الله ويعملوا به .

واخيراً يأمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلاة على ما يشق عليهم من مصائب هذه الحياة ، والصبر الحقيقي يكون بتذكر وعد الله تعالى بالجزاء الحسن للصابرين على اعمال الخير التي تشق على النفس والامتناع عن الشهوات المحرمة التي تصبو اليها النفس مع تذكر ان المصائب الطارئة من فعل الله وتصرفه في خلقه فيجب التسليم لأمره .

والاستعانة بالصلاة تساعد على كشف الكروب ، وتقوية النفوس لمجابهة ما تصادفه من آلام واهوال ، فالصلاة اوثق رابطة بين الإنسان وربه يستمد منها اليقين والهداية والنور . ثم يبين القرآن بأن الصلاة شاقة على النفوس التي اتبعت الشهوات ، سهلة على النفوس الخاشعة الخائفة من الله المستيقنة انها ستلاقي ربها يوم الحساب .

قيمة النفس الإنسانية وقبح الإجرام

عُرِف بنو اسرائيل منذ العصور القديمة بتغلغل الإجرام بين جماعاتهم ولهذا توجهت اليهم أوامر القرآن تبين شناعة صفة الإجرام وقيمة النفس الانسانية ومنزلتها .

فمهما استحدثت النفوس الكريمة المثالية من تشريعات وقوانين ووصايا في الرأفة وسلامة النفس الإنسانية فإنها لن تبلغ في ذلك درجة سمو القرآن .

قف بخشوع وإجلال ايها القارىء أمام هذا النص القرآني الذي كـــرّم النفس الإنسانية مطلقاً بصرف النظر عن الوانها واجناسها ومعتقداتها واستهجن الإجرام مطلقاً وبيّن قبحه وضرره على النوع الانساني ، قال تعالى :

(من أجْلِ ذَلِكَ كتبْنا على بني اسرائيل أنّه مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغير نفس أو فَسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ، ومَنْ أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رُسُلُنا بالبيّنات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) المائدة : ٣٢ .

جاءت هذه الوصية لبني اسرائيل عقب قصة قابيل عندما قتل اخاه هابيل ظلماً وحسداً ، وقابيل وهابيل هما ابنا آدم . ان هذه الجناية دالة على ان البشر عرضة للبغي الشديد الذي يفضي إلى القتل بغير الحق . وبنو اسرائيل الذين فشا فيهم القتل ظلماً وعدواناً كتب الله عليهم انه من قتل نفساً بريئة بغير ما يوجب القصاص او بغير فساد منها يوجب اهدار دمها فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأن الفرد يمثل النوع الانساني في جملته ، فمن استحل دم انسان ما بغير حق يستحل دم كل فرد من افراد المجموعة الانسانية ويجرىء غيره على هذا الاجرام . والقرآن يبين ان قتل النفس الواحدة بغير حق كقتل الجماعة في استجلاب غضب الله وعذابه . ثم يبين القرآن ان من كان سبباً لحياة نفس واحدة بانقاذها من موت كانت مشرفة عليه او الدفاع عنها عند خطر يحيق بها فكأنما احيا الناس جميعاً . لأن الباعث على انقاذ النفس الانسانية هو الرحمة والشفقة واحترام النفس ، وهو في احيائها يستحق عظيم الثواب من ربه .

هـــذه هي تعاليم القرآن العظيمة في تكريم النفس الانسانية وإن أكثر ما نحتاج إلى هذه التعاليم في فترات الثورات والانقلابات على انظمة الحكم

التي تستباح فيها الدماء بغير حساب فيعتدى على المعارضين في الرأي والعقيدة بقسوة وشراسة وان ما يحصل من اعتداء انما يرجع في الحقيقة الى ضعف الوازع الديني وضعف المراقبة الالهية لدى الافراد . فليس لاحد اي عذر في استباحة دم اخيه الانسان ظلماً وعدواناً وهو في اعتدائه على اخيه يجني على نفسه بطريقة غير مباشرة . فالقتل يستدعي الانتقام إن لم يكن في الفترة ذاتها فبعد حقبة من الزمن تقصر او تطول .

والآية القرآنية التي استهجنت الاجرام تحمل رداً على الفئات الصهيونية التي استحلت دماء العرب في سبيل طردهم من اوطانهم ، هل دينهم يأمرهم بهذا الاجرام ؟ كلا ! إنهم ليسوا جماعة دينية بل جماعة سياسية اتخذت الدين مطية لمآربها .

دعوة أهل الكتاب الى اتباع نور الاسلام

قال تعالى : (... ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزلَ معه اولئك هم المفلحون) الاعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

تبين هاتان الآيتان صفات الذين سيعمهم الله برحمته ، ومن بين هؤلاء : اهل الكتاب ، الذين يعتنقون الاسلام ويتبعون الرسول محمداً عليه السلام ، كيف لا . وان صفاته مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل ، فهو يأمرهم بالمعروف ، وهو ما تعارف عليه الناس من الخير والعمل الصالح ، وينهاهم عن المنكر . وهو كل ما تنكره العقول لقبحه وضرره . وهو ايضاً يحلل لهم الطيبات وهو كل ما تستطيبه الأذواق من الاطعمة والأغذية النافعة ، ويُحرم عليهم الخبائث وهي ما تمجه الطبائع وتستقذره لضرره . كما انه

يرفع عنهم (الاصر) وهو الثقل الذي يمنع صاحبه من الحراك ، أي ان التكاليف الشرعية الشاقة التي اوجبها الله على بني اسرائيل بسبب سوء سلوكهم هي بمثابة الأغلال التي تقيد من حريتهم ، فجاء الإسلام بشريعته التي تحمل اليسر والخير للجماعة . فالذين يؤمنون بمحمد ويحمونه وشريعته من كل عدو وينصرونه ويتبعون النور الذي أُنزل عليه فأولئك هم الفائزون بالرحمة العظمى ورضوان الله .

بعض الذين اعتنقوا الاسلام من يهود

يذكر لنا اهل الأخبار بعض أسماء احبار اليهود الذين اسلموا ، من هؤلاء : عبد الله بن سلام ، وكان حبراً عالماً ، فبعد إسلامه خرج على قومه مخاطباً اياهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله إنكم لتعلمون انه لرسول الله . تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفاته ، فاني اشهد انه رسول الله وأومن به واصدّقه واعرفه [1] .

ومن الذين اسلموا : مُخيريق ، وكان حبراً عالماً وكان غنياً كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله بصفته لما وجده في علمه . ففي معركة أُحُد التي اقتتل المسلمون والمشركون قال مخيريق لقومه : يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون ان نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت قال : لا سبت لكم . ثم اخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله بعد ان اوصى قومه : « وإن قُتِلتُ هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِلَ ... فقال رسول الله : مخيريق خير يهود » [2] .

وهناك كثير من يهود أسلموا غير هذين الحبرين وهم الذين مدحهم القرآن واستثناهم من اللوم والذم لعدم ايمانهم بمحمد ، قال تعالى :

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٦٥ .

(ليسوا سواء . من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويُسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين) آل عمران : ١١٣ ، ١١٤

أي ليس اهل الكتاب متساوين في المساوىء فإن منهم جماعة مستقيمة متمسكة بالدين الحق يقرأون كتاب الله في ساعات الليل وهم متعبدون ساجدون لله . ويؤمنون بالله ووجود اليوم الآخر الذي سيحاسب فيه الانسان على اعماله ، ويأمرون بالطاعات وينهون عن المعاصي ويبادرون الى فعل الخيرات ، وهؤلاء عند الله في عداد الصالحين .

شهادة من التوراة بنبوة محمد

وقفة قصيرة عند قوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي [1] الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) فالقرآن يصرح هنا بأن صفات محمد والمبشرات بنبوته جاءت في التوراة والانجيل [2] . فالسؤال الهام الذي سيُلقى علينا هو : هل في التوراة والانجيل مبشرات واشارات ترمز الى انه سيأتي بعد موسى وعيسى رسول من عند الله تنطبق صفاته على محمد ؟ نجيب على ذلك بنعم ، ولكن سنقتصر في هذا البحث على ذكر شهادة واحدة من التوراة فقط .

جاء في الفصل الثامن عشر من سفر تثنية الاشتراع :

١٧ فقال لي الرب قد احسنوا فيما قالوا ١٨ اقيم لها نبياً من بين اخوتهم مثلك وألقي كلامي في فيه فيخاطبهم بجميع ما آمره به ١٩ وأي إنسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه ٢٠ وأي نبيّ تجبّر فقال باسمي قولاً لم آمره ان يقوله او تنبأ باسم آلهة أُخر فليقتل ذلك النبي

---

(١) المراد بذلك محمد عليه السلام .

(٢) اورد كتاب (اظهار الحق) لمؤلفه رحمة الله الهندي كثيراً من المبشرات التي تنطبق على صفات محمد والتي جاءت في التوراة والانجيل ، ولولا خوف التطويل لأوردنا الكثير منها .

٣١ فإن قلت في نفسك كيف يُعرف القول الذي لم يقله الرب ٢٢ فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذلك الكلام لم يتكلم بـــه الرب بل لتجبّره تكلّم به النبي فلا تخافوه) .

هذه البشارة التي جاءت في التوراة تنطبق على محمد عليه السلام من عدة وجوه :

اولاً : انه وقع في هذه البشارة لفظ (مثلك) ، وكلام الرب هنا موجه الى موسى ، أي ان الرب سيقيم لهم نبياً مثل موسى عليه السلام . فموسى صاحب كتاب وشريعة ، ومحمد عليه السلام مثل موسى صاحب كتاب وشريعة اتمها .

ثانياً : انه وقع في هذه البشارة لفظ من بين اخوتهم وهو دليل على انه ليس من بني اسرائيل ، ولفظ الأخوة مقصود به ابناء اسماعيل ، لأنه جاء لفظ الأخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله (هاجر) في حق اسماعيل (وامام جميع اخوته يسكن) [١] ومحمد كان من اخوة بني اسرائيل لأن نسبه يرجع الى اسماعيل بن ابراهيم .

ثالثاً : انه وقع في هذه البشارة لفظ (وألقي كلامي في فيه) وهو اشارة الى ان ذلك النبي ينزل عليه الكتاب وحياً والى انه يكون أمياً لا يباشر الكتابة بل حافظاً للكلام وهذا ينطبق على محمد فإنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا ما وصف به القرآن محمداً عليه السلام (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

رابعاً : البشرى صرحت بأن النبي الموعود الذي ينسب الى الله ما لم يأمره يُقتل ، فلو لم يكن محمد عليه السلام نبياً حقّاً وصدقاً لكان قُتِل . وقد جاء في القرآن في شأن محمد (ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)[٢] الحاقة : ٣٩ .

---

(١) سفر التكوين فصل ١٦ آية ١٢

(٢) الوتين : الشريان الواصل بين القلب والرأس .

والمعنى : لو افترى محمد على الله القرآن وادّعى فيه ما لم يتلقه من الوحي لنكل به الله افظع تنكيل بأن يؤخذ بيده اليمنى كما يفعل بالمجرمين ثم يقتل بقطع عنقه .

ولكن القرآن اثبت صدق نبوته واعلن على رؤوس الاشهاد بأن الله سيحفظه ويرعاه بقوله (والله يعصمك من الناس) وقد تحقق هذا الوعد وحفظه الله ولم يقدر احد على مسّه بأذى رغم المحاولات العديدة التي حاول بها خصومه الغدر به ، وهذا من اقوى الأدلة على صدق نبوة محمد .

خامساً : إن نص القرآن يبين ان علامة النبي الكاذب هي : اخباره عن الغيب المستقبل بما لا يتحقق ، ومحمد اخبر عن كثير من الأمور الغيبية التي تحققت جميعها ، من ذلك : وعد اصحابه بالنصر وتخويلهم خلافة الله في الأرض كما جاء في القرآن (إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) غافر : ٥١ . (قل للذين كفروا ستُغلبون) آل عمران : ١٢ . (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحا ت ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) النور : ٥٥ .

نزلت هذه الآيات حين كان المسلمون في ضعفهم غير آمنين على حياتهم من خصومهم فما هي إلاّ سنوات حتّى تحقق مؤدى هذه الآيات فانتصر المسلمون على اعدائهم وآلت الى الأمة الاسلامية خلافة الله في الأرض .

الفصل الثامن

النزاع المسلح بين المسلمين واليهود

الوقاية من الخطر الداخلي – إجلاء قبيلة بني قينقاع – إجلاء قبيلة بني النضير – غزو الرسول لقبيلة بني قريظة – غزوة خيبر .

الوقاية من الخطر الداخلي

دعت الضرورة المسلمين الى التخلص من اعدائهم داخل يثرب ، وهم اليهود ومن يعاونهم من المنافقين العرب ، وذلك ليتفرغوا الى اعدائهم خارج يثرب كقبيلة قريش وغيرها من القبائل .

لقد اخذ اليهود يجاهرون الرسول بعداوتهم له منذ دعاهم الى الدخول في الاسلام ، والرسول سلك معهم طريقة المجادلة والاقناع ولكن دون جدوى فخاصموه ، وظهرت منهم امارات الخيانة بالانقضاض عليه ، ومعاونة اعدائه ضده ، عندئذ استلزم واجب الدفاع عن النفس التخلص من هذا العدو الداخلي باجلائهم عن يثرب ، او الدخول معهم في نزاع مسلح إذا قاوموا خطته ، وكان توقيت بدء العمل هو يوم انتصاره في موقعة

بدر على قريش ، حين اصبحت الظروف موأتية لتنفيذ خطته ، وكان اول ما قام به هو مواجهة بني قينقاع .

إجلاء قبيلة بني قينقاع

اما الأسباب التي حملت الرسول على البدء بإجلاء بني قينقاع دون سائر اليهود فترجع الى ان بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة المنورة في حي من احيائها ، فأراد الرسول ان يطهر المدينة من عدو داخلي يطعن في الظهر. ويذكر أهل الأخبار ان بني قينقاع قد وادعوا [1] النبي فلما كانت وقعة بدر اظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد [2] فأنزل الله على نبيه محمد (وإمّا تخافَنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء [3] إن الله لا يحب الخائنين) الانفال : ٥٨ .

وكان عدد بني قينقاع غير كثير وكان بينهم وبين بقية اليهود عداوة سببها ان بني قينقاع كانوا حلفاء الخزرج العرب ، والنضير وقريظة حلفاء الأوس العرب ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يعاون كل من الفريقين حلفاءه على اخوانه حتّى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج اهل شرك يعبدون الأوثان . فإذا وضعت الحرب اوزارها افتدوا اساراهم تصديقاً لما في التوراة [4] ، وقد اشار القرآن الى ذلك بقوله :

(وإذْ أخَذْنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تُخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون

(١) وادع : صالح وسالم .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣٦ / ٦٨ .
(٣) فانبذ اليهم على سواء : فاترك واطرح عهدهم وعاملهم بمثل ما عاملوك به .
(٤) عن ابن هشام ٢ / ١٨٨ باختصار .

فريقاً منكم من ديارهم تَظَاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسَارى تُفادوهم وهو محرَّم عليكم اخراجهم) البقرة : ٧٣ ، ٨٤ .

والمعنى : اخذنا عليكم العهد يا بني اسرائيل ان لا يريق بعضكم دم بعض ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم وهو ميثاق تقرون انه في كتابكم وتشهدون على صحته ثم انتم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضاً وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تعاونون حلفاءكم العرب عليهم بالقتل والسلب والعدوان ولكن إذا أُسر بعض اليهود لدى من تتعاونون معهم من العرب عندئذٍ تعملون على انقاذهم من الاسر بافتدائهم بالمال معتذرين عن ذلك بأن كتابكم امركم بفداء اسرى الشعب المختار . فإن كنتم مؤمنين حقاً بما تقولون فلماذا قاتلتموهم واخرجتموهم من ديارهم . فوحدة الدين تنفي ان يقاتل المرء اخاه في الدين ويعتدي عليه .

لنرجع الى صلب الموضوع فنذكر كيف واجه الرسول بني قينقاع : يذكر المؤرخون ان الرسول ذهب بعد معركة بدر بأيام الى بني قينقاع فجمعهم بسوقهم ثم خطب فيهم . فكان مما قاله لهم : « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مُرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم »[١] .

ولقد كان موقفهم من هذا الخطاب والانذار أن أجابوا الرسول بكل جرأة وتبجح : « يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصَبْتَ منهم فرصة . إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس »[٢] .

ويظهر من هذا الرد ان بني قينقاع كانوا يعتمدون على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول إذ لا يتصور ان قبيلة صغيرة كقبيلة بني قينقاع تجرؤ على اعلان الحرب ضد اغلب قبائل يثرب ، ولكن الخزرج

---

(١) ابن هشام ٣ / ٥٠ .
(٢) نفس المصدر .

خذلوهم فلم يتحركوا لنجدتهم ، فسار الرسول اليهم وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة اشد حصار ، حتى نزلوا على حكم الرسول وتشفع عنده فيهم (عبد الله بن ابي) والح على الرسول في الشفاعة حتى قبل ، فأمر الرسول بإجلائهم عن المدينة ووكل ذلك الى (عبادة بن الصامت) فخرج بهم الى اذرعات بالشام .

وقد كان لجلاء بني قينقاع وقع عظيم في نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلام ودخلت هيبة المسلمين في قلوب القبائل العربية التي لم تكن قد دخلت في الاسلام فانفسح المجال امام الرسول لنشر دعوته .

إجلاء قبيلة بني النضير

وجاء دور بني النضير بعد بني قينقاع فقد احس الرسول انهم يكيدون له سراً ويدبرون له امراً للغدر به [1] فقرر اجلاءهم عن مواضعهم قبل ظهور فتنتهم ولا سيما قد امتنعوا عن مساعدته في موقعة أُحُد مع ما بينه وبينهم من عهد معتذرين بأن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيداً عن المدينة .

وقد كانت موقعة أُحد يوم سبت فأبى اليهود ان يحملوا السلاح في ذلك اليوم ورفضوا الاشتراك مع الرسول في القتال .

ولكن مُخَيريق اليهودي قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعُدّته وقال : ان أُصِبْتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا الى رسول

---

(١) يروي أهل الأخبار ان من اسباب جلاء بني النضير هو ان رسول الله ذهب الى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما احد اتباعه وهو عمرو بن امية الضمري ليدفعهما الى اهلهما بموجب العهد الذي بينه وبينهم . وبينما رسول الله جالس الى جنب جدار من بيوتهم خلا اليهود بعضهم ببعض وهموا بالغدر به بالقاء صخرة عليه من فوق احد البيوت فجاء الرسول الخبر من السماء فقام لتوه راجعاً الى المدينة ولحق به اصحابه (الطبقات لابن سعد وتاريخ الطبري) .

الله فقاتل معه حتى قُتِل فقال الرسول : مخيريق خير اليهود [1] .

لذلك انذر الرسول بني النضير بأن يخرجوا من حصونهم وينزحوا من يثرب في مدة عشرة ايام ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار أول الأمر . ثم بدا انهم اذعنوا لحكم الرسول ورضوا بالجلاء عن يثرب ولكن جماعة من المنافقين من بني عوف بعثوا اليهم « ان اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لن نُسَلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا » [2] .

ويشير القرآن الى غدر هؤلاء المنافقين بيهود بني النضير :

(ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون . لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار [3] ثم لا يُنصرون) الحشر : ١١ — ١٢ .

وكانت حصون بني النضير حصينة جداً وكان من المحال فتحها في مدة وجيزة فاحتموا خلفها وفي ذلك يقول القرآن (لا يقاتلونكم جميعاً إلاّ في قرى محصّنة او من وراء جُدُر) الحشر : ١٤ .

في هذه الآية اشارة الى جبنهم وان الشجاعة تنقصهم عن منازلة المسلمين وجهاً لوجه . لذلك امر الرسول بقطع النخيل وحرقه ، فناداه اليهود : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها [4] فنزل الوحي الإلهي مخاطباً المسلمين . (ما قطعتم

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٩٤ .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٠ .
(٣) ليولن الادبار : لينهزمن .
(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٠ .

مِن لينة [1] او تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) الحشر : ٥ .

فقطع النخيل وحرقه هو مجرد إلقاء الرعب في قلوب اليهود لاجبارهم على الاستسلام وليس من الفساد في الأرض ، وبالأخص ان اليهود كانوا عازمين على الصمود وعندهم من الطعام ما يكفيهم سنة كما ورد في الاخبار .

ويظهر ان قطع النخيل وتحريقه كان سبباً في تسرّب اليأس الى قلوب اليهود إذ وجدوا انفسهم بين امرين : إما الإذعان لحكم الرسول ، وإما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل ، وكانت ثمارها من اهم مرافق الحياة عندهم ، فاختاروا الاذعان لحكم الرسول « فسألوا الرسول ان يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الأبل من اموالهم الا الحلقة [2] ، ففعل . فاحتملوا من اموالهم ما استقلت به الابل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعير ، فينطلق به فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام » [3] .

وهدم نجاف [4] البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة هي : ان كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل ان يحتفظوا بالايمان باله واحد ولا يبدلوه ولو عُذبوا وقتلوا . فاليهود حين ينزحون عن منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا ، ويظهر ان يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة داخل النجاف خوفاً من اتلاف الهواء او مس الايدي ، فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت واخذوها [5] .

---

(١) لينة : نخلة كريمة من انواع النخيل ، وقيل كل شيء من النخل سوى العجوة .
(٢) الحلقة : السلاح كله اوخاص بالدروع .
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٢٠١ .
(٤) النجاف : ما بنى ناتئاً فوق الباب مشرفاً عليه .
(٥) اليهود في بلاد العرب – ولفنسون – ص ١٣٨

ويشير القرآن الى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم ظانين انهـا ستمنعهم من امر الله كما يشير الى هزيمتهم وتخريبهم بيوتهم بهذه الآية :

(هو [1] الذي أخْرَجَ الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر [2] ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم مانِعَتُهُم حصونهم مِنَ الله فأتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لم يحتسبوا وقَذَفَ في قلوبهم الرعب يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) الحشر ؛ ٢ .

ويصف ابن هشام خروجهم من حصونهم بقوله : « أنه حدث انهم استقلوا بالنساء والابناء والأموال ، معهم الدفوف والمزامير ، والقيان يعزفن خلفهم » [3] .

غزو الرسول لقبيلة بني قريظة

لما نزل اشراف النضير في خيبر اخذوا يفكرون في الثأر من الرسول وأتباعه ، وتدارسوا فيما بينهم الوسائل التي ترجعهم الى حصونهم وتردهم الى مزارعهم في يثرب ، فعزم نفر من اليهود ، فيهم سلام بن ابي الحقيق ، وكنانة بن الربيع وحيي بن اخطب ان يؤلبوا ويحرضوا الاحزاب [4] على حرب المسلمين « فخرجوا حتى قدموا على قبيلة قريش بمكة فدعوهم الى الى حرب رسول الله وقالوا إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش يا معشر يهود : انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير ام دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وانتم اولى بالحق منه ... فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونَشِطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واستعدوا له ، ثم خرج اولئك النفر

---

(١) هو : اي الله سبحانه وتعالى .
(٢) الحشر : الجلاء .
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠١ .
(٤) الاحزاب : الفئات الكافرة التي كانت تخاصم الرسول .

من اليهود حتى جاءوا غطفان بن قيس بن عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله واخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه » [1].

من هذه الرواية نرى أن اليهود لا يلامون على محاولتهم الرجوع الى ارضهم وممتلكاتهم وبحثهم عن الحلفاء الذين يعينونهم على تحقيق غرضهم والثأر من خصومهم فإن هذه سجية من السجايا البشرية .

« لكن الذي يلامون عليه بحق والذي يؤلم كل مؤمن باله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين حيث فَضّل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية ... فكان من الواجب الا يتورط اليهود في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا امام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام افضل من التوحيد الاسلامي ، ولو ادى بهم الأمر الى عدم اجابة مطلبهم ، لأن بني اسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الاقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم باله واحد في عصور شتى من الادوار التاريخية ... هذا فضلاً عن انهم بالتجائهم الى عبدة الأصنام انما كانوا يحاربون انفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من اصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة .. » [2]

هذا النقد لتصرف اليهود ليس من كلامنا بل كلام احد اساتذة اليهود وهو المؤرخ اسرائيل ولفنسون .

وقد أشار القرآن الى عمل هؤلاء النفر من اليهود وتحزبهم مع كفار مكة .

---

(١) ابن هشام ٣ /٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢ .

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ [١] والطاغوت [٢] ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى مِنَ الذين آمنوا سبيلا) النساء : ٥١ .

والمعنى : ألم تنظر ايها الرسول الى حال هؤلاء اليهود الذين اوتوا حظاً من علم التوراة كيف انهم يحكمون على الذين يتبعون الأصنام بأنهم على هدى ، وليس هذا فحسب بل يزيدون على ذلك بأنهم اهدى من أهل الايمان طريقاً .

نقض بني قريظة للعهد

نجح زعماء يهود بني النضير في جمع شمل خصوم الرسول في محاولة مشتركة لمحاربته فقد اقبلت جموع قريش وغطفان وغيرها من القبائل في عشرة آلاف فارس لملاقاة الرسول في يثرب .

اتصل نبأ هذا المسيرة بمحمد والمسلمين ففزعوا ، فماذا عسى ان يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من هؤلاء المحاربين بينما لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف محارب ؛ وكان سلمان الفارسي احد اصحاب الرسول يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً في بلاد العرب فأشار بحفر خندق حول المدينة وتحصين داخلها ، وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته فحفروا الخندق وعمل فيه الرسول عليه السلام بيديه .

اشرفت جيوش الاحزاب على يثرب ففاجأها وجود الخندق ولم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول لها . ورأت ان لا سبيل الى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل التّرامي بالنبال عدة ايام متتابعة .

وبعد ان مضت ايام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات والمبارزات اتضح لزعماء الأحزاب ان الحرب قد لا تنتهي إلا إذا انضم بنو قريظة اليهم ،

---

(١) الجبت : الصنم والسحر .

(٢) الطاغوت : كل معبود دون الله ، وكل رأس ضلال ، وكل شيطان صارف عن طريق الخير .

فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم امكان جيوش الاحزاب ان تتعرض لهم من جهة اخرى مما يزيد في قوة المحصورين الذين كانوا يأخذون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر ، وكانت حصونهم بين جيوش المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذي لا يخترق ، لذلك اخذ حيي بن اخطب احد اشراف بني النضير يسعى للتأثير في ابناء جلدته من بني قريظة ويحرضهم على نقض المعاهدة ، فلم يفلح في اول الامر لأن الزعيم القرظي ابى ان ينقض صحيفته مع الانصار ... وقال له : « دعني وما انا عليه فاني لم ار من محمد إلاّ صدقاً ووفاء » فلم يزل حيي يحاول اقناع كعب بن اسد حتى افلح واعطاه عهداً « لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ان ادخل معك في حصنك حتى يصيبني ما اصابك ، فنقض كعب بن اسد عهده وبرىء مما كان بينه وبين الرسول »[1] .

وقد أرهب هذا العمل المسلمين لانهم علموا ما يحتمل ان ينجم من انضمام بني قريظة الى الاعداء فها هم يرون طريق بني قريظة وقد فتح للأعداء ، وها هي قريظة تقطع المدد والميرة عنهم ، ورأوا قريشاً وغطفان — منذ عاد حيي بن اخطب ينبئهم بانضمام قريظة اليهم — قد تغيرت نفسيتهم واخذوا يعدون انفسهم للقتال فألفوا ثلاث كتائب لمحاربة الرسول ، عندئذ عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف وظنوا بالله كل ظن .

وظل المسلمون في فزعهم ولكن الرسول وجد مخرجاً لاضعاف اعدائه فبعث بعض رجاله الى قائدي غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب[2] .

ثم بعث الرسول احد رسله وهو نعيم بن مسعود الى قريظة ، وكانت

---

(١) ابن هشام ٣ / ٢٣٢ .

(٢) ابن هشام ٣ / ٢٣٤ .

لا تعرف انه اسلم وكان لها نديماً في الجاهلية ، فذكرهم بما بينه وبينهم من مودة ، ثم ذكر لهم انهم أعانوا قريشاً وغطفان على محمد ، وقريش وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلاً فترحلان فتخليان ما بينهم وبين محمد فينكل بهم ، ونصح لهم ألاّ يقاتلوا معهم حتى يأخذوا منهم رُهُناً ، ثم ذهب الى قريش فأخبرهم ان قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد وانهم عاملون لاسترضائه وكسب مودته بأن يقدموا له من اشراف قريش من يضرب اعناقهم . فتشاور زعماؤهم عندئذ ، فأرسل قائد قريش ابو سفيان الى كعب سيد بني قريظة رسولاً يقول له : يا كعب طالت اقامتنا وحصارنا هذا الرجل (أي الرسول) وقد رأيت ان تعمدوا اليه في الغداة ونحن من ورائكم ، فعاد الرسول بالجواب بأن غداً يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً فإننا نخشى ان اشتد عليكم القتال ان تنتشروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك ، فأرسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن ، فلما سمع ذلك ابو سفيان قائد قريش لم يبق لديه في كلام نعيم ريبة ، وتحدث الى غطفان فإذا هي تتردد في الاقدام على قتال محمد متأثرة بما قد بدأها به من وعدها بثلث ثمار المدينة عندئذ دب الشقاق بين زعماء الاحزاب .

وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتيــة شديدة البرد فجعلت تكفأ [١] قدورهم وتطرح آنيتهم وخيل اليهم ان المسلمين قد ينتهزونها فرصة ليعبروا اليهم ويوقعوا بهم ، فأشار عليهم ابو سفيان بالارتحال ففروا من الميدان ، واصبح الصباح ولم يجد محمد منهم احداً [٢] .

وقد نتج من انضمام بني قريظة الى جيوش الاحزاب ونقضهم المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول انه لم يمهل عليهم بل بدأ يحاصرهم في نفس

---

(١) تكفأ : تقلب .

(٢) عن ابن هشام باختصار .

اليوم الذي انسحبت فيه الأحزاب ، حتى ان الرسول امر من كان معه ألاّ يصلوا العصرَ إلاّ بموطن بني قريظة .

لم تقعَ في غزوة بني قريظة معركة فعلية وكل ما حدث هو أن المسلمين حاصروا اليهود واخذوا يرمونهم بالحجارة والسهام ولم يجرؤ بنو قريظة ان يخرجوا من الحصون طوال مدة الحصار لأن عدد المسلمين كان يربو على الآلاف بينما عدد اليهود لا يتجاوز السبعمائة .

وبعد انتهاء ايام الحصار وهي خمس وعشرون ليلة استسلمت بنو قريظة وقبلت ان تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد ان المسلمين يعاملونهم كما عاملوا بني قينقاع والنضير .

« ولما اصبحوا نزل اليهود على حكم الرسول فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم موالينا [١] دون الخزرج وقد فعلت في موالي اخواننا بالأمس ما قد علمت ... فقال الرسول : ألا ترضون يا معشر الأوس ان يحكم فيهم رجل منكم ، قالوا : بلى ، قال : فذاك الى سعد بن معاذ ... قال سعد : فإني احكم فيهم ان تُقتل الرجال وتقسّم الأموال وتُسبى الذراري والنساء » [٢] .

وقد اقترح كعب بن اسد زعيم بني قريظة على ابناء جلدته قبل خروجهم من حصونهم ان يعتنقوا الإسلام « فيأمنوا على دمائهم وابنائهم ونسائهم ... فقالوا لا نفارق حكم التوراة ابداً ولا نستبدل به غيره » [٣] .

وقد نجي في ذلك اليوم اربعة من اليهود لأنهم اعتنقوا الاسلام فأقاموا على نسائهم وذراريهم واملاكهم .

ثم حفرت الخنادق وضرب المسلمون اعناق اليهود جميعاً من بني قريظة

---

(١) موالينا : حلفاؤنا .
(٢) ابن هشام ٣/٢٤٩ – ٢٥١
(٣) ابن هشام جـ ٣/٢٤٦ .

وكانوا نحواً من سبعمائة . ولما جيء بحيي بن اخطب لضرب عنقه – وكان قد وفى بعهده وانضم الى ابناء جلدته ودخل معهم الحصن – اتى وعليه حلة فقاحية (ضرب من الوشي) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسْلبها ... فلما نظر الى رسول الله قال : اما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يُخذل ثم اقبل على الناس فقال : ايها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل ثم جلس فضُربت عنقه ... »[1] .

ومهما يكن من شيء فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب وقد أشار القرآن الى انسحاب جيوش الاحزاب وغزوة بني قريظة التي انتصر فيها المسلمون (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. وانزل الذين ظاهروهم[2] من اهل الكتاب من صياصيهم[3] وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) الاحزاب ؛ ٢٥ – ٢٧ .

تعليق على حكم سعد بن معاذ : ان ما حكم به سعد بن معاذ من قتل المحاربين اليهود من بني قريظة هو نفس ما كان سيفعله الاحزاب بالمسلمين لو انتصروا بخيانة بني قريظة ، فحكم سعد فيهم بمثل ما عرّضوا المسلمين له.

ولو ان بني قريظة بقيت على عهدها لما اصابها من الشر شيء ولو انهم بعد نقضهم العهد وتصدي المسلمين لمحاربتهم رضخوا لحكم محمد منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم في نقضهم عهدهم لما اهدرت دماؤهم ، ولكن العداوة تغلغلت في قلوبهم الى حدّ ان سعد بن معاذ وهو حليفهم آمن

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٩٣ .
(٢) ظاهر : عاون .
(٣) صياصيهم : حصونهم .

بأنه إن ابقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين ثانية وهو ما حصل مع كثير من اليهود الذين اجلاهم عن يثرب ، فحكم سعد بن معاذ الذي اصدره كان للدفاع عن النفس ولذا اقره رسول الله بقوله : (والذي نفسي بيده لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبــه امرت) .

هذا وقد سبق ان ذكرنا ان الرسول لم يقتل احداً ممن اعتنق الاسلام .

غزوة خيـــبر

كانت ارض خيبر الواقعة في شمال يثرب ملجأ لكثير من اليهود الحانقين على الاسلام الراغبين في الاتصال باعدائه لحملهم على مهاجمة يثرب معقل الاسلام للقضاء عليه ولاستعادة ما فقدوه من نفوذ ومال وارضين .

ومن جهة اخرى أوجس اليهود خيفة مما حل بإخوانهم في يثرب وقد شعروا ان دورهم قد قرب من غزو المسلمين فقد صرح سلام بن مشكم من زعماء يهود بني النضير بأن خطراً يتهدد كيان اليهود في الحجاز وأبان لهم ان الواجب عليهم ان يبادروا الى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء ثم يزحفوا على يثرب دون ان يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه في هذا الرأي [1] .

وكان اليهود في هذه الاثناء يرسلون الوفود بالأموال الى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والذراري [2] .

علم المسلمون بتآمر يهود خيبر فأخذوا يتهيأون لقتالهم فأرسلوا فئـــة لقتل زعمائهم سواء اكانوا من المحرضين ام من اصحاب العقول الراجحة وذلك كمقدمة للغزو ، وكان من بين الضحايا زعيمان كبيرا النفوذ في خيبر

---

(١) الواقدي ص ٢٢٤ .

(٢) الواقدي ص ٢٢٩ .

وهما سلام بن ابي الحقيق واليسير بن رزام . وقبل ان يتوجه الرسول الى خيبر عقد معاهدة مع قريش هادنهم فيها على عدم القتال لمدة عشر سنوات . وبهذه المدنة امن الرسول جانب قريش .

« وتتلخص الاسباب التي حملت النبي على غزو خيبر بما يلي :

اولاً : ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين .

ثانياً : كانت جموع اليهود في خيبر من اقوى الطوائف بأساً واوفرها مالاً وسلاحاً ولم يكن هناك أي امل في ان يعتنقوا الدين الإسلامي بعد ما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب ان اليهود لن يدخلوا في الاسلام ، ولما كان الغرض الذي يرمي اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان حتماً عليه في هذه الحال ان يقضي على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجر عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض .

ثالثاً : لم يجد النبي قوة تقف في سبيل نشر دينه إلاّ قوتين اثنتين ، قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجو ويتمكن من نشر دعوته ، اما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود » [1] .

أذّن الرسول في الناس بالسير الى يهود خيبر وسار المسلمون سراعاً حتى فاجأوا يهود ومعهم مساحيهم وآلات زراعتهم ، وهم لا يدرون بقدوم محمد مع جيشه . فلما رأوه هربوا الى حصونهم وهم يصرخون : محمد والجيش . اما الرسول فكان يقول : الله اكبر ! خربت خيبر ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين [2] .

وكان اليهود قد حصنوا أرض خيبر ، وقسموها الى ثلاث مناطق حصينة ،

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب – ولفنسون ص ١٦٢ .

(٢) صحيح مسلم (٥/١٨٥) .

تتألف كل منطقة من عدة حصون . اما المناطق فهي : نطاة ، والشق ، الكتيبة .

ومن حصون النطاة : حصن الصعب بن معاذ ، وحصن ناعم ، وحصن قلعة الزبير .

ومن حصون الشق : حصن ابي ، وحصن النزار .

ومن حصون الكتيبة : القموص والوطيح وسلالم [1] .

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدرّبين قد مارسوا القتال والنضال وكانوا اصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم في رد عادية المغيرين عن آطامهم [2] .

وقف المسلمون امام حصون خيبر متأهبين كاملي العُدّة . وتشاور اليهود فيما بينهم ، « فأدخلوا اموالهم وعيالهم في حصن كتيبة ، وادخلوا ذخائرهم في حصن ناعم ، وجمع المقاتلة واهل الحرب في حصن نطاة ، وسلام بن مشكم مع انه كان مريضاً جاء ودخل حصن نطاة معهم وحرض الناس على الحرب » [3] .

التقى الجمعان حول حصن نطاة واقتتلوا قتالاً شديداً حتى قيل : ان عدد الجرحى من المسلمين في هذا اليوم بلغ خمسين .

وتوفي سلام بن مشكم وانتقلت القيادة الى الحارث ابي زينب الذي خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الاسلامي فانهزم امام بني الخزرج الذين بادروا لقتاله واضطروه الى ان يرجع الى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود رابطي الجأش وهجموا على الانصار [4] حتى وصلوا

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام – جواد علي – ج ٦ ص ١٥٥ .
(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠ .
(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠ .
(٤) هما قبيلتا الأوس والخزرج اللتان اعتنقتا الإسلام ونصروا الرسول فسموا الانصار .

الى حامل الراية بالقرب من الرسول « فبعث الرسول ابا بكر الصديق برايته الى الحصن فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث في الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح ، وقد جهد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأعطيّن الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرّار ، فدعا رسول الله علياً وهو أرمد ، فتفل في عينيه ثم قال : خذ هذه الراية فامض بها حتّى يفتح الله عليك .. فلما دنا علي من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود ، فطاح تُرْسه من يده فتناول عليّ عليه السلام باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتّى فتح الله عليه »[١] .

ثم دارت معارك عنيفة حول حصن ناعم دون ان يتغلب المسلمون على اليهود فأمر الرسول انصاره أن يقطعوا اربعمائة من نخيل اليهود ليدخل الرعب في نفوسهم[٢] .

وسقط حصن ناعم بعد ان قُتل قائده الحارث ابو زينب[٣] .

وبعد ان سقط حصن ناعم توجه المسلمون الى حصن الصعب بن معاذ وزحفوا عليه ففرق اليهود شملهم فاضطر الرسول ان يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا واقتحموا السور ولكنهم وجدوا بعده سوراً آخر داخلياً فأنزلوه بعد جهد شديد وارتد اليهود الى حصن آخر هو حصن الزبير[٤] .

وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ في حالة ضنك شديد ولكن بعد فتح هذا الحصن وجد المسلمون طعاماً كثيراً .

ثم انتقل المسلمون الى حصن الزبير وقد كان منيعاً جداً حتّى ان المسلمين

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٩ .
(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥١ .
(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٥ .
(٤) الواقدي : ص ٢٧٤ .

لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود ، الا بعد ان جاءهم يهودي فغدر بإخوانه فنصح لهم بقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجري الى القلعة من تحت الأرض فأضطر اليهود الى ان يخرجوا منه ، وبعد مبارزة عنيفة انهزموا وفروا الى ابناء جلدتهم في منطقة آطام الشق[1] .

وبعد ذلك فتح المسلمون قلعة أبي في منطقة الشق ثم تركوا بقية الحصون لقلة اهميتها من الوجهة العسكرية وقصدوا أرض الكتيبة حيث احتشد اليهود في حصن القموص الذي تجمعت فيه جموع المنهزمين والفارين من الحصون الخيبرية الأخرى ، فاستمر الحصار حول هذا الحصن عشرين يوماً حيث انتهى بتمكين المسلمين من فتحه .

ثم حاصر المسلمون حصن الوطيح والسلالم في منطقة الكتيبة ، فطلب اليهود الصلح وسألوا الرسول ان يحقن دماءهم فأجابهم الى طلبهم وحقن دماءهم[2] .

اذعان المناطق الاخرى : وفي اثناء محاصرة المسلمين للوطيح من آطام خيبر ارسل الرسول محمد بعض جنوده الى فدك الواقعة شمال بـــلاد خيبر وكان قائد هذه البعثة محيصة بن مسعود « فدعا اهلها الى الاسلام ولما رأى ان لا ميل لهم في الصلح وارادوا ان يحاربوه جاءت اليهم اخبار خيبر فوقع في قلوبهم خوف عظيم ، فأرسلوا جماعة من اليهود الى النبي حتى يصالحوه على ان يعطوا النبي نصف ارض فدك ولهم نصفها فرضي النبي فصالحهم على ذلك ..

ولما وصل امر خيبر وفدك ووادي القرى الى يهود تيماء خافوا وقبلوا الجزية[3] » وقد كان من نتائج غزوة خيبر ان قضي على نفوذ اليهود في اقاليم الحجاز .

---

(١) الواقدي ص ٢٧٦ .

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٥٢ .

(٣) تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٦٤ .

مؤامرة فاشلة : كانت نفوس اليهود من اثر الهزيمة ملأى بالحقد على الرسول ، فقد اقدمت امرأة يهودية على محاولة اغتيال الرسول منتقمة لقومها . « فقد أهدت زينب ابنة الحارث امرأة سلاّم بن مِشكم شاة مَصليّة[1] كانت مسمومة ووضعتها بين يدي الرسول فتناول الذراع فلاك منها مُضغة فلم يُسغها ومعه (بشر بن البراء) احد اصحابه قد اخذ منها كما اخذ الرسول . فاما (بشر) فاساغها واما رسول الله فلفظها ثم قال : ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان ملكاً استرحتُ منه وان كان نبياً فسيُخبر ، فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من اكلته التي اكل[2] .

تسامح الاسلام : وبعد سيطرة المسلمين على اليهود عاملهم الرسول بروح التسامح حتى انه اوصى عامله معاذ بن جبل (بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم)[3] وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلاّ دفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم[4] .

ومما يشهد للمسلمين بتسامحهم ما ينقله اهل الأخبار انه كان من المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها امر النبي بتسليمها لهم ...[5]

يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون في هذه الحادثة بالذات : يدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض

---

(١) مصلية : ساخنة .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٢ .
(٣) البلاذري ص ٧١ .
(٤) البلاذري ص ٧٨ .
(٥) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠ .

بسوء لصحائفهم المقدسة ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على اورشليم سنة ٧٠ ب.م. إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حيث احرقوا ايضاً صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام »[1]

إجلاء اليهود عن جزيرة العرب: لما افتتح الرسول خيبر قسّمها على الأنصار ونسائه بطريقة الاسهم واقام اليهود على اراضيهم على ان يعطوا نصف ثمارها للمسلمين... وظل اليهود كذلك الى عهد خلافة عمر بن الخطاب الذي ارسل الى اليهود من يبلغهم: « إن الله أذن في جلائكم فقد بلغني ان رسول الله قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتني به أنفِذُه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم »[2].

(١) اليهود في بلاد العرب ١٧٠.
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٧١.

الفصل التاسع

لن تدوم دولة لاسرائيل

عبرة اضطهاد الأمم لبني إسرائيل – من اضطهادات بني إسرائيل قبل الإسلام – اضطهاد بني إسرائيل في العالم بعد الإسلام – من أسباب اضطهاد اليهود .

عبرة اضطهاد الامم لبني اسرائيل

إن حكم التاريخ القاسي على بني اسرائيل ، وما حدث لهم فيه من التشريد والاضطهاد – عبر العصور – على يد مئات الغزاة لمما يطمئن البال بأن وجودهم الآن في فلسطين وسعيهم لاقامة وطن قومي بالبغي والعدوان ، هو لفترة قصيرة ، ولسوف يخرجون منها على أيدي العرب بعد أن يوحّدوا صفوفهم ، ويقضوا على الفساد الاجتماعي الذي هدّ كيانهم ، ويسيروا بموجب هدى الله .

واني لأزيد هذا الاطمئنان قوة بما جاء في القرآن بشأنهم :

(وإذْ تَأذّنَ ربّكَ لَيَبْعَثَنّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيامَة مَنْ يَسُومُهُم سُوءَ العَذَابِ إنّ رَبّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإنّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم) . الاعراف : ١٦٧

والمعنى : واذكر ايها الرسول انه قضى الله في علمه انه ليسلطن على بني اسرائيل الى يوم القيامة من يذيقهم اشد العذاب ، عقاباً لهم ، والله سبحانه يسرع في عقاب العاصي كما انه يصفح عن ذنب التائب ويظلـــه برحمته .

مما يلفت النظر في هذه الآية ما ذكرته من ان العذاب والاضطهاد سيلازمان بني اسرائيل الى يوم القيامة ، فالفترة التي اضطهدوا فيها قبل الاسلام والاخبار عنها يُمكن ان يُقال فيها بأنها للتحذير من افعالهم ، ولكن الجزم بأن هذا الاضطهاد سيلازمهم الى يوم القيامة مما هو واقع في التاريخ واستمر زمناً طويلاً بعد مجيء الاسلام لهو من الأنباء الغيبية التي لا يمكن لبشر ان ينبىء بها ، والتي تشهد لا محالة بأن القرآن وحي إلهي .

كما ان في هذه الآية القرآنية حفزاً لهمم العرب حتى يستعدوا لاسترداد وطنهم السليب . وإن الله لن يمكن بني اسرائيل من السيطرة على فلسطين ابداً ، هذا إذا اصلح العرب انفسهم وغيروا ما بها من صفات الوهن وقضوا على اسباب الفرقة .

من اضطهادات بني اسرائيل قبل الاسلام

ها هو بختنصر يخرب اورشليم ويقود اكثر اهلها اسرى وكان ذلك عام ٥٨٦ ق . م . وفي سنة ٢٠٣ ق . م . وقعت يهوذا ثانية تحت حكم ملوك سوريا السلوسيديين فأثقلوا كواهل اليهود بالضرائب واضطهدوهم من اجل دينهم .

وها هو (بومبيه) الروماني يستولي على مملكة يهوذا ويجعلها اقليماً رومانياً ، وفي سنة ٧٠ بعد الميلاد يثور اليهود على الرومان فيضطر الرومانيون لأخذ اورشليم ويأمر ملكهم (تيتوس) باحراق معبدهم وذبح معظم اهلها ، وبيع من بقي منهم ولم يمض غير قليل حتى عمرت اورشليم بالسكان ثانياً ، ولكن ثورة اخرى جعلت الامبراطور الروماني (ادريان) سنة ١٣٥ م

يأمر بهدم المدينة من اساسها وذبح ٥٠٠,٠٠٠ من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة.

اضطهاد بني اسرائيل في العالم بعد الاسلام

جاء الاسلام فتآمر عليه اليهود فقاتلهم محمد صلى الله عليه وسلم وانتصر عليهم فأجلى البعض عن ديارهم وقتل البعض.

ثم في نهاية القرن الثالث عشر توالت الاضطهادات على اليهود من دول اوروبا. جاء في كتاب (الفكر اليهودي) عن اضطهادات اليهود في اسبانيا والبرتغال (يرجع اضطهاد العنصر اليهودي الى فجر العهد الذي تسلمت فيه المسيحية إدارة الشؤون المدنية إذ ظلت كراهية اليهود لعدة قرون رمزاً من رموز الصلاح والتقوى عند المسيحيين لقد هاجمتهم جميع الأمم المسيحية فأشبعتهم امتهاناً واحتقاراً... فلم يجدوا ملجأ إلاّ الاندلس حيث احاطهم امراء الاسلام بعطف خاص لكن عندما احتل النصارى الاندلس انهدم هذا الملاذ الوحيد... إذ تقرر اخراج اليهود منها، ففي سنة ١٣٩٠ م. القى واعظ معروف يدعى هرناندو مارتينيز خطبة مثيرة هاج لسماعها الكاثوليك بأشبيلية فهاجموا حي اليهود وقتلوا منهم ٤٠٠٠ نفس... وفي العام التالي وقعت حوادث مماثلة في بلنسيا وقرطبة... وطليطلة وبرشلونة جلها بتحريض الواعظ ذاته، واخيراً وقعت حرب الاندلس التي كانت تعتبر حرباً صليبية... فأذكت حمية الدين عند المسيحيين... وقد بذل رجال الكنيسة كل جهودهم في سبيل طرد العنصر اليهودي... ففي أقل من ثلاثة شهور أرغم جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية على مغادرة البلاد الاسبانية وإلاّ حكم عليهم بالاعدام، وقد وقع كثيرون منهم في يد القرصان الذين انتشروا حول الشواطىء فجردوهم من اموالهم واتخذوهم عبيداً أرقاء، هذا ما عدا الذين اتوا جوعاً او اصيبوا بالطاعون فأهلكهم... ثم لجأ ثمانون ألفاً الى البرتغال إرتكاناً على وعد ملكها لكن القساوسة الاسبانيين أثاروا

الرأي العام في تلك البلاد وعمدوا الى اقناع ملك البرتغال بعدم ايوائهم فأصدر أمراً يقضي بابعاد جميع اليهود البالغين ، اما الاولاد الذين لا تتجاوز سنهم اربعة عشر عاماً فقد انتزعوا من احضان امهاتهم لكي يربوا وينشأوا على مبادىء الدين المسيحي [١] .

لم يقتصر طرد اليهود من اسبانيا والبرتغال فقط بل طُردوا وشُرّدوا من جميع دول أوروبا واليك ايها القارىء لائحة بحوادث الطرد :

في انكلترا : طرد الملك ادوارد اليهود سنة ١٢٩٠ م .

وفي فرنسا : طردهم الملك فيليب الجميل سنة ١٣٠٦ م . وسمح لعدد ضئيل منهم بالعودة ولكنهم طُردوا مجدداً سنة ١٣٩٤ م .

وفي المجر : طردوا سنة ١٣٦٠ م . ولكنهم ما لبثوا ان عادوا فيما بعد وفي سنة ١٥٨٢ م . طردوا مجدداً .

وفي بلجيكا : طُردوا عام ١٣٧٠ م .

وفي تشيكوسلوفاكيا : شردوا من براغ سنة ١٣٨٠ م . وكثيرون عادوا فاستوطنوها سنة ١٥٦٢ م ، وفي سنة ١٧٤٤ م ، طردتهم الامبراطورة ماريا تيريزا .

وفي النمسا : طُردوا سنة ١٤٢٠ م . على يد الملك البريخت الخامس .

وفي هولندا : طُردوا من اوتريخت عام ١٤٤٤ م .

وفي ايطاليا : طُردوا من مملكة نابولي وسردينيا سنة ١٥٤٠ م .

وفي المانيا : نفوا من بافاريا سنة ١٥٥١ م . ثم كثر اضطهادهم على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية وأزهقت فيها أرواح مئات الألوف منهم .

---

١ – تاريخ مذهب ناكري الوحي في اوروبا فصل ٦ ص ٢١٥ وقد اورد هذا النص كتاب (الفكر اليهودي) تأليف ج . هـ . هرتس الحاخام الاكبر للامبراطورية البريطانية ترجمة الدكتور الفريد يلوز .

وفي روسيا : طُردوا سنة ١٥١٠ م . ثم عادوا تدريجياً اليها متعرضين لأنواع شتى من الاضطهادات وابرزها الاضطهاد الذي حصل في اوكرانيا طيلة عام ١٩١٩ م .

جاء في كتاب (الفكر اليهودي) في شأن هذا الاضطهاد : (لقد ذبح اكثر من مائة الف يهودي – رجالاً ونساء واطفالاً – واهرقت دماؤهم في الشوارع . ارتكب تلك الاعمال جنود غير نظاميين تحت أمرة القائدين دنكين وتبلورا ، وقد اسكرتهم حمرة الدماء فابتكروا وسائل تعذيب شيطانية)[1] .

من اسباب اضطهاد اليهود

وان من الأسباب التي اضطهدتهم الشعوب لاجلها هو عدم اندماجهم بها وعدم اخلاصهم ووفائهم للذين استضافوهم ولسلوكهم الشائن معهم ، وذلك لما يظنونه من انهم شعب يمتاز على الشعوب التي يعيشون بينها وانهم يحق لهم اغتصاب حقوق الغير ، ولعل تعاليم التلمود – احد كتبهم المقدسة – تركت اثراً كبيراً في تكييف سلوكهم .

فمن تعاليم التلمود :

« إن املاك غير اليهود تُعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي ان يتملكه » . وان « الله قد منح اليهود السلطة على مقتنيات وحياة كل الشعوب »[2] وأنه «كما يسمو الانسان على الحيوان كذلك يسمو اليهودي على باقي اهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمية »[3] .

« وان الله تعالى امرنا باستعمال الربا ضد الغوييم (غير اليهود) وحرّم

---

١ – نقلا عن التقرير الذي وضعته لجنة إغاثة منكوبي مذابح كييف تحت اشراف الصليب الاحمر الروسي .

٢ – فصل بابا بترا وفي سفر حيكريم (ج ٣ ؛ ف ٢٥) نقلا عن مجلة المشرق ١٨ – ٧٧٠ .

٣ – سفر سنهدرين .

علينا اقراضهم المال بدون تقاضي فوائد عليه ، فلا يجوز إذن الامتناع عن اقراضهم بدون فوائد بل يجب علينا ارهاقهم كذلك »[1] .

وان السبب الأول في اغتصاب الصهيونيين اليهود لفلسطين اليوم هو حفظ الشعب اليهودي من الاندماج ، ولقد وفق الصهيونيون في فترة من الزمن كان العرب مستعمرين تلعب فيهم الفرقة والخيانة ولكن الى متى يستطيع الصهيونيون الصمود امام مئة مليون عربي استيقظوا من سباتهم العميق وبدأوا ينظمون صفوفهم ويستعدون لاخراج هؤلاء الطفيليين من اراضيهم .

المعركة قريبة وستخسر فيها اسرائيل حلمها في اقامة وطن في قلب البلاد العربية وعندئذ سيرجع الصهيونيون الى حياة التيه والتجوال والبحث عن وطن جديد يجمعون فيه فلولهم المشردة (والتاريخ يعيد نفسه) .

١ — سفر بابا مزيا نقلا عن كتاب الصهيونية تأليف ميشال كفوري .

الباب الثاني

قصة ابراهيم
عليه السلام

- ابراهيم وعبادة الاصنام
- ايمان ابراهيم
- ابراهيم واسماعيل
- فضائل ابراهيم
- دروس وعبر من قصة ابراهيم

تمهيد

ابراهيم: ابو الأنبياء

ابراهيم عليه السلام له منزلة عظيمة عند الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والاسلام ، فاسمه يذكر دائماً مقروناً بالاكرام والدعاء والاجلال ، فهو من الأنبياء العظام في التاريخ لأنه جاهد في سبيل الدعوة الى عبادة الله ووحدانيته وعرّض نفسه للهلاك في سبيل العقيدة التي آمن بها ، وكانت حياته سلسلة تضحيات لربه فضرب بعمله مثلاً حياً لكافة الأمم من بعده على الاخلاص والتفاني في محبة الله .

كما ان منزلة ابراهيم ورفعة شأنه تكمن ايضاً في انه ابو الأنبياء « فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد ابراهيم فمن ذريته وشيعته »[1] وهذه مرتبة لابراهيم لا يعلو عليها أي رتبة .

فابراهيم كان له ولدان عظيمان هما : اسماعيل واسحاق وقد رُزق اسحاق ولداً اسمه : يعقوب وهو الذي يلقب باسرائيل[2] واليه ينتسب

---

١ - البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٦٧ .

٢ - اسرائيل اسم مركب من (اسرا) وهو عبد او صفوة ، او انسان ، او مهاجر . ومن (ايل) وهو الله فيكون معناه عبد الله او صفوة الله .. وقيل معناه محارب او جندي الله .

سائر اسباط بني اسرائيل وكان في هؤلاء الأسباط كثير من الأنبياء خُتموا بعيسى بن مريم الذي قال لاتباعه «ابراهيم ابوكم إبتهج حتى يرى يومي فرأى وفرح »[1].

واما اسماعيل فهو جد النبي محمد[2] عليه السلام وجد عرب الحجاز ، فعرب الحجاز يرجع نسبهم الى ولدي اسماعيل : نابت وقيذار[3].

وقد اشار القرآن الى ابوة ابراهيم للعرب ، قال تعالى مخاطباً المؤمنين:

(وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج : ٧٨ .

كما أشار القرآن الى ابوة ابراهيم للأنبياء الذين جاءوا بعده قال تعالى في شأنه : (ووهبنا له اسحق ويعقوب كُلاً هدينا ، ونوحاً هدينا مِن قَبْلُ ، ومن ذريته داود وسليمان ، وايوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كلٌ من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً[4] وكُلاً فضّلنا على العالمين) الانعام : ٨٤ — ٨٦ .

يتبين لنا من هذا النص القرآني ان ابراهيم هو جد اليهود ، والنصارى ، والمسلمين وأن أنبياء هذه الأديان الثلاثة يلتقون في النسب ، فهم من ارومة واحدة ، ويسعون الى غاية واحدة هي العمل بوصايا الله التي انزلها عليهم والتي تدعو قبل كل شيء الى عبادة الله وحده .

---

١ – يوحنا ٨ : ٥٦ .

٢ – اجمع النسابون ان نسب الرسول ينتهي الى عدنان بن أدد وعدنان ينتهي نسبه الى اسماعيل ابن ابراهيم .

٣ – البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٩٣ وتاريخ الطبري ج ١ ص ٢٢١ .

٤ – لوط وان كان ابن اخ ابراهيم فهو دخل في الذرية تغليباً .

الفصل الأول

ابراهيم وعبادة الأصنام

نشأة إبراهيم في أرض بابل – إبراهيم وآلهة بابل – إبراهيم يدعو أباه الى ترك عبادة الأصنام – إبراهيم يحطم الأصنام – محاكمة إبراهيم – فتح علمي للقرآن .

نشأة ابراهيم في أرض بابل

من المقارنة بين ما ورد في سفر التكوين وما اكتشفه علماء الآثار يُستدل ان عهد ابراهيم لا يعود الى الألف الثاني قبل المسيح كما كان يُظن لسنين خلت بل إلى القرن التاسع عشر او بالأحرى الى القرن السابع عشر [1] وأن بلدة اور الكلدانيين هي مهد ابراهيم وهي اليوم تعرف باسم مُغير وتقع ما بين نهري دجلة والفرات في السهل الى الجنوب ، ثم يخبرنا سفر التكوين ان ابراهيم رحل مع والده الى جوار مدينة حاران في اقصى ما بين النهرين غرباً .

---

١ – دائرة المعارف – البستاني – مادة ابراهيم .

والمصادر العربية تذكر ان مولد ابراهيم كان في بابل[1] ويصف المؤرخ ياقوت ارض بابل فيقول : انها بين دجلة والفرات وهي الذي يقال لها : السواد . وكان مولد ابراهيم في عهد الملك نمرود بن كنعان بن كوش .

والتاريخ يثبت انه في الزمن الذي عاش فيه ابراهيم في العراق كانت حضارة بابل هي المسيطرة في العراق .

ابراهيم وآلهــة بابل

ولكن ما هي معتقدات بابل ؟ إن معرفتها تساعدنا على تفهم الآيات القرآنية التي وصفت معتقدات قوم ابراهيم .

«كان لأهل بابل كثير من الآلهة ... ذلك ان كل مدينة كان لها رب يحميها ، وقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها ، وإن كانت تخضع رسمياً للاله الأعظم ، ثم قلّ عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد ان فُسِّرت الآلهة الصغرى بأنها صور او صفات للآلهة الكبرى ، وعلى هذا النحو اصبح (مردك) اله بابل كبير الآلهة البابلية .

وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم الى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وامدوها بالأثاث والطعام والنبيذ »[2] .

في هذه البيئة التي سيطر عليها تعدد الآلهة ونصبت فيها التماثيل لعبادتها اعطى الله الرشد والحقيقة العظمى لابراهيم ، فعرف بصائب رأيه ، ووحي ربه ، ان الله واحد وانه المهيمن وحده على هذا الكون ، لذلك عزم على هداية قومه وتخليصهم من هذه الأباطيل فتوجه اليهم بالنصح ، ونهاهم عما هم فيه ، وهذا ما يذكره الله لنا بقوله :

(ولقد آتينا ابراهيم رُشْدَهُ من قَبْلُ وكنّا به عالِمين . إذ قال لأبيه

---

١ – تاريخ الطبري ج ١ ص ١٦٢ .

٢ – قصة الحضارة – ول ديورانت – ج ٢ ص ٢١١ وما بعدها .

وقومه : ما هذه التماثيلُ التي انتم لها عاكفون[1] . قالوا وجدنا آباءَنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا : أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين . قال : بل ربكم ربّ السموات والأرض الذي فطرهنّ[2] وأنا على ذلكم من الشاهدين) الأنبياء : ٥١ ــ ٥٦ .

كان تعليل هؤلاء القوم لعبادتهم الأصنام هو انهم وجدوا آباءهم عابدين لها فاقتدوا بهم .

هذه هي الحجة الواهية التي يبرزها المفسدون في وجوه المصلحين في كل زمان وما اوهاها من حجة يعطلون بها عقولهم ويصبحون منقادين لسلفهم كالبهائم .

فابراهيم اراد ان يحرّر قومه من عبادة الأصنام ، وما يستتبع ذلك من الاعتقاد بالخرافات والاساطير ، ليوصلهم الى الحقيقة العظمى التي يجب ان ينشدها كل إنسان على هذه الأرض ، ألا وهي عبادة الله وحده ، وهذا ما يخاطب به ابراهيم قومه :

(قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، انتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوّ لي إلاّ رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مَرِضْتُ فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمعُ ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين) الشعراء : ٧٥ ــ ٨٢ .

هذا هو ايمان ابراهيم ، إنه ايمان المستسلم لربه في كل جارحة من جوارحه ، إنه الايمان الذي ينزع من النفس همومها واحزانها ، ويسبغ عليها طمأنينة وسعادة ، إنه الايمان الذي يخلّص النفس من الاستسلام للخرافات والركون إلى الأوهام ، فلا رازق ، ولا شافي ، ولا محيي ، ولا مميت ، ولا غافر للذنب إلاّ الله رب العالمين .

---

١ ــ عاكفون : مقبلون عليها بمواظبة .
٢ ــ فطرهن : خلقهن .

ابراهيم يدعو اباه الى ترك عبادة الأصنام

كان والد ابراهيم في مقدمة عابدي الأصنام ، بل كان ممن ينحتها ويبيعها ، وقد عز على ابراهيم فعل والده وهو اقرب الناس الى قلبه ، فرأى من واجبه ان يخصه بالنصيحة ويحذره عاقبة كفره .

ولكن بأي اسلوب خاطب ابراهيم أباه ؟ لقد خاطبه بلهجة تسيل أدباً ورقة مبينا بالبرهان العقلي بطلان عبادته للأصنام ، قال تعالى : (واذكُرْ في الكتاب ابراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً . إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً . يا أبتِ ، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهْدِكَ صراطاً سويّاً . يا أبتِ لا تعبُدِ الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصِيّا . يا أبتِ ، إني أخافُ ان يمسّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان وليّا . قال : أراغبٌ انت عن آلهتي يا ابراهيم ؟ لئن لم تنتهِ لأرجمنّك واهجرني مَليّا . قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّا . وأعتزِلُكُم وما تَدعُونَ من دون الله وأدعو ربي ، عسى ألاّ اكون بدعاء ربي شقيا) مريم : ٤١ ــ ٤٩ .

هذا كلام يهز اعطاف السامعين . انظر كيف استهل ابراهيم كلامه عند كل نصيحة بقوله (يا أبتِ) توسلاً اليه واستعطافاً لقلبه مع إستعمال الأدب الجم .

يبدأ إبراهيم بتقديم البرهان العقلي لوالده بقوله : لِمَ تعبد جماداً لا يسمع ولا يبصر ، وليس له قدرة على اصابتك بخير أو شر ، ثم يتابع ابراهيم وعظه بدعوة ابيه الى الحق مترفقاً به ، فلم يصف أباه بالجهل المطلق خوفاً من ان يعتبر ذلك امتهاناً لرأيه فينصرف عنه ، ولم يصف ابراهيم نفسه بالعلم الفائق حتى لا يظهر العلو على والده فينفر منه ، ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم وقد جاءني هذا العلم من الله ولا يمكن ان يأتيك مثله فاتبع نصائحي فإني ادلك على الطريق الصحيح ، وإن الشيطان الذي عصى ربه هو عدوك

الذي ورطك في هذه الضلالة التي تؤدي بك الى عذاب الله . ولكن اباه ابتدره قائلاً : يا للعجب أمعرض ومنصرف أنت عن عبادة الأصنام يا إبراهيم ؟ لئن لم ترجع عما انت عليه من النهي عن عبادة الأصنام لأرجمنك بالحجارة ، فاغرب عن وجهي وابعد عني طويلاً استبقاء لحياتك ان كنت تريد النجاة .

لم يقابل ابراهيم تهديد والده وطرده إلاّ بقوله (سلام عليك) أي لن يصلك مني مكروه ولن ينالك مني أذى بل انت سالم من ناحيتي ، وسأدعو الله ان يغفر لك فلا يعاقبك ، وقد عودني ربي ان يكرمني فيجيب دعائي ، وإذا كان وجودي الى جوارك ودعوتي لك الى الايمان تؤذيك فسأعتزلك انت وقومك واعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة لأعبد الله وحده ، عسى ألاّ اكون بعبادته خائباً ضائع السعي مثلكم في عبادتكم تلك الآلهة .

هذا وقد استغفر ابراهيم لأبيه كما وعده ولكن قبل يأسه من ايمانه ، أما بعد ان تبين له انه عدوّ لله لا يريد ان يترك عبادة الأصنام تبرّأ منه ابراهيم كما جاء في القرآن :

(وما كان إستغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبيّن له انه عدوّ لله تبرّأ منه ان ابراهيم لأوّاه حليم) التوبة : ١١٤ .

ابراهيم يحطم الأصنام

نوى ابراهيم في نفسه الشر للأصنام التي كان يعبدها قومه فأقسم على تحطيمها وهي طريقة عملية اراد إظهارها لقومه ليقيم لهم الحجة على انها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع إلحاق الأذى بمن يصيبها بضرر . فالبرهان العملي له في النفس وقع كبير اشد اثراً من الوعظ والإرشاد .

تحين ابراهيم الفرصة المناسبة لتحقيق مأربه الى ان كان يوم عيد عندهم فقال له ابوه : يا ابراهيم : اليوم عيد فلو خرجت معنا وشاركتنا في الاحتفال

به لدخل السرور الى قلبك ، فخرج معهم إبراهيم ، ثم لاح له عذر يستطيع به التخلف فنظر نظرة في النجوم وقال : إني قرأت في طالعها بإني مشرف على مرض الطاعون فخاف القوم من ان تصيبهم العدوى فتركوه ، ورجع أدراجه نحو المكان الذي فيه اصنامهم وقد أقسم على الكيد بها .

وصل ابراهيم الى الهيكل الذي اقيمت فيه أصنامهم وكان بعضها الى جانب بعض يتصدرها كبيرها ورأى امامها ما تركه القوم قرباناً لها من الطعام والشراب لتأكله في زعمهم . فخاطبها ابراهيم ساخراً : ألا تأكلون ، فلما لم يجبه احد قال : مالكم لا تنطقون ؟ ثم انحى عليها ضرباً بيده اليمنى فكسرها كلها بفأس وجعلها قطعاً صغيرة ، وابقى على الصنم الكبير وهو اكبر الآلهة عندهم ، فعلق الفأس بيده ثم غادر الهيكل . اقرأوا هذه الآيات :

(وإن من شيعته [١] لابراهيمَ . إذ جاء ربّهُ بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهة دُونَ الله تُريدون . فما ظنّكم برب العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين [٢] . فراغ [٣] الى آلهتهم فقال : ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فرَاغَ عليهم ضرباً باليمين) الصافات : ٨٣ — ٩٣ .

وجاء في القرآن :

(وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولّوا مُدْبرين . فجعلهم جُذاذاً [٤] إلاّ كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون) الأنبياء : ٥٧ — ٥٨ .

فابراهيم بتحطيمه الأصنام اقام دليلاً حسياً لقومه على بطلان عبادة الأصنام فلو كانت آلهة حقيقية لدافعت عن نفسها واصابت بالضرر من ارادها بسوء ، وهذه الحقيقة التي فطن لها الأمبراطور (هيديوشي) أمبراطور اليابان .

---

١ — الضمير في شيعته راجع الى نوح اي ممن شايع نوحاً في التوحيد وجرى على منهاجه : ابراهيم .
٢ — فتولوا عنه مدبرين : انصرفوا عنه هاربين .
٣ — فراغ الى الهتهم : أي ذهب اليها مسرعاً مستخفياً .
٤ — جذاذا : قطعاً صغيرة .

فقد شيد هذا الامبراطور تمثالاً ضخماً لبوذا ... ولم يكد يتم بناوه حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيماً ...

ويُروى في اليابان ان (هيديوشي) رمى الصنم المحطم بسهم قائلاً له في ازدراء : لقد اقمتك هاهنا بباهظ النفقات فلم تستطع حتّى حماية معبدك [١] .

محاكمة ابـــراهيم

رجع القوم بعد ان احتفلوا بعيدهم فرأوا ما حل بأصنامهم فراعهم ذلك ، وتساءلوا فيما بينهم عن الفاعل الظالم الذي الذي نال من مقدساتهم فقال بعضهم : سمعنا فتى يذكر هذه الأصنام بسوء يُقال له ابراهيم ، كان من عادته ان يعيبها ويستهزىء بها ، وهو الذي نظنه فعل بها هذا الفعل .

وصل الى الحكام نبأ الاعتداء على الأصنام فقالوا لجندهم : إئتوا بابراهيم لنحاكمه على مشهد من الناس ، وليتقدم للشهادة الكثيرون ممن سمعوه يعيب الأصنام ويتوعدها بالشرّ .

جيء بابراهيم فسأله الحكام : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) ؟

ويشعر ابراهيم بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه وليصل الى الحقيقة التي اراد ان يقروا بها ، فباسلوب حكيم يجيبهم على سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم وان الشاهد على فعله هو بقية الأصنام . وتابع قوله : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فقد غضب الصنم الكبير من ان تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة وهو اكبر منها فكسرها .

وبلا وعي ولا تفكير ينزلق القوم في هذا المزلق الذي دفعهم اليه ابراهيم فيقول بعضهم لبعض : انتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق ، وأنتم الظالمون باتهام ابراهيم ، ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك فإذا بهم

---

١ - قصة الحضارة - ول ديورانت ج ٥ ص ١٣٣ .

يطرقون برؤوسهم من الخجل ثم يعودون الى مجادلة ابراهيم قائلين : انك تعلم ان هذه الأصنام لا تقدر ان تنطق فكيف تطلب منا ان نسألها ... حينئذ برزت حجة ابراهيم داوية مجلجلة تقرع آذانهم وتفحم ألسنتهم بهذا الجواب البليغ :

(أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم افٌّ لكم ولِما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .

هذه الآية تعرض على الاسماع في كل عصر تفاهة الذين يقدسون الأصنام ويعبدونها من دون الله .

ولكن الجهل إذا استحكم في النفوس والتعصب الاعمى إذا لامس القلوب جعل النفوس تصل إلى مستوى حقير في الحكم على صحة الاشياء ، لهذا لما رأوا أنهم غُلِبوا على امرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة ، عدلوا عن الجدل والمناظرة ، وعمدوا الى القوة يسترون بها فضيحتهم ، فأصدروا حكمهم عليه بالموت حرقاً ولكن الله نجاه منها بقدرته فقال للنار : (كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) فكانت برداً وسلاماً بأمر الله وقد قيل : ان الله لو لم يتبع بردها سلاماً لمات ابراهيم من شدة بردها . قال تعالى :

(قالوا : فأتوا به على اعين الناس ، لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟ قال : بل فَعَلَهُ كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى انفسهم ، فقالوا : إنكم انتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رؤوسهم لقد علِمْتَ ما هؤلاء ينطقون . قال : افتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟ أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله . افلا تعقلون ؟ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قُلنا : يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) الأنبياء : ٦١ — ٧٠ .

وقال تعالى في وصف محاكمة ابراهيم ولكن بايجاز بليغ :

(فأقبلوا اليه يزفّون[1] . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) الصافات : ٩٤ — ٩٨ .

قف قليلاً ايها القارىء عند هذه الآية (قال : أتعبدون ما تنحتون) فبإيجاز مدهش وبيان واضح بيّن القرآن بطلان عبادة الأصنام وهي كما ترى لا يمكن لأي أديب أو بليغ ان يرتقي الى هذا البيان المعجز الذي هو من خصائص القرآن وحده .

لقد قيل في هذا المعنى قول ، وهو من الأمثال الصينية المشهورة (ليس من صانعي التماثيل من يعبد الآلهة فإنهم يعرفون من أي مادة تصنع) ولكن شتان ما بين بلاغة القرآن وبلاغة المثل الصيني فالقرآن أوضح المعنى ذاته بايجازه المعجز الذي هو آية على كونه وحياً إلهياً .

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك (والله خلقكم وما تعملون) أي ان الله خلقكم وما تعملونه من الأصنام . فهو الذي خلق في الانسان الاستعداد والقدرة للعمل كما انه خلق المادة التي عملت منها الأصنام ، فكيف يعبد الانسان المخلوق لله مخلوقاً مثله وهو الاصنام ؟ .. اما كان اجدر به ان يعبد الله الخالق لا الصنم المخلوق .

فتح علمي للقــرآن

المتأمل في الآيات القرآنية — التي ذكرناها من قبل — يراها تتعرض لوقائع تاريخية صحيحة توصل العلم الى الاقرار بحقيقتها .

فمثلاً يذكر القرآن ان ابراهيم تطلع إلى السماء (فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم) أي نظر ابراهيم في النجوم فرأى في طالعها بأنه مشرف على المرض . فهذه الآية يُفهم منها ان قوم ابراهيم كانوا يشتغلون بالتنجيم فجاءهم ابراهيم بعذر من حيث يعتقدون . يقول (ول ديورانت) في كتابه

---

١ — يزفون : يسرعون .

قصة الحضارة[1] : « فلم يدرس البابليون النجوم ليرسموا الخرائط التي تعين على مسير القوافل والسفن ، بل درسوها اكثر ما درسوها لتعينهم على التنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وبذلك كانوا منجمين اكثر منهم فلكيين ... واضحت الجهود التي تبذل لاستخلاص العلم بالمستقبل من حركات النجوم شهوة من شهوات البابليين » .

ويتحدث القرآن عن عادات قوم ابراهيم في تقديم القرابين من الطعام لآلهتهم : (فراغ[2] الى الهتهم فقال ألا تأكلون) فهذه الآية تذكر ان ابراهيم لما وصل إلى المعبد الذي فيه آلهة قومه رأى عندها الطعام ، فعرض عليها أن تأكل .

يقول (ول ديورانت) في كتابه السابق : وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم الى غفران الآلهة فشادوا لها الهياكل وامدوها بالاثاث والطعام ... وكان الطعام والشراب اكثر ما يقرب من القرابين ..[3] .

ويذكر القرآن عن ابراهيم بأنه حطم الأصنام إلا كبيرها (فجعلهم جذاذا إلاّ كبيراً لهم) .

يفهم من هذا النص القرآني انه كان لقوم ابراهيم آلهة كثيرة وانه كان بجانب هذه الآلهة اله كبير وهو الذي ابقى عليه ابراهيم فلم يحطمه . ويذكر (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة : بأن مردك كان يعتبر كبير الآلهة عند اهل بابل وانه كان بجانب هذا الاله كثير من الآلهة .

ان هذه الحقائق التي ذكرها القرآن وحده والتي اعترف بها العلم من قريب هي نصر علمي للقرآن . فهذه الحقائق لم تكن معلومة في عصر محمد وفي بيئته ، ولم يُكشف عن اسرارها إلاّ منذ امد قريب وذلك بعد ان قام العلماء بالحفريات بأرض بابل وعثروا على الألواح التي كتب عليها باللغة المسمارية معتقدات اهل بابل آنذاك ثم فكوا رموزها وفهموا محتوياتها .

---

١ – قصة الحضارة ج ٢ ص ٢١١ وما بعدها .

٢ – راغ : مال اليها سراً .

٣ – نفس المصدر .

الفصل الثاني

ايمان ابراهيم

حجة إبراهيم في بطلان تعدد الآلهة – البرهان على ربوبية الله وحده – قدرة الله في إحياء الموتى .

حجة ابراهيم في بطلان تعدد الآلهة

اظهرت الدراسات التاريخية انه في الزمن والبيئة التي عاش فيها ابراهيم كان مما يؤله الناس الشمس والقمر والكواكب .

وابراهيم عليه السلام الذي آمن بالله وحده كان لا يترك فرصة إلاّ ويناظر فيها قومه ويجادلهم في معبوداتهم ، من ذلك تلك المحاورة التي اراد بها بيان بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر ، واظهار ان المعبود بحق هو الله وحده ، قال تعالى :

(وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربي فلما افل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي فلما افل قال : لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي ، هذا اكبر فلما

افلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين) الانعام : ٧٥ ـ ٧٩ .

معنى هذه الآيات : ان الله اظهر لابراهيم بعض اسرار ملكوته الدالة على ربوبيته ليكون من اهل اليقين الراسخين في الايمان وليقيم بذلك الحجة على قومه الوثنيين ، واليكم ما جرى : ها هو الليل بدأ يرخي سدوله وابراهيم بين جماعة من قومه يتحدثون ويتسامرون فيلمح ابراهيم احد الكواكب السيارة يلمع في السماء مما كان يعبده هؤلاء القوم فيقول ابراهيم على مسمع من الحاضرين : (هذا ربي) مجاراة لهم وايهاماً لهم انه على رأيهم .

ولكن هذا الكوكب لم يلبث ان احتجب نهاراً عن الأنظار وغاب ، عندئذ قال ابراهيم لصحبه بأنه لا يحب ولا يؤمن بمعبود يظهر ثم يغيب .

اسلوب حكيم اختاره ابراهيم فهو لم يحقر معبوداتهم ، ويسفه معتقداتهم في باديء امره فينفروا منه ويخاصموه ويصموا آذانهم عن سماع حجته ؛ بل جاراهم في معتقداتهم لينال ثقتهم وليكون لكلامه وقع في نفوسهم يستطيع به بعد ذلك ان ينفذ الى قلوبهم ويبين موضع الخطأ في معتقداتهم الذي يتمثل في ان ظهور الكوكب الذي اعقبه احتجاب يقتضي الحدوث والحدوث ينافي الألوهية .

ويجتمع ابراهيم بصحبه في مجلس آخر ويرى القمر يطلع من وراء الأفق يشق بنوره ظلمة الليل فيقول ابراهيم : (هذا ربي) مجاراة لهم ايضاً في معتقداتهم . ولكن القمر لم يلبث ان غاب عن الأنظار ، عندئذ يقول ابراهيم لئن لم يهدني ربي الذي خلقني لأكونن من القوم الضالين فهو في هذا الاعتراف يرمي الى هدفين : اولاً ـ نقض عبادة القمر ، وثانياً ـ ان هناك معبوداً آخر هو الله وحده الذي يهدي النفوس ويحول بينها وبين تسرب الحيرة والشك إلى قلوبها .

وفي اليوم التالي تشرق الشمس وتبرز في كبد السماء وهاجة فيقول

ابراهيم لمن حوله : (هذا ربي هذا اكبر) انها اكبر من الكوكب والقمر وذلك إستدراج لهم حتى يحاروه في الاستماع له بعد ذلك التعريض السابق بها ونكران الوهيتها ، ولكن عند غياب الشمس يعلن ابراهيم النتيجة التي كان يتوخاها وهي : التبروٌ من معبوداتهم ، فهذه الكواكب التي تظهر ثم تختفي لا بد لها من خالق وهو الله سبحانه .

وبعد ان تبرأ ابراهيم من معبوداتهم خاطبهم قائلاً : إني وجهت قصدي الى عبادة الله وحده الذي خلق السموات والأرض متجنباً الضلال ومعبوداتكم الباطلة وما انا من المشركين مع الله أي معبود آخر .

ثم ان المتمعن في الآيات السابقة يرى حقيقة علمية للقرآن ، فالقرآن يحكي عن المعبودات التي كانت في عصر ابراهيم وهي الكواكب والقمر والشمس وهي معبودات قديمة أقر العلم بوجودها بعد ان سبر تاريخ الأمم الماضية بواسطة الحفريات والآثار التي حصل عليها .

ففي عصر ابراهيم وُجدت عبادة القمر في مدينة اور بلد ابراهيم وكان يطلق على القمر اسم (نانار) كما عُبدت الشمس واطلق عليها (شماس) كما وجدت عبادة الكواكب واشهرها كوكب الزهرة التي اطلق عليها (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ)[1] .

فالقرآن – كما نرى – يشير الى حقائق تاريخية صحيحة على لسان نبي ؛ وهذه الحقائق التاريخية تعتبر من الأنباء الغيبية في عصر الرسول وهي تشهد ان القرآن وحي إلهي .

البرهــان عــلى ربوبية الله وحده

كان نمرود ملكاً على عهد ابراهيم وكان يدعى الألوهية ، فبلغته دعوة

---

١ – ابراهيم ابو الانبياء للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٦٨ ، ١٦٩ – وقصة الحضارة – ول ديورانت – ج ٢ ص ٢١٤ .

ابراهيم التي تقوم على عبادة الله وحده ونبذ أي معبود دون الله ، فبعث الملك في طلبه ودار بينهما هذا الحوار الذي يقصه علينا القرآن الكريم .

(الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال : أنا احيي واميت قال ابراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فَبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) البقرة : ٢٥٨ .

والمعنى : ألم ترَ الى من عمي عن أدلة الايمان وجادل ابراهيم في الوهية ربه ووحدانيته وسبب ذلك الجدال هو ان الله اعطى هذا الملك السلطان الدنيوي فكان ذلك داعية لغروره وسبباً لكبريائه واعجابه بقدرته .

سأل هذا الملك ابراهيم عن صفات ربه الذي يدعو الى عبادته فأجابه بأن ربه هو الذي (يحي ويميت) فهو سبحانه منشىء الحياة وموجدها ، وهو الذي (يميت) اي يسلب الحياة فعلاً ، ولكن الملك المغتر بقوته يجيب ابراهيم : (انا احيي واميت) قال ابراهيم وكيف ذلك ؟ قال الملك : آخذ رجلين قد استحقا القتل فاقتل احدهما فأكون قد امته ، واعفو عن الآخر فأكون قد احييته .

لا ريب ان كلام الملك فيه مغالطة وافتراء على الحقيقة لأن الإحياء الحقيقي لا يكون إلاّ بايجاد مخلوق حي من العدم ، لهذا نرى ابراهيم لا يجادل الملك في قوله الذي يخونه المنطق ؛ وخوفاً من قطع باب المجادلة ، إختار طريقاً آخر اجدى واردع يستطيع به إفحامه : (قال ابراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) .

لقد ادعى هذا الملك انه شريك لله والشركة تقتضي المساواة في القدرة فليبرز هذا الملك المدّعي للألوهية قدرته في تغيير مسير الشمس . ولكن هذا الملك أفحم واضطرب ولم يحر جواباً .

* * *

ان النص القرآني السابق الذي يذكر صراحة ادعاء الملك للألوهية هو فتح علمي للقرآن ففي متحف اشمول بانجلترا اسماء الأسر التي حكمت بابل بعد الطوفان وقد جاء في الألواح التي حفظت وعثر عليها في الحفريات هناك ، ان هؤلاء الملوك قد هبطوا من السماء على الأرض لحكمها بعد ان طهرها الله وعاقبها من الفساد فهم ارباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا ، ومعلوم ان ابراهيم عاش في احد ملوك بابل .

ان هذا ولا ريب فتح علمي للقرآن إذ لم يكن معروفاً في البيئة التي عاش فيها محمد منذ اربعة عشر قرناً بأن ابراهيم عاش في بيئة يدّعي ملوكها الألوهية . وهذا دليل واضح على ان القرآن وحي إلهي .

قدرة الله تعالى في إحياء الموتى

الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء على الخير والشر وإحياء الله تعالى للموتى يومئذ كانت ولا تزال اهم قضايا الايمان .

وقد اثار الماديون شكوكاً حول هذا الاعتقاد تؤدي بضعاف الايمان الى انكار الأديان ، والقرآن في مواضع كثيرة منه يرد على المرتابين فيه الذين يستبعدون حدوث اليوم الآخر بأن الله لا يعجزه شيء فهو القادر على كل شيء ، فكما انه خلق الانسان في البدء فهو قادر على إحيائه يوم القيامة جاء في القرآن في وصف قدرة الله (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) .

وابراهيم عليه السلام كان مؤمناً بقدرة الله تعالى على احياء الموتى يوم القيامة ولكنه طلب من ربه مثالاً محسوساً على ذلك ليطمئن قلبه ، وقد اجاب الله طلبه وأراه قدرته وهذا ما يقصه علينا القرآن :

(وإذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم)

البقرة : ٢٦٠ .

المتأمل في هذا القول الالهي يرى ان ابراهيم لم يكن مرتاباً في الايمان بقدرة الله وبعث الأجساد يوم القيامة ولكنه طلب صورة من صور اليقين فسأل ربه (كيف تحيي) ولم يسأل (هل تحيي) فسؤاله كان سؤال عقل يريد ان يطمئن في قرار نفسه وان لا يدع للريب مجالاً .

فسؤال ابراهيم كان سؤال عقل يريد ان يشفي نهمه في استجلاء الحقيقة سافرة ، فهو في ذلك يسأل ربه باسم العقل ويتلق الجواب باسم العقل .

ولكن ماذا كان جواب ربه عليه؟ لقد قال له : خذ أربعة من الطير الحي فضمها اليك لتعرفهن جداً ، ثم جزئهن بعد ذبحهن ، واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءاً منهن ثم نادهن فسيأتينك مسرعات طيراناً ومشياً وفيهن الحياة كما كن ، واعلم ان الله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل أمر .

يعلق الفخر الرازي على هذه القصة قائلاً : والغرض منها ذكر مثال محسوس في عودة الأرواح إلى الاجساد على سبيل السهولة .

الفصل الثالث

ابراهيم واسماعيل

هجرة إبراهيم الى مصر – ملك مصر يهب لساره : هاجر – إبراهيم يرزق باسماعيل – هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل الى وادي مكة – نبع مـــاء زمزم – التضحية باسماعيل – إبراهيم وزوجة إسماعيل – إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة .

اقام ابراهيم مدة في بلدة حرّان تزوج اثناءها بابنة عمه ساره ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه البلدة لعدم إستجابة اهلها لدعوته باستثناء لوط ونفر قليل من قومه فعزم على الهجرة منها ، والقرآن الكريم يشير الى هذه الحادثة : (فآمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربي إنه هو العزيز الحكيم) .

وسبب هذه الهجرة العداوة الشديدة التي حصلت بين ابراهيم ومن آمن معه وبين عبدة الأصنام الذين أبوا الاستجابة لدعوة الايمان فتبرأ ابراهيم منهم واعرض عنهم .

هذا الموقف الذي وقفه ابراهيم من قومه مدحه الله عليه في القرآن الكريم

وحث المؤمنين على الاقتداء به (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتّى تؤمنوا بالله وحده) الممتحنة : ٤ .

توجه ابراهيم ومن آمن معه الى ارض الشام التي كان يطلق عليها ارض كنعان فلبث فيها زمناً غير طويل ، ثم نزلت بأرض الشام ضائقة شديدة هددتها بالمجاعة فنزح كثير من اهلها طلباً للكلأ والمرعى ، وكان ان نزح ابراهيم وقصد مصر .

ملك مصـــر يهب ساره : هاجر

وكان على عرش مصر في ذلك الزمن حاكم طاغية جبار قد بث العيون والرقباء بين افراد الشعب ليطلع على كل ما يحدث في مملكته ، فجاءه يوماً احد رجال حاشيته واخبره انه وفد الى مصر رجل يُدعى ابراهيم وبرفقته امرأة حسناء ، وكان هذا الملك يضم الى حريمه كل حسناء تروق له .

سمع الملك هذا الخبر فبعث بطلب ابراهيم ، فحضر الى القصر الملكي ، ولما مثل بين يديه ابتدره الملك بالسؤال عن المرأة التي ترافقه وصلته بها ؛ فطن ابراهيم الى مراد الملك وأدرك الخطر المحدق به فأجابه : بأنها اخته ، وهو يقصد في سريرة نفسه انها اخته في الايمان ، ولم يشأ ابراهيم ان يصرح بالحقيقة بأنها زوجته خوفاً على نفسه من ان يقتله هذا الملك ليستأثر بها ، عندئذ طلب الملك من ابراهيم احضار ساره اليه .

رجع ابراهيم الى ساره واخبرها بما جرى له مع الملك وطلب منها الاستعداد للذهاب اليه ، ودعوا ربهما ان يصرف عنهما شر هذا الطاغية .

دخلت ساره على الملك فأجلسها بجانبه ثم اراد ان يمسكها بيده ليضمها اليه فيبست يده ، فلما شعر الملك بما اصابه اعظم أمرها واستشعر بأن في الأمر سرّاً فقال لها : ادعي الله بأن يطلق يدي ولا اضرك ، فدعت الله فأطلق

الله يده ولكن الملك حنث بوعده ورغب بضمها ثانية ، ولكن يده يبست مرة اخرى، فطلب منها ان تدعو الله ووعدها بأنه لن يمسها ابداً وانه سيحسن إليها ، فدعت الله فأطلق الله يده ، عندئذ ردها الملك الى ابراهيم [1] ووهب لها جارية اسمها : هاجر

ابراهيم يـــرزق باسماعيل

خرج ابراهيم من مصر واقام بفلسطين وكانت نفسه ترغب في ولد فدعا الله أن يهبه ذرية طيبة : (رب هب لي من الصالحين).

وكأن زوجه ساره شعرت بما يجول في خاطر ابراهيم فقالت له : ان الرب حرمني الولد فأرى ان تتزوج من جاريتي هاجر لعل الله يرزقك منها ولداً ، وكانت ساره قد تقدمت في السن وكانت عقيماً لا يرجى ان تُرزق بولد.

تزوج ابراهيم هاجر فولدت له اسماعيل الذي وصفه سفر التكوين. (واما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه وهاءنذا اباركه وانميه واكثره جدّاً جدّاً ويلد اثني عشر رئيساً واجعله أمة عظيمة) [2].

هذه بشارة بأمة محمد ، فإن محمداً من نسل اسماعيل وكذلك عرب الحجاز ولم يتحقق هذا الوعد في ذرية اسماعيل إلاّ على يد محمد عليه السلام وأمته.

هجرة ابراهيم بابنـــه اسماعيل الى وادي مكة

بعد ان رُزِق ابراهيم باسماعيل من هاجر بدأت هذه تتيه وتعتز بهذا

---

١ - هكذا تروي المصادر العربية في كيفية تسريح ساره وارجاعها الى ابراهيم باختلافات طفيفة اما رواية سفر التكوين فتذكر : (فضرب الرب فرعون واهله ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام (ابراهيم) فاستدعى فرعون ابرام وقال له ماذا صنعت بي لم لم تخبرني انهـا امرأتك ... والآن ها امرأتك خذها وامض).

٢ - الفصل ١٧ آية ٢٠.

الولد مما أثار الحسرة والغيرة في نفس ساره فطلبت من ابراهيم اقصاءهما عن وجهها لأن حياتها مع هاجر اصبحت لا تطاق .

و استجاب الله لرغبتها لأمر يريده ، فأوحى الى ابراهيم ان يأخذ هاجر واسماعيل ويذهب بهما الى مكة وكان اسماعيل يومئذ رضيعاً .

اصطحب ابراهيم الغلام وأمه وسار ترشده ارادة الله وطال به السير الى ان امره الله بالتوقف في ارض خلاء بعيدة عن العمران في المكان الذي سيبنى فيه البيت الحرام .

انزل ابراهيم هاجر وطفلها في هذا المكان المقفر الذي ليس فيه ماء ثم تركهما وقفل راجعاً فتبعته هاجر ملتاعة وقالت له : الى اين تذهب ؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي الموحش المقفر ، قالت له ذلك مراراً مستعطفة وهو يمضي في سبيله عندئذ قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذن لايضيعنا الله ، ثم رجعت الى المكان الذي وضعهما ابراهيم فيه .

انطلق ابراهيم وقلبه منفطر اسى على فراق زوجته وولده ولكن إرادة الله غلبت ارادته فاستسلم لربه وقفل راجعاً وهو يبتهل لربه ويدعوه بهذه الكلمات التي يقصها علينا القرآن :

(ربنا إني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) ابراهيم : ٣٧ ، ٣٨ .

والمعنى : يا ربنا إني اسكنت بعض ذريتي في وادي مكة الذي لا زرع فيه عند بيتك الذي سأبنيه لك والذي ستحرّم التعرض له والتهاون بشأنه .. ربنا إني ما اسكنتهم هذا الوادي إلاّ ليقيموا الصلاة عند بيتك وليؤدوا واجب العبادة لك وحدك ، فاجعل يا رب قلوب بعض الناس تميل اليهم وتعطف عليهم وارزقهم في هذا المكان النائي بعض انواع الثمرات ليشكروا

لك نعمك . ربنا إنك تعلم سرنا وعلانيتنا وتعلم ما اضمره من الحزن على فراق ذريتي ، وما يخفى عليك من شيء مهما كان صغيراً سواء كان في الأرض او في السماء .

نبع مــاء زمزم

امتثلت هاجر لأمر الله وتحلت بالصبر ، ومكثت تأكل من الزاد وتشرب من الماء الذي تركه لهما ابراهيم الى ان نفد فعطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه وهو يتلوى من الظمأ فلم تحتمل هذا المشهد المؤلم فهبت قائمة وسارت هائمة على وجهها تعدو وتهرول وتكاد تفقد وعيها .

صعدت هاجر مكاناً مرتفعاً يعرف بـ (الصفا) فنظرت لعلها ترى ماء فلم تر شيئاً فهبطت وسعت سعي الانسان المجهود حتى أتت مكاناً مرتفعاً آخر يعرف بـ (المروة) فنظرت فلم تَرَ شيئاً ، ثم رجعت الى (الصفا) فنظرت فلم تَرَ شيئاً فعلت ذلك سبع مرات [1] .

ثم لما اشرفت اخيراً على (المروة) سمعت صوتاً فتلفتت فإذا بملك من الملائكة عند موضع زمزم فبحث بجناحه حتى ظهر الماء [2] .

رأت هاجر هذا المشهد المثير فغمرها الفرح والسرور ثم جعلت تغرف من الماء تسقي ولدها وتروي نفسها .

ولما نبع الماء اجتذب الطير اليه ، وكان قوم من قبيلة جُرهم يسيرون قُرب هذا المكان فرأوا الطير تحوم حوله فسأل بعضهم بعضاً : ان هذا الطير ليحلق على ماء فهل علمتم أن بهذا الوادي ماء ؟ قالوا : لا ، فأرسلوا احدهم يستطلع الخبر فرجع يزف اليهم بشرى وجود الماء ، فجاءوا الى هاجر فقالوا : لو شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فرحبت بهم ، فكانوا معها

---

١ – قال الرسول : فلذلك سعى الناس بينهما (اي بالحج) .

٢ – وقيل ان اسماعيل كان يفحص الأرض بقدمه او بيده فنبع الماء من تحتها .

حتّى شب اسماعِيل وتزوج امرأة جرهمية ، وتعلم العربية منهم .

التضحيـــة باسماعيل

ترك ابراهيم ولده اسماعيل في مكة ولكنه لم ينسه ، او يغفل عنه بل كان يزوره من حين الى آخر .

وفي احدى هذه الزيارات رأى ابراهيم في منامه ان الله يأمره بذبح ولده اسماعيل . ورؤيا الأنبياء حق لأنها بمثابة الوحي من الله ، لذلك عزم ابراهيم على تنفيذ امر الله ولم يثنه عن عزمه كون اسماعيل ابنه الوحيد وانه اصبح في سن الشيخوخة . وهذا ما يقصه علينا القرآن :

(وقال إني ذاهب الى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا ابت افعل ما تُؤْمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما اسلما وتلّه للجبين . وناديناه ان يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزي المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) الصافات : ٩٩ — ١١٢ .

في هذه الآيات يذكر الله عن ابراهيم انه لما هاجر من أرض قومه سأل ربه ان يهبه ولداً صالحاً فاستجاب له ربه وبشره بغلام حليم [١] هو اسماعيل أول ولد له .

فلما نشأ وترعرع واصبح في سن يستطيع معها ان يسعى ويعمل رأى ابراهيم في المنام ان الله يأمره بذبح ولده اسماعيل وكان وحيده آنذاك ، عرض ابراهيم الأمر على ولده ليمتحن إيمانه وليكون ذلك اطيب لقلبه وأهون

١ — حليم : الحلم ضد الطيش والجهل والسفه، والحلم هو الصبر والأناه والسكون مع القدرة والقوة .

عليه من ان يذبحه قهراً . اجاب اسماعيل عليه السلام : يا أبت افعل ما أمرك الله به وستجدني إن شاء الله من الصابرين الراضين بمشيئة الله .

فلما استسلما لقضاء الله وعزما على تنفيذ أمره القى ابراهيم ابنه على وجهه ليذبحه من قفاه ، لئلا يشاهد وجهه في حال ذبحه ، وأمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع عند ذلك ناداه الله : يا ابراهيم كف عن ذبح ابنك فقد حصل المقصود من اختبارك وقد وجدنا فيك طاعة ومبادرة الى تنفيذ أمر ربك ، فهذا هو الاختبار العظيم الظاهر البيّن الذي امتحنا به ايمانك فكنت من الفائزين ، خذ هذا الكبش واذبحه فداء لابنك .

من الذبيح ؟ : القرآن ينص على ان الذبيح هو اسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم بشّر الله ابراهيم بولد آخر اسمه اسحق (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) فالإتيان بالبشرى باسحق بعد ذكر قصة الذبح صريح في ان اسحق غير الغلام الذي ابتلي ابراهيم بذبحه .

اما اليهود فيدعون ان الذبيح هو اسحق ، فسفر التكوين يذكر قصة الذبيح ويستهل ذلك بذكر هويته بما قاله الرب لابراهيم (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب الى ارض مورية)[1] .

وقد ردّ الامام ابن كثير على هذا الادعاء فقال :

(فلفظ اسحق هنا مقحمة ... لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر وانما ذاك هو اسماعيل ، وانما حمل اليهود على هذا حسد العرب فإن اسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز والذين منهم رسول الله ، واسحق والد يعقوب وهو اسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا ان يجروا هذا الشرف اليهم فحرفوا[2] كلام الله وزادوا فيه)[3] .

---

١ – الفصل ٢٢ آية ٢ .
٢ – يذكر القرآن في كثير من آياته تحريف اليهود لكتاب الله .
٣ – البداية والنهاية ج ١ ص ١٥٩ .

ابراهيم وزوجـــة اسماعيل

وفد ابراهيم يوماً الى مكة وأتى بيت اسماعيل فلم يجده ووجد امرأته -وكانت تجهل انه والد زوجها- فسألها ابراهيم عن اسماعيل فأخبرته انه خرج يصطاد ثم سألها عن حالهم فقالت : نحن في شدة وضيق وشكت اليه سوء الحال ، ثم قال لها ابراهيم : هل عندك ضيافة ؟ هل عندك طعام وشراب ؟ قالت : ليس عندي وما عندي أحد .

لم ترق هذه المرأة في عين ابراهيم لما رأى منها من عدم الرضى بما قسم الله لها ولتبرمها بالحياة مع زوجها ، ولما لقي منها من بخل دفعها ان لا تكرم وفادته فقال لها ابراهيم : إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه .

انطلق ابراهيم وجاء اسماعيل وكأنه آنس أن امراً حدث خلال غيابه فقال : هل جاءك احد ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا وسألني عنك فأخبرته بالواقع . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم امرني ان أقرأ عليك السلام وطلب مني ان اقول لك : غيّر عتبة بابك . قال اسماعيل : ذاك هو ابي وقد امرني ان افارقك فألحقي بأهلك ، فطلقها وتزوج امرأة أخرى .

غاب ابراهيم عن اسماعيل بعض الزمن ثم أتاه فلم يجده كذلك ووجد امرأته الجديدة فاستقبلته ورحبت به فسألها ابراهيم : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم ، فاستضافته واكرمت وفادته ثم سألها عن حالهم ، فقالت : نحن بخير وسعة واثنت على الله ، فقال لها ابراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له ان يثبت عتبة بابه ، ثم انصرف .

رجع اسماعيل الى منزله في المساء فأخبرته زوجته بمجيء الشيخ في غيبته ووصفت له هيأته واخبرته بوصيته له ، فقال لها اسماعيل : انه ابي وقد امرني ان احتفظ بك وألاّ أفارقك فلازمها اسماعيل طوال حياته وكانت ام ابنائه .

ابراهيم واسماعيل يبنيـــان الكعبة

لبث ابراهيم بعيداً عن ابنه مدة طويلة ثم جاءه لأمر جلل فقد أمره الله ببناء الكعبة في مكة ليكون اول بيت يقام لعبادة الله .

تفقد ابراهيم ابنه اسماعيل فوجده يبري نبلاً له قريباً من زمزم فأقبل عليه فخف اسماعيل لاستقباله ، فتعانقا وبث كل واحد منهما للآخر لواعج محبته وعظم سروره .

وبعد ان طاب المقام لابراهيم بلقيا ابنه افضى اليه بأن الله أمره ان يبني بيتاً لعبادته في هذا الموضع واشار الى مكانه وهو على اكمة مرتفعة على ما حولها قريبة منهما . فقال اسماعيل : افعل ما أمرك ربك وأنا أعينك في هذا الأمر الجليل « فجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ، ثم قال ابراهيم لاسماعيل : ائتني بحجر حسن اضعه على الركن فيكون للناس علماً ... فأخبره جبريل بالحجر الاسود فأخذه ووضعه موضعه ، وكانا كلما بنيا دعوا الله : (ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم) فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم »[1] وكلما أتم ناحية من الجدار انتقل الى ناحية أخرى وهو واقف عليه وكلما فرغ من جدار نقل الحجر الى سواه وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة . وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة من قديم الزمان الى ايام عمر بن الخطاب الذي اخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده .

ويشير القرآن الى بناء الكعبة بهذه الآيات البينات :

(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مُصلّى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره

---

١ – ابن الأثير ج ١ ص ٤٦ .

الى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبّل منا انك انت السميع العليم) البقرة : ١٢٥ — ١٢٧ .

في هذه الآيات يذكّر الله العرب المسلمين بهذه النعمة وهي جعل البيت الحرام (مثابة)[١] أي مرجعاً للناس يقصدونه للعبادة ، كما جعله الله مأمناً لكل خائف فالداخل الى الحرم لا يمسه أحد بأذى وهذا امر اصطلح عليه منذ القديم مما يجعل له قدسية لا يجوز لاحد ان يتعدى عليها .

و (مقام ابراهيم) الذي امر الله باتخاذ موضعه مكاناً للصلاة قيل انه الحجر الذي قام عليه ابراهيم لبناء الكعبة وقيل انه الحرم كله الذي هو حول الكعبة .

ويشير الله الى وصيته لابراهيم واسماعيل بتطهير البيت من الدنس الحسي كالقاذورات والدنس المعنوي كالشرك والأصنام ليكون طاهراً للطائفين حوله والمعتكفين أي المقيمين فيه للعبادة ، والراكعين الساجدين لله .

كما يشير القرآن الى دعاء ابراهيم الذي دعا به ربه ان يجعل البلد الذي سينشأ فيه البيت بلداً آمناً وان يرزق اهله المؤمنين بالله واليوم الآخر من ثمرات الأرض وخيراتها ، وقد استجاب الله دعاءه واخبره أنه لن يضن على الكافر بالرزق في هذه الدنيا ولكن سيلجئه يوم القيامة الى عذاب جهنم وبئس المصير .

نعم استجاب الله دعاء ابراهيم فجعل مكة بلداً آمناً ومن تعدى عليها اهلكه الله . كما استجاب له ايضاً بأن أفاض الرزق عليها ، فجميع انواع الثمار تجبى اليها من جميع الأقطار .

ثم يشير الله اخيراً الى بناء ابراهيم واسماعيل البيت ورفعهما قواعده وهما يبتهلان الى الله بأن يتقبل منهما هذا العمل العظيم .

---

١ — لفظ (مثابة) يحمل معنى القصد والمزار مع الرجوع اليه ، فكونه مثابة للناس امر معروف يصدق برجوع زائريه اليه واشتياق ارواحهم له وحنين غيرهم وتمنيهم زيارته .

الفصل الرابع

فضائل ابراهيم

منزلة إبراهيم – من أدعية إبراهيم – إبراهيم المسلم الحنيف – كرم إبراهيم .

مقارنة بين التوراة والقــرآن في عرض قصة ابراهيم

من يقارن بين ورود قصة ابراهيم عليه السلام في العهد القديم وبين ورودها في القرآن الكريم يـرَ بينهما فارقاً كبيراً . فبينما نرى العهد القديم يحرص على ذكر حياة ابراهيم وما فيها من ترحال واحداث ووعد من الله له ولذريته بالاستخلاف في الأرض ، إذا بنا نجد القرآن الكريم يشير الى حياة ابراهيم عليه السلام اشارات موجزة ، ولكنه حين يفعل ذلك يبرز نواحي اخرى اكثر اهمية ، فيتحدث عن منزلة ابراهيم عند ربه وجهاده في سبيله ، ويحلل نفسيته وما فيها من خلق سام وتضحية ، ويتحدث عن رسالة التوحيد التي دعا اليها ، وعن الحجج العقلية التي ذكرها في بطلان عبادة الأصنام ، كما يتحدث عن تقوى ابراهيم وابتهالاته لربه وعمق ايمانه واخلاصه له بما لا نجده في العهد القديم، وهذه ميزة اختص بها القرآن في الحديث عن

حياة ابراهيم مما يجعل له مكانة خاصة لا يبلغها غيره من الكتب السماوية .

منزلــة ابراهيم

والى القارىء بعض صفات ابراهيم التي جاء ذكرها في القرآن والتي يرسم الله فيها ابراهيم نموذجاً للهداية والطاعة والشكر . قال تعالى :

(ان ابراهيم كان أُمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) النحل : ١٢٠ ــ ١٢٢ .

يصف الله ابراهيم بأنه كان (أمة) أي انه كان وحده أمة من الأمم لكونه جامعاً لكل الفضائل الطيبة ، فهذه الكلمة بمثابة مقال مسهب في مدح ابراهيم ، فكل ما تفرق في الناس من خلال طيبة وخلق طاهر قد جمعه الله لنبيه ابراهيم وبذلك صار إماماً يُقتدى به .

ويصفه الله بأنه كان (حنيفاً ولم يك من المشركين) أي موحداً له ومخلصاً ولم يك مشركاً به احداً من خلقه . وهو ايضاً (قانت لله) أي خاشع مطيع له قائم بما أمره به ، كما انه كان (شاكراً لأنعمه) أي قائم بشكر نِعَمِ الله عليه ولذلك استحق هذه المنزلة (اجتباه وهــداه الى صراط مستقيم) أي اختاره الله لحمل رسالته ووفقه لسلوك طريق الحق المستقيم الموصل الى رضى الله ، الى ان قال سبحانه وتعالى : (وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي جعل الله له ذكراً حسناً في الدنيا وسيكون في الآخرة من زمرة الصالحين المنعمين بجنات الله ورضوانه .

ومما وصف الله إبراهيم في القرآن

(وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين) البقرة : ١٢٤ .

يرينا الله انه اختبر ابراهيم بتكاليف شرعية واوامر ونواه فأتمها وقام

بواجبها حق القيام فقال له ربه : إني جاعلك للناس إماماً يتبعونك ويقتدون بك ، عندئذ طلب ابراهيم من ربه ان يجعل بعض ذريته أئمة كذلك ، فأجابه بأن هذه الإمامة لن يصل إليها الظالمون ، وفي هذا اشارة الى أنه سيكون من ذريته الأبرار والفجار . وتأمل كيف اخبر الله ابراهيم بأن الإمامة لا ينالها الظالمون لأنهم ليسوا اهلاً لأن يُقتدى بهم ، كما اراد الله تنفير سائر الناس من الظالمين ، وعدم توليتهم امورهم ، والظلم في نظر القرآن هو التعدي على حدود الله وعدم الأخذ بتعاليمه قال تعالى : (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون) .

وقال تعالى في ابراهيم عليه السلام :

(واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً)

والمعنى : اي اذكر يا محمد للكفار قصة ابراهيم لعلهم يعتبرون بها ، قصة هذا النبي الذي وُصف بـ (الصدّيق) وهو المبالغة والاغراق في الصدق ، وقد استحق ابراهيم هذا اللقب لفرط صدقه ، وتأمل كيف وصفه الله بالصدق قبل ان يصفه بالنبوة ليرينا قيمة الصدق وانه من الدعائم التي تقوم عليها النبوة .

ووصف الله ابراهيم في القرآن بقوله : (وابراهيم الذي وفّى) أي وفى بجميع ما أمره به ربه من خصال الايمان وشعبه فكان لا يشغله امر جليل عن آخر مشكور ، ولا شأن كبير عن آخر صغير .

ويذكر الله منزلة ابراهيم بقوله : (واتخذ الله ابراهيم خليلاً) قيل في معنى الخليل هو المحب الذي لا خلل في محبته ، وقيل : الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، والله يحب الأصفياء من عباده ، وقد كان ابراهيم كامل الحب لله ولذلك عادى أباه وقومه في سبيل ربه ، فأحبه الله لذلك واتخذه خليلاً .

من ادعية ابراهيم

عُرِف الدعاء في الإسلام بأنه (مُخ العبادة) فكما ان مخ الانسان يقوم

عليه الانسان فكذلك الدعاء تقوم عليه العبادة .

فالدعاء هو المظهر الأول لايمان الانسان وعبوديته لله وانقياده لأمره ، وعلى نوعية الدعاء تنكشف حقيقة الانسان من طلبه مغانم مادية او منزلة روحية .

والقرآن يذكر لنا بعض الأدعية التي جرت على لسان ابراهيم مما يستبين منها القارىء سمو روح ابراهيم والمنزلة التي تبوأها والتي جعلته محبوباً من ربه ، فهو في ادعيته لا يطلب عرضاً من اعراض الدنيا ، إنه دعاء المؤمن الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه ، والذي ذاق طعم الايمان فهو يطلب المزيد منه .

والى القارىء بعض أدعية ابراهيم وهي امثولة رائعة للسمو الروحي :

(رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يُبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من اتى الله بقلب سليم) الشعراء : ٨٣ — ٨٩ .

فابراهيم في هذه الآيات دعا ربه ان يهبه حكمة ليعرف بها القيم الصحيحة من القيم الزائفة ، او هو دعا ربه ان يكون حكماً بين الناس بالحق . كما طلب من ربه ان يوفقه للعمل الصالح لينتظم في سلك الصالحين ، ويجعل له ذكراً حسناً بعد مماته ، ويكون ممن ينالون رضاه في الآخرة فينال جنة النعيم ، وان يغفر لوالده ما كان عليه من كفر وضلال . كما أن ابراهيم طلب من ربه ان لا يلحق به ذُلاّ ولا هواناً يوم يُبعث الناس من قبورهم للحساب ، يوم لا ينفع المذنب ما جمع من مال لأنه لن يقيه من عذاب الله كما لا ينفعه ابناؤه ولو كانوا صالحين ، ولا ينجي الإنسان إلاّ ملاقاة ربه بقلب سليم من الكفر والنفاق والخصال المذمومة .

ويدعو ابراهيم واسماعيل ربهما :

(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا إنك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انت العزيز الحكيم) البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

والمعنى : اللهم وفقنا لأن نكون مخلصين لك خاضعين لأمرك ، واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك وعلمنا طريقة عبادتنا لك ، وتب علينا انك تتوب على المخطئين التائبين لأنك رحيم بخلقك . ربنا وابعث في ذريتنا رسولاً منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وجودك ووحدانيتك وعظيم شأنك ويعلمهم ما توحي اليه من كتاب فيه شريعة لهم، كما يعلمهم الحكمة وهي اسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وما فيها من نفع وخير ، وان يطهر نفوسهم من العادات الرديئة والصفات الذميمة .

هذا وقد استجاب الله لدعوة ابراهيم واسماعيل فبعث في ذريتهما رسولاً منهم وهو محمد عليه السلام الذي صرّح قائلاً : (انا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى) [١] .

فمحمد هو الذي طهّر نفوس العرب من الخصال الذميمة وعلمهم الكتاب وهو القرآن، وعلمهم الحكمة وهي السنة النبوية، كما جعل منهم في سنين معدودات أمة موحدة متآلفة تنشر الخير والفضائل في ارجاء العالم ، بعد ان كانوا أمة ممزقة ترتع في حمأة الرذيلة وتصول في ميادين الشر .

ومن ادعية ابراهيم

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم) الممتحنة ٥ ، ٦ .

والمعنى : يا ربنا فوضنا اليك امورنا ، ورجعنا اليك وحدك في العبادة

---

١ – رواه احمد في مسنده .

إذ المصير اليك يوم القيامة . ربنا لا تجعلنا فتنة واختباراً للذين كفروا يصيبوننا بأذى او يصرفوننا عن سبيلك ، او نكون نحن فتنة لهم بالقدوة السيئة وسبباً لإضلالهم عما يجب ان يكونوا علية من الحق والهدى ، واغفر لنا يا رب ما فرطنا من ذنب انك انت العزيز الذي لا يغالب والحكيم فيما تفعل .

ابراهيم : المسلم الحنيف

في مفهوم كثير من الناس ان الاسلام هو اسم اطلقه محمد على دينه وأنه اول من استحدث هذا الاسم ، وهذا بلا ريب خطأ ، فالحقيقة التي اعلنها القرآن ان انبياء الله جميعهم مسلمون [1] وفي طليعتهم ابراهيم الذي ارتضى هذا الاسم لدينه واطلقه على اتباعه ووصى به ذريته . فالعرب الذين آمنوا برسالة محمد واعتنقوا الاسلام يخاطبهم القرآن : (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج : ٧٨ .

ومحمد كان مأموراً باتباع ملة ابراهيم التي تقوم على عبادة الله وحده ، قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً: (ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً [2] وما كان من المشركين) النحل : ١٢٣ .

معنى الاسلام : ولكن ما هو الاسلام ؟ وما حقيقة معناه الذي اخذ بمفهومه جميع انبياء الله ؟ يقول ابن تيمية في تعريفه : (الاسلام هو ان يستسلم الانسان لله لا لغــيره ، فيعبد الله ولا يشرك بــه شيئاً ، ويتوكل عليه وحده ، ويرجوه ويخافه وحده ، ويحب الله المحبّة التامّة لا يحب مخلوقاً كحبه لله ، بل يحب لله ويبغض لله ، ويوالي لله ويعادي لله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ، ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلماً) [3] .

هذا هو الاسلام وهذا هو معناه ولا غرابة في ان يثني الله على الآخذين

---

١ – راجع بحثنا (معنى الاسلام) في كتاب روح الدين الإسلامي .
٢ – حنيفاً : اي مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق .
٣ – كتاب النبوات ص ٨٧ .

بهذا المعنى المتحلين به متبعين في ذلك جدهم ابراهيم عليه السلام :

(ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً) النساء : ١٢٥ .

فالذي يسلم وجهه لله هو الذي يخلص عبادته لله ويبتغي بعمله وجه الله والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات ، والحسنات هي العمل الصالح.

فالاسلام هو عهد وميثاق يضع الانسان روحه ونفسه وقلبه وقوله ورغائبه وغضبه ورضاه في ميزان الله .

فابراهيم يقول لقومه: (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده) ويقول ايضاً : (إني وجهت وجهي[1] للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين) الأنعام : ٧٩ . هكذا كان اسلام ابراهيم عليه السلام لهذا اصطفاه الله بسبب اسلامه ، فقال سبحانه :

(ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم ، قال : اسلمت لرب العالمين) البقرة : ١٣٠ .

كــرم ابراهيم

قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة التي لم يسبقهم اليها احد من عالم زمانهم ، فقدكان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسي (اللواط) ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل ملائكة لانزال الهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل ذلك ان ينزلوا ضيوفاً على ابراهيم بصورة فتيان .

وكان ابراهيم مشهوراً بالكرم والحدب على الضيف لذا ضاق صدره عندما انقطع الضيوف عنه خمس عشرة ليلة ، فلما رآهم سُرَّ بهم فخرج الى اهله فجاء بعجل سمين قد شواه بالنار التي جعلت لونه أحمر من آثار النضج ثم قدمه إليهم .

١ – المراد بذلك وجه القلب لأن الوجه إنما يتوجه الى حيث توجه القلب .

ولكن ايدي هؤلاء الضيوف لم تمتد الى العجل ، ولم ير ابراهيم لهم رغبة في الطعام فارتاب بشأنهم واوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من العجل ، فخاطبهم في هذا الشأن ، فأخبروه بأنهم ملائكة ارسلهم الله للانتقام من اهل سدوم وعامورة وهم المعبّر عنهم في القرآن بقوم لوط .

ضحكت ساره امرأة ابراهيم لما عرفت حقيقـــة هؤلاء الضيوف الذين ما لبثوا أن بشروها بأن الله سيهبها ولداً اسمه اسحق وان اسحق سيرزق هو الآخر بابن هو يعقوب .

تعجبت ساره من هذه البشرى وقالت لهم : أألد وقد اصبحت عجوزاً وهذا زوجي ابراهيم قد اصبح شيخاً ، وكانت ساره يومئذ ابنة تسعين سنة وابراهيم ابن عشرين ومائة سنة ، ولكن الملائكة أجابتها : اتعجبين من هذه البشرى؟ إن هي إلاّ قدرة الله التي لا يعجزها شيء اختصكم بها برحمته وبركاته عليكم آل ابراهيم .

فلما اطمأن ابراهيم الى حقيقة هؤلاء الضيوف ، ولما جاءته البشرى باسحق ابنه ويعقوب حفيده اخذ يجادل ربه في شأن قوم لوط رجاء ان ينظر الله اليهم نظرة رحمة ، وهذه المجادلة اشار اليها القرآن وجاء تفصيلها في سفر التكوين ، قال تعالى :

(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى . قالوا سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا : لا تخف إنـّا أُرسلنا الى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب . قالت : يا ويلتا أألد وأنـــا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا : اتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم لحليم اواه منيب . يا ابراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء امر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) هود ٦٩ ــ ٧٦ .

الفصل الخامس

دروس وعبر من قصة ابراهيم

إبراهيم صاحب القلب الكبير – درس في الشجاعة – التضحية بالنفس والولد في سبيل الله – عبادة الأصنام وأشباهها .

ابراهيم صاحب القلب الكبـــير

ابراهيم هو المنار الذي استرشد به أنبياء الله والمؤمنون في كل عصر ، بل هو الامثولة الطيبة السامية التي جعلها الله لبني الإنسان جميعاً .

وإذا أردنا ان نطلق على ابراهيم وصفاً لا نجد تعبيراً أدق وأفضل من وصفه بصفة صاحب القلب الكبير ، هذا القلب الذي كان آية في الرقة والعطف والحنان والسلامة من الحقد والخصال الذميمة . وكيف لا يحمل ابراهيم مثل هذا القلب وهو الداعي الى سلامة القلب ، القائل عن مصير الانسان يوم القيامة :

(يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من اتى الله بقلب سليم) .

قول رائع لا ترتقي الى سموه اية نظرية فلسفية ، ولا يسمو عليه أي مذهب اخلاقي ، لأنه يحدد لبني الانسان الغاية التي يجب ان يضعوها نصب اعينهم

في سبيل السمو الانساني والسعادة الأبدية ألا وهي الاعتناء بسلامة قلوبهم وتطهيرها من الشرور والآثام .

إن موطن العظمة في ابراهيم هو قلبه الكبير الذي وسع الناس جميعاً لأنه نذر نفسه في سبيل إسعادهم ، سواء أكانوا اقرب الناس اليه نسباً ، او كانوا لا يمتون إليه بصلة القربى ، فهو حريص على ايصال الخير لهم وتخليصهم من عبادة الأصنام التي فشت فيهم ، تلك العبادة التي كبلت عقولهم وجعلتهم فريسة للخرافات ، تلك العبادة التي ارهقتهم بتكاليف خاسرة تنوء بها استعداداتهم كتقديم القرابين لها من طعام وشراب وذبائح تذهب هدراً ، تلك العبادة التي تعرضهم لغضب الله الواحد الديان بسبب الانصراف عن عبادته الى عبادة جمادات لا تعي ولا تسمع .

فقلب ابراهيم الكبير لا يطيق رؤية والده يتيه في الضلال وينغمس في عبادة الأصنام فيسعى الى هدايته بالعقل والمنطق ولكن هذا الوالد الذي تحجر عقله يقابل ابراهيم بالتهديد والرجم فيجيب هذا الابن: (سلام عليك سأستغفر لك ربي) .

إن استغفار ابراهيم لوالده بعد تلقيه تهديده يدل على اخلاصه له ، كما ينم عن قلب كبير ينبض بالحب والعطف والحنان .

وقلب ابراهيم الكبير يتجه ايضاً نحو بنيه فهو يبتهل الى الله ان يجنبهم عبادة الأصنام .

(وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ ان نعبد الأصنام)

وقلب ابراهيم الكبير يحنو ايضاً على ذريته التي تربطه بهم رابطة الدم ، فقد احب لهم الرفعة والخير حبّاً ملك عليه مشاعره ، حتّى انه حين منحه الله الإمامة لم يقنع ان يستأثر بهذه المزية وحده فدعا ربه ان ينعم بها كذلك على ذريته .

(قال إني جاعلك للناس إماماً قال : ومن ذريتي)

وقلب ابراهيم الكبير يدفعه ان يسأل الله ان يجعله مقيم الصلاة وهي اهم ما يتقرب به الانسان الى ربه ، ثم لا يكتفي بذلك بل يشرك معه ذريته في الدعاء .

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبّل دعاء) .

وقلب ابراهيم الكبير يحنو على قومه على الرغم مما لحقه منهم من اذى وهجران، فهو لا يطلب لمن يعصيه الهلاك ولا يستعجل لهم العذاب انما يكلهم الى غفران الله ورحمته . (رب انهن اضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك رؤوف رحيم) . وقلب ابراهيم الكبير لا يحتمل ان يقع العذاب على احــد ولو كان ممن يستحق العذاب ، فها هم الملائكة يأتون لينزلوا العذاب بقوم لوط فتهتز لذلك اوتار قلب ابراهيم لما سيصيب قوم لوط فيجادل ربه لعله يحظى بالرحمة منه لهؤلاء القوم العصاة ، قال تعالى :

(يجادلنا في قوم لوط . إن ابراهيم لحليم [1] اواه [2] منيب [3]) .

درس في الشجاعة

ان في حياة ابراهيم لدرساً في الشجاعة والاقدام والاستماتة في سبيل المبدأ والعقيدة فابراهيم يقف وجهاً لوجه امام قومه الذين فشت فيهم عبادة الأصنام ، يسفه معتقداتهم ويدعوهم بالحجة والبرهان الى ترك عبادتها ، ولكن ما أشقها دعوة ، فإنه لا شيء اصعب على الانسان من تغيير معتقداته الموروثة التي حلت في نفسه مكان التقديس والإجلال، ولا شيء يثير غضبه اكثر من تسفيه معتقداته ، ولهذا كانت مهمة ابراهيم شاقة تحتاج الى شجاعة وأناة وصبر لتلقي نقمة قومه التي كان اول بوادرها في والده الذي قال له : (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليّا) .

---

١ – حليم : لا يحب تعجيل العقاب .
٢ – أواه : كثير التأوه والتوجع من السوء الذي يصيب غيره .
٣ – منيب : يرجع الى الله في كل أمر .

لم يجد ابراهيم من قومه آذاناً صاغية لدعوته بل وجد اعراضاً وعداوة وهجراناً فلم يثنه ذلك عن قصده ولم يدخل الوهن الى قلبه بل شهر في وجوه قومه سلاحاً امضى واقوى ، سلاحاً يدمّر معتقداتهم ويزلزل بنيان مقدساتهم، إنه سلاح مقاومة الباطل باليد وهو اشد اثراً من مقاومة الباطل بالقول الذي لم يجدِ معهم نفعاً ، انه السلاح العملي الذي حطم به اصنامهم .

ان نتيجة هذا العمل واضحة للعيان : إما موته المحقق ، وإما اقناع قومه بترك عبادة الأصنام .

اسلوب عملي ارتآه ابراهيم ليظهر لقومه ان معبوداتهم لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تدافع عنهم او تصيبهم بالخير والشر —كما يعتقدون— .

طريقة فذة اراد ان يُظهر بها ابراهيم ان معبوداتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم، فعندما سُئِل ابراهيم عن الفاعل أجاب : (بل فعله كبيرهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .

لقد فجّر هذا العمل نقمة قومه فحاكموه واصدروا حكمهم عليه بالموت حرقاً ، ولكن ابراهيم لم يجزع ولم يصب بانهيار يفقده وعيه بل وقف امام الجمع الهادر من قومه مطمئناً الى مصيره تغمره الثقة بالله .

درس وما اجله من درس لدعاة الاصلاح ، يقوي نفوسهم ويصهر مواطن التردد والخوف والوهن فيهم ليحيلها الى نفوس اجرأ واقوى .

التضحية بالنفس والولـــد في سبيل الله

التضحية التي أمر الله بها ابراهيم وهي ذبح ابنه اسماعيل ، واستجابة اسماعيل لهذا الامر الالهي عن رضا وطيب نفس لهي من اعظم الحوادث واجلها في تاريخ التضحيات وبالأخص إذا نظرنا اليها من الزوايا التي احيطت بها هذه التضحية . فابراهيم الحريص على ذرية والذي رُزِق بعد لأي بولد وهو في سن الشيخوخة، هذا الولد الذي هو مهجة قلبه، وامل حياته، ووارث اسمه ، يأمره الله ان يضحى به ليمتحن ايمانه ويرى مبلغ استجابته لأمره ،

ودرجة طاعته . حدّث ابراهيم ابنه في هذا الشأن الخطر ويكاد قلبه ينخلع من الحزن فيجيبه اسماعيل بقوله : (يا ابتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) .

ان القلم ليعجز عن وصف مضمون هذا القول الذي يتمثل في الرضى التام بتضحية النفس في سبيل الله .

تضحية من وجهين : تضحية الوالد بولده ، وتضحية الابن بنفسه .

هذه هي ارفع صور الايمان واجلها في تاريخ الانسانية ، فليس الايمان ادعاءات تلوكها الألسن ، وليس الايمان تسلية للأحزان لفترة ما ، وليس الايمان نظرية من النظريات يغوص العقل في كشف خفاياها ، بل الايمان هو الاندماج الكلي في ارادة الله التي تتركز في العمل بوصاياه واوامره والتضحية بكل غال ونفيس في سبيله .

ما احوجنا الى هذا الدرس في هذا الزمن الذي اصبح فيه المال والولد والمرأة تستأثر بحب الانسان الذي يؤثرها على كل شيء حتى اصبحت معبودات له من دون الله . وما احقر الانسان إذا تعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية وترك الحقيقة الخالدة التي هي سبب وجوده ومصدر استمرار حياته .

عبادة الأصنـــام واشباهها

صيحة اهتزت لها بابل اطلقها ابراهيم منذ سبعة وثلاثين قرناً تقريباً على عبادة الأصنام ، صيحة لا يزال يرن صداها في كل عصر وفي كل بيئة ، لأن عبادة الأصنام تلك العبادة الحقيرة التي فيها امتهان للعقل البشري والتي هي وليدة الخرافات والأوهام والأباطيل ، لا تزال آثارها عالقة في النفس البشرية في القرن العشرين عصر العلم والنور .

فلا تزال بعض الديانات في العالم تقيم الأصنام رمزاً لمقدساتها الكثيرة ابتداء من الاجرام السماوية الى حيوانات الحقل وطيور السماء وانتهـــاء

بالقردة والأفاعي والفيلة والبقر.

ولكن ما هو تعليل استمرار عبادة الأصنام الى هذا الزمن الذي بلغ العقل الانساني فيه رشده ؟ إذا اردنا ان نكشف عن الاسباب الكامنة والدوافع التي تملي على الانسان عبادة الأصنام لرأينا ذلك يرجع الى عامل التقليد للآباء والقرآن يثبت ذلك في صراحة منذ ثلاثة عشر قرناً عندما يتحدث عن عصر ابراهيم الذي فشت فيه عبادة الأصنام وعن ما يتعلل به القوم آنذاك لعبادتهم لها ، قــال تعالى :

(واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون. او ينفعونكم او يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) الشعراء : ٦٩ ــ ٧٤.

ان جواب قوم ابراهيم بأن عبادتهم للأصنام إنما هو بداعي التقليد للآباء لا لسبب آخر هو اعتراف ضمني بأن اصنامهم لا تنفع ولا تضر .

ويذكر القرآن تعليلاً آخر لعبادتهم الأصنام :

(وقال : انما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا) العنكبوت : ٢٦ .

فابراهيم يقول لقومه : انما اتخذتم الأوثان من دون الله لا اعتقاداً ولا اقتناعاً بل مجاملة بعضكم لبعض استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق ، وان هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد .

والانسان المتمدن اليوم قد استحدث انواعاً من الأصنام الرمزية توجه اليها بالعبادة من دون الله ، من هذه الأصنام : (عبادة الشخصية)... وهم الزعماء والرؤساء الذين صاغتهم القوة والسلطة والدعاية معبودات دون الله ونسجت حولهم اوهاماً واساطير جعلتهم في مصاف الاله وجعلت كلامهم حقائق لا مجال لنقضها .

ومن الأصنام التي صنعها الانسان عبادة (الأمة) كما فعل النازيون عندما اعتبروا الأمة مصدراً مطلقاً للقيم واعطوا لها الولاء الأول ، واتخذوا لها شعاراً منافياً للحق والعدالة الانسانية (المانيا فوق الجميع) مما سبب الحرب العالمية الثانية التي ذهب ضحيتها ما يقارب سبعين مليوناً من البشر .

فللوطن قيمته. ولكنه ليس القيمة المطلقة والغاية القصوى . فالهدف الأسمى الذي يجب ان يسعى اليه الانسان هو عبادة الله وحده والوقوف عند وصاياه التي تأمر باحترام الانسان ومحبته ومعاملته بالعدل والحق بصرف النظر عن جنسيته ولونه .

الباب الثالث

قصة يوسف عليه السلام

- يوسف وكيد إخوته
- يوسف وغواية المرأة
- يوسف في السجن
- يوسف وزير الملك
- تعرف يوسف على إخوته
- لقاء يعقوب ويوسف
- دروس وعبر من قصة يوسف

الفصل الأول

يوسف وكيد اخوته

رؤيا يوسف – تدبير المؤامرة على يوسف – يوسف في البئر – إنقاذ يوسف وبيعه الى وزير الملك .

رؤيـا يوسف

كان لنبي الله يعقوب اثنا عشر ولداً[1] ، وكان احبهم اليه واقربهم الى قلبه يوسف . ويقص علينا القرآن الكريم ان يوسف رأى في منامه احد عشر كوكباً والشمس والقمر قد سجدوا له خاضعين . فلما اصبح قص على ابيه عجيب ما رأى ، فأدرك يعقوب من هذه الرؤيا ان ابنه سيكون له شأن عند الله والناس ، لكنه خشي عليه من حسد اخوته ، فأوصاه ان لا يقصص على اخوته رؤياه ، لئلا يغريهم الشيطان بتدبير المؤامرات للايقاع به ، ثم بيّن له بأنه سيكون في مستقبل أيامه سيداً مطاعاً ، وان الله سيصطفيه

(١) اولاد يعقوب هم : (١) رأوبين (٢) شمعون (٣) لاوى (٤) يهوذا (٥) ويساكر (٦) زبولون ، وهؤلاء من ليئة بنت خاله لابان – (٧) يوسف (٨) بنيامين ، من راحيل بنت خاله لابان – (٩) دان (١٠) نفتالى ، من بلها جارية راحيل – (١١) جاد (١٢) اشير ، من زلفا جارية ليئة .

بالنبوة ، ويعلمه تفسير الرؤى ، وسيتم نعمته عليه بالخير والرحمة والبركات وعلى آل يعقوب كما اتمها من قبل على ابراهيم واسحق . اقرأوا هذه الآيات :

(إذ قالَ يوسُفُ لأبيه: يا أبتِ إني رأيتُ أحَدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين . قال يا بُنيّ لا تقصُص رُؤياك على إخوتكَ فيكيدوا لك كيداً إنّ الشيطان للانسان عدوٌ مبين . وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمُكَ من تأويل الأحاديثِ [1] ويُتمُ نِعمتَهُ عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق إنّ ربك عليمٌ حكيمٌ . لقد كان في يُوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين) [2].

تدبير المؤامرة على يوسف

رأى أبناء يعقوب من ايثار ومحبة ابيهم ليوسف واخيه الشقيق بنيامين ما لم يكن لواحد منهم فغاظهم ذلك ، وهم حسب زعمهم عصبة قوية تقدم من الخير والمنفعة لأبيها اكثر منهما ، فأبوهم نتيجة لذلك — حسب زعمهم — في خطأ وبعد عن الحق والصواب بإيثاره يوسف واخاه .

اضمروا ليوسف الشر وائتمروا فيما بينهم للخلاص منه ، إمّا بقتله او بالقائه في أرض بعيدة بحيث لا يهتدي للعودة الى ابيه سبيلا ، هذا إن سلم فيها من الهلاك ، وظنوا انهم بهذا العمل يستأثرون بحب والدهم خالصاً من المنافسة ثم يتوبون بعد عملهم هذا ويكونون قوماً صالحين ، فيقبل الله توبتهم ، كما يقبل ابوهم إعتذارهم .

أشار احد الاخوة بأن لا يقتلوا يوسف بل يلقوه بعيداً عن العيون في اغوار بئر ، فلعل قافلة تلتقطه منه وتحمله معها ، وبذلك يتحقق لهم غرضهم

---

١ — تأويل الأحاديث : التأويل بيان السبب والعلة . والأحاديث تشمل ما يحدث في اليقظة او في المنام اما في اليقظة فيشمل تفهم مرامي الكتب السماوية وكلام الناس والشرائع والقوانين .

٢ — آيات للسائلين : أي لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها وما تحمل من عبر وعظات .

من اقصائه عن ابيه ، وينجون من إثم القتل ، وعلى هذا استقر رأيهم .

ذهبوا الى ابيهم وراحوا يحتالون لأخذ يوسف معهم بعد ان شعروا أن اباه يبعده عنهم ، فقالوا له : يا ابانا ما الذي رابك منا حتى تبعد يوسف عنا ولا تشعر بالطمأنينة إذا كان معنا ؛ نحن نؤكد لك أننا نحبه ونشفق عليه ، أرسله معنا الى المراعي غداً ليلعب ويمرح ويتمتع بالأكل والشرب مثلنا ، واننا لحريصون على المحافظة عليه حرصنا على انفسنا ، فأجابهم والدهم المفرط في حب ولده بأنه يحزنه ان يبتعد عنه يوسف ويخاف إذا أمنهم عليه أن يأكله الذئب وهم في غفلة عنه ، فأقسموا لأبيهم بأنه لن يحصل له ما يكره ، واي مكروه يحدث له يصيبهم عاره ولذلك فهم حريصون على يوسف حرص ابيه عليه إن لم يكن اشد حتى لا يظهروا امام الناس بمظهر الجماعة الفاشلة الخائبة . قال الله تعالى :

(إذ قالوا ليوسف واخوهُ أحبّ الى ابينا منّا ونحن عصبة [1] إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسُفَ أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وَجْهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابَة الجُبِّ يلتقطْهُ بعض السيّارة [2] إن كنتم فاعلين . قالوا يا ابانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا لـه لناصحون [3] ، أرسلْهُ معنا غداً يرتعْ [4] ويلعبْ وإنّا له لحافظون . قال إني ليحزُنني أن تَذهبوا به وأخاف ان يأكُلَهُ الذئب وانتم عنه غافلون . قالوا لَئِن اكلَهُ الذئبُ ونحن عُصبة إنّا إذاً لخاسرون) .

يوسف في البئر

أذن يعقوب لأولاده باصطحاب يوسف معهم ، وخرجوا به فألقوه

---

١ – عصبة : جماعة .

٢ – السيارة : الذين يسيرون في الطريق .

٣ – نصحت له : اخلصت له العمل و القول .

٤ – يرتع : التوسع في الأكل و الشرب و التنعم .

في البئر حسب الخطة المرسومة التي اتفقوا عليها فيما بينهم ، وحينئذ قذف الله في روعه بأنه سيخلصه مما هو فيه ، وسيأتي يوم يخبر فيه اخوته بما فعلوه به وهم ماثلون امامه محتاجون له لا يخطر ببالهم انه يوسف لعلو شأنه .

رجع اخوة يوسف في المساء يظهرون الحزن ويرفعون اصواتهم بالبكاء ، فقالوا : يا ابانا مضينا نتسابق في الرمي والجري وتركنا يوسف عند متاعنا ليحرسه فأكله الذئب ، ونحن بعيدون عنه ، وانك لن تؤمن بصدق اقوالنا لاتهامك ايانا بكرهه ولو كان ما نقوله الحق والصدق ؛ وابرزوا له قميص يوسف وقد تلوث بالدم ، ولكن عند معاينته تبين له كذبهم وأن هذا الدم ليس من ولده لعدم تمزق القميص، او لعل فراسته فيهم كشفت له كذبهم فقال لهم : لقد سهلت لكم انفسكم امراً خطيراً فأقدمتم عليه وإني على فراقه لصابر صبراً جميلا لا يصحبه جزع ولا يأس ، والله وحده اطلب منه العون على كشف حقيقة ما تصفون ، وتحمل البلاء على فراقه ، قال تعالى :

(فلمّا ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابَة الجُبّ واوحينا إليه لتُنبِئنّهمُ بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أَباهُمْ عِشَاءً يبكون . قالوا : يا أبانا إنّا ذهبنا نسْتَبِقُ وتركنا يوسُف عِندَ متاعِنا فأكَلَهُ الذئبُ وما أنت بمؤمِنٍ لنا ولو كُنّا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذِبٍ ، قال : بل سوَّلَتْ لكم انفسكم امْراً فصبرٌ جميلٌ ، والله المُسْتعانُ على ما تصفون) .

انقاذ يوسف وبيعه الى وزير الملك

ومرت امام البئر قافلة تقصد مصر فأرسلوا احدهم ليأتي لهم بالماء من من البئر فلما أدلى دلوه تعلق به يوسف حتى خرج من البئر . فرح به هذا الرجل فرحاً شديداً وأتى به الى رفقائه يعلن ابتهاجه قائلاً : يا للخبر السار هذا غلام . فأخفاه هؤلاء بين امتعتهم وجعلوه من بضائعهم التي يرغبون في بيعها .

باع أصحاب القافلة يوسف في مصر بدراهم قليلة للتخلص منه خشية ان يدركهم أهله فينتزعوه منهم ، وكان الذي اشتراه وزير الملك [1] فأرسله الى بيته وأوصى امرأته زليخا به خيراً وقال لها : احسني معاملته واكرميه حتى تطيب له الاقامة معنا لعله ينفعنا او نتبناه ونتخذه ولداً .

وكما جعل الله ليوسف مقاماً كريماً في منزل وزير الملك ، جعل الله له ايضاً تصرفاً في ممتلكات الوزير ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، وألهمه تفسير الروئى ، والله قادر على تنفيذ كل امر يريده ولكن اكثر الناس لا يعلمون خفايا حكمته .

ولما ترعرع يوسف وبلغ اقصى قوته وهي مرحلة الشباب ، اعطاه الله حكماً صائباً وعلماً نافعاً ومثل هذا الجزاء يثيب الله به المحسنين . اقرأوا هذه الآيات :

(وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلْوَه . قال: يا بُشرى هذا غلام واسرّوه [2] بِضَاعةً والله عليم بما يعملون . وَشَرَوْهُ [3] بِثَمَنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراهُ من مِصرَ لامرأتِهِ أكرمي مثواهُ [4] عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الارض ولنعلّمَهُ من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على امره ولكن اكثر الناسِ لا يعلمون . ولما بَلَغَ اشدّهُ واستوى آتيناهُ حكماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين) .

---

١ — المسمى « فوطيفار » هو العزيز الذي كان على خزائن مصر في عهد احد ملوك الهكسوس .

٢ — اسروه : اخفوه .

٣ — شروه : باعوه بعد اشتروه . قال تعالى (ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون) أي باعوها . وقال تعالى : (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) اي يبيعها ويبذلها في الجهاد.

٤ — المثوى : المقام والمأوى والمنزل ، واكرمي مثواه اجعلي منزله ومقامه كريماً عندنا .

الفصل الثاني

يوسف وغواية المرأة

امرأة العزيز تغري يوسف — يوسف والنسوة .

امرأة العزيز تغـــري يوسف

كانت منّة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سبباً لمحنته وذلك ان زليخا امرأة العزيز (وزير الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطرمت مشاعرها ، ولما كان هو فتاها ورهين اشارتها هان عليها ما ينتابها من الشوق والحب . وقد كانت غادة في مقتبل العمر جميلة الطلعة .

لبثت وقتاً تتردد في اظهار شعورها نحو يوسف الى ان غلب الحب عواطفها واستحوذ الضعف الطبيعي على مشاعرها فانتهزت فرصة وجوده في بيتها يوماً ، واخذت تغريه بنفسها ليبادلها الحب فعرضت عليه محاسنها ومفاتنها — بعد ان اوصدت الأبواب — وقالت له : اقبل عليّ فقد هيأت لك نفسي ، فنفر منها يوسف نفرة الغضوب واستنكر منها ذلك الأمر قائلاً : إني الجأ الى الله ليحميني من الإثم ، وكيف ارتكبه وزوجك العزيز سيدي اكرمني واحسن وفادتي انه لا يفوز الذين يبادلون الاحسان بالغدر والخيانة .

ولكن الهوى اعمى قلبها فلم تبال بما قال واصرت ان تخالطه ، ونازعته نفسه اليها ، لولا ان رأى نور الله الحق فاستضاء به فلم يطاوع ميل النفس وامتنع عن المعصية ، وهكذا صرف الله عنه سوء الزنى والخيانة لأنه من عباد الله الذين اخلصوا له .

اسرع يوسف الى الباب يريد الافلات منها ، وأسرعت وراءه لتحول دون خروجه وجذبت قميصه من الخلف لتمنعه من الخروج فتمزق ، لكنه تمكن من الخروج ، وفي هذه الحال وجدا عند الباب زوجها فبادرته بإتهام يوسف بمحاولة اغتصابها وحرضته على سجنه .

ولكن يوسف دفع التهمة عن نفسه قائلاً : بأنها هي التي حاولت ان تخون زوجها وانه امتنع عن الاستجابة لها ، وفيما هما يتبادلان الاتهام حضر الجدال قريب لها فحكم قائلاً : إن كان قميصه شق من أمام فقد صدقت في ادعائها لأن هذا يعني انه كان مندفعاً نحوها وهي تدافع عن نفسها وإن كان قميصه شق من خلف فهذا يعني انه كان يحاول الفرار ، فقد كذبت في قولها وهو من الصادقين . فلما رأى الزوج ان قميص يوسف شق من خلف قال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ، وان مكرهن عظيم .

لكن الزوج رغب في ستر الفضيحة فقال ليوسف : تناس ما جرى لك واكتمه ، وقال لامرأته : استغفري الله لذنبك وتوبي اليه عن الاثم الذي اقترفته انك كنت من الآثمين في عملك هذا . اقرأوا هذه الآيات :

(وراودتْهُ التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لَكَ قال : مَعَاذَ الله إنّه ربي [1] أحْسَنَ مثواي إنّهُ لا يفلحُ الظالمون . ولقد همّتْ بِهِ وهَمَّ [2] بها لولا أن رأى بُرهانَ ربه كذلك لنصْرِفَ

---

١ – انه ربي : قيل فيها تفسيران : الأول انه سيده وهو عزيز مصر ، وقيل المقصود بذلك الله تعالى .

٢ – ولقد همت به وهم بها : للعلماء في هذا الموضوع آراء منها : اي لقد همت به ليفعل بها ولولا ان رأى برهان ربه وتذكر جلاله وامره ومراقبته لهم بها وفعل ، أي رؤية البرهان منعت الهم . –

عنه السوءَ والفحشاءَ إنهُ من عبـادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصَهُ من دُبُرٍ وألفيا سيّدها لدى الباب ، قالت: ما جزاءُ من أرادَ بأهلكَ سوءاً إلاّ أن يُسجنَ او عذابٌ أليم . قال: هي راودتني عن نفسي ، وشهدَ شاهدٌ من أهْلها إن كان قميصُهُ قُدّ من قُبُلٍ فصَدَقَت وهو منَ الكاذبين . وإن كان قميصُهُ قُدّ من دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهو من الصادقين . فلمّا رأى قميصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ قال: إنه من كيدكُنَّ ، إنّ كيْدَكُنّ عظيم. يوسف أعْرِضْ عن هذا واستغفري لِذَنبكِ إنّكِ كُنتِ من الخاطئين)

يوسف والنسوة

سرى نبأ حادثة الاغراء الى جماعة من النساء في المدينة وتناقلنه في مجتمعاتهن قائلات : إن امرأة العزيز أغرت خادمها وراودته عن نفسه ليطيعها فيما تريده منه ، وقد خالط حبه شغاف قلبها حتى وصل الى صميمه ، انها بمسلكها معه في ضلال وبعد عن الصواب .

وصل الى سمع امرأة العزيز اغتياب هؤلاء النسوة وسوء كلامهن فقررت ان تريهن يوسف ليلتمسن العذر لها في هواها ، فاستضافتهن يوماً ، وهيأت لهن مكاناً وثيراً يجلسن فيه متكئات على الوسائد زيادة في الرفاهية والاكرام كما هي عادة المترفين . وبعد ان استقرّ المقام بالمدعوات امرت جواريها باعداد الطعام واعطت كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتقطع بها جرياً على العادة من وضع السكاكين على المائدة لقطع اللحم والفاكهة ثم شرعن يأكلن وانشأن يتبادلن الأحاديث في سرور وضحك ، وفي هذه الأثناء أمرت يوسف ان يخرج اليهن فكان صدمة لهن إذ بهرهن جماله الرائع فجرحن ايديهن من فرط الدهشة والذهول من مرآه وهن يقطعن

= والرأي الآخر : انه هم بها بدواعي الطبيعة ثم جاء الكف والمنع من وقوع المعصية برؤية البرهان. والمراد ببرهان ربه اي مراقبة الله تعالى وتجليه عليه بالعصمة . ويقول الشيخ محيي الدين بن العربي : (همت به) جلباً (وهم بها) دفعاً. ويقول العلامة ابن حزم (همت به) قتلا (وهم بها) كذلك.

طعامهن ، وانشغلن بارتشاف حسنه عن الم جراحهن ، فأكبرن هذا الجمال الذي هو فوق مستوى البشر وقلن ما هذا بشر إن هو إلاّ ملك كريم بجمال ذاته وكمال صفاته .

ولما رأت امرأة العزيز ان المدعوات شاركنها في اعجابها به حينئذ باحت لهن بمكنون فؤادها قائلة : هذا هو الفتى الذي عاتبتموني في حبه ، لقد بهركن حسنه واذهلكن عن انفسكن حتى حصل لكنّ ما حصل . هذا هو الفتى الذي حاولت اغراءه فامتنع ، واقسم لكن إن لم يفعل ما آمره ليعاقبن بالسجن ليكون من الأذلاء المهينين .

ولكن يوسف امام هذا التهديد والوعيد لم يلن ، كما انه لم يلق أذناً صاغية لنصح النسوة فلجأ الى ربه مناجياً إياه بأنه يفضل السجن على معصيته ، ثم دعا ربه ان يصرف عنه شر مكرهن وكيدهن لئلاّ يميل الى رغباتهن ويكون من السفهاء الطائشين ، فاستجاب الله له فصرف عنه المعصية إنه وحده السميع لدعوات الملتجئين اليه . قال تعالى :

(وقال نسوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز تُرَاوِدُ فتَاها عن نفسه ، قد شغَفَها حبّاً [1] إنّا لنراها في ضلال مبين . فلما سَمِعت بمكرِهِنَّ أرسلَتْ إليهنَّ وأعتدت [2] لهُنَّ متكئاً وآتتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سكيناً ، وقالت : أخرُج عليهنّ ، فلما رأينَهُ اكبرْنهُ وقطّعْنَ أيديهن وقلْنَ : حاش لله ! ما هذا بشراً، إن هذا إلاّ ملَكٌ كريم . قالت : فذلكُنّ الذي لمتُنّني فيه، ولقد راودتهُ عن نفسه فاستعصم [3] ، ولئِن لم يفعل ما آمُرُه ليُسجنَنَّ وليكونا من الصاغرين [4] . قال : ربّ ، السجنُ أحبّ اليَّ مِمّا يدعونني إليه ، وإلاّ تصرف عني كيدهُنَّ أصْبُ اليهِنّ واكُنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربُهُ فصرف عنه كيدَهن ، إنه هو السميعُ العليم) .

١ – شغفها حباً : اي خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد .

٢ – اعتدت : هيأت .

٣ – استعصم : امتنع طالباً العصمة .

٤ – الصاغرين : الأذلاء .

الفصل الثالث

يوسف في السجن

إلصاق التهمة بيوسف وسجنه – يوسف يدعو الى عبادة الله وحده – يوسف يفسر منامي صاحبيه .

الصاق التهمـــة بيوسف وسجنه

ولما فشت أخبار امرأة العزيز مع يوسف في أرجاء المدينة ، رأى العزيز وآله انه لا يخلصهم من العار ولا يكف ألسنة السوء عنهم إلاّ زج يوسف في السجن لالصاق التهمة به ، رغم انه اتضحت لهم براءته وأمانته وعفته .

وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن فلأنه سُجِنَ ظلماً ، وما سينجم عن ذلك من سمعة سيئة عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وأمّا فرحه فلخروجه من بيت سيده العزيز وابتعاده عن المكر والفتنة . ولكن السجن كان فاتحة خير له (ورب محنة ضمنها منحة) فقد صادف ان دخل معه الى السجن فتيان من خدم الملك وهما : رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين « ملحب » بتهمة المؤامرة على الملك . وبعد زمن رأى كل منهما رؤيا قصها على يوسف ، فقال الأول : لقد رأيت

في منامي أني اعصر عنباً لأصنعه خمراً ، وقال الآخر : لقد حلمت اني احمل فوق رأسي خبزاً تأكل منه الطير .

طلب هذان الفتيان من يوسف تفسير هذين الحلمين وذلك بعد أن لمسا فيه العلم بتفسير الرؤى وما اتصف به من التقى والاحسان .

فقال لهما يوسف مؤكداً نعمة تعبير الرؤى التي خصه الله بها ومعترفاً بنعمة اخرى هي علم المغيبات بما يوحي الله إليه ، فهو مثلاً يستطيع ان يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحمل اليهما في السجن ليطعماه ، فهذه الأمور الغيبية خصه الله بها لأنه اخلص له العبادة ورفض ان يشرك به ، ولأنه تجنب دين القوم الذين لا يؤمنون بوجود الله ويكفرون باليوم الآخر . اقرأوا هذه الآيات :

(ثُمَّ بَدَا لهم من بَعدِ ما رَأوا الآيات : لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حين . وَدَخَلَ مَعَهُ السجنَ فتيَان ، قال أحَدُهُما : إني أراني أعْصُر خمراً ، وقال الآخرُ : إني أراني أحْمِلُ فوق رأسي خُبْزاً تأكلُ الطير مِنهُ نبّئنا بتأويله إنّا نَرَاكَ من المحسنين . قال : لا يأتيكُما طعامٌ تُرزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيَكُمَا ، ذلكُما مِمّا علمني ربي ، إني تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرةِ هم كافرون) .

يوسف يدعو إلى عبادة الله وحده

اغتنم يوسف فرصة اعجاب السجناء به ، واحترامهم له لما ينبئهم من تأويل الرؤى ، وما يعلمهم به من بعض أنباء الغيب ، فراح يكشف لهم عن هويته بأنه عريق النسب ، وأخذ يعظهم ويدعوهم الى دين الله الواحد الأحد مبيناً بطلان الاشراك الذي لا يرتكز على دليل او برهان .

اخذ يوسف يقول لهم : إني لم ابتدع ديناً وانما اتبعت ملة آبائي واجدادي ابراهيم واسحق ويعقوب الذين هداهم الله الى العقيدة الصحيحة ألا وهي عبادة الله وحده ، وهذا ما تفضّل به الله علينا وتفضّل على الناس

حين ارسلنا اليهم لنهديهم الى الدين الصحيح ولكن اكثر الناس لا يتلقون هذا الفضل بالشكر والايمان بل بالكفر والجحود .

ثم استمر يوسف في مخاطبة صاحبيه قائلاً : أأرباب شتى يخضع المرء لكل واحد منها خير ام الواحد الذي لا يغالب ؟ ما تعبدون غير الله إلاّ اسماء اطلقتموها انتم وآباؤكم على اوهام وخيالات لا وجود لها ، وليس لكم في عبادتها حجة او برهان عقلي يطمئن اليه من يعبدها من دون الله ، والحكم الفصل فيمن هو الاله الحق وما يصح ان يُعبد ، ليس إلاّ لله وحده ، أمرَ ألاّ تخضعوا لغيره ، هذا هو الدين الحق القويم الذي تهدي اليه الأدلة والبراهين ، ولكن اكثر الناس لا يسترشدون بهذه الأدلة ، ولا يعلمون هذه الحقيقة الساطعة . قال تعالى :

(واتبعتُ مِلّة آبائي : إبراهيم واسحق ويعقوب ما كان منا ان نُشرِكَ بالله من شيء ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الله علينا وعلى الناس ولكن أكثرَ الناس لا يشكرون . يا صاحِبي السجنِ أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار . ما تعبدون من دُونه إلاّ اسماءً سمّيتموها أنتُم وآباؤكم ما أنْزَلَ الله بها مِنْ سُلطان[1] إن الحُكمُ إلاّ لله ، أمَرَ ألاّ تعبدوا إلاّ إياه ذلك الدين القيّمُ ، ولكن اكثرَ الناس لا يعلمون) .

يوسف يفسّر منامي صاحبيه

لما أتم يوسف عظته لصاحبيه ، طفق يجيبهما عما سألاه من تفسير حلميهما ، فقال : اما أحدكما وهو انت يا رئيس السقاة فطب نفساً وقرّ عيناً فإني أزف لك البشرى بابقاء الملك على حياتك ، لظهور براءة ساحتك من المؤامرة التي اتهمت بها ، فإنه سيفرج عنك وترجع ساقي الملك كما كنت سابقاً .

واما انت يا رئيس الخبازين فاعذرني إن صارحتك في تعبير رؤياك لتكون

---

١ – السلطان : الحجة والبينة والبرهان .

على بينة من أمرك إذ سيحكم عليك الملك بإزهـــاق روحك ، وستصلب وتأتي الطير لتأكل من رأسك ، ذلك لأنه سيتبين اشتراكك في المؤامرة على حياة الملك . ثم تابع يوسف كلامه لهما : هكذا قضى الله امره على الوجه الذي بينته فهو امر لا مندوحة ان يقع ، فإني لا أرمي القول جزافاً ولكني اتكلم كما ألهمني ربي تفسير حلميكما .

وقد صدق يوسف في تفسير حلميهما وكل ما اخبرهما به قد تحقق بعد أيام قليلة .

ولما كان رئيس السقاة على وشك الخروج من السجن والمثول بين يدي الملك أدلى يوسف برجائه اليه أن يذكر قصته عند الملك ، وما وقع له من حيف وظلم عسى ان يعيد التحقيق في أمره لتظهر له براءته الثابتة فيرفع عنه ما لحق به من ظلم وحيف بغير حق .

ولكن الفرح الذي لا يوصف لرئيس السقّاة ومشاغله أنْسَته ان يذكر يوسف عند الملك ، وهذه طبيعة في كثير من الناس إذ ينسون اصدقاءهم عند حلول الرخاء والغنى ، وكان من جراء هذا النسيان ان مكث يوسف في السجن سنين لا تقل عن ثلاث . اقرأوا هذه الآيات :

(يا صاحبَيِ السجن أمّا احدُكما فيسقي ربّهُ خمراً ، وأمّا الآخر فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ مِنْ رأسه، قُضِيَ الأمْرُ الذي فيه تستفتيان . وقال للذي ظنّ انه ناجٍ منهما : اذكرني عند ربّك ، فأنساهُ الشيطانُ ذِكْرَ ربه فَلَبِثَ في السجن بِضع [1] سنين) .

---

١ – البضع ما بين الثلاث الى التسع سنين .

الفصل الرابع

يوسف وزير الملك

رؤيا الملك – رئيس السقاة عند يوسف – يوسف يفسر رؤيا الملك – التحقيق في المؤامرة – إنعام الملك على يوسف بوزارة المال .

رؤيــا الملك

بعد تلك السنين التي قضاها يوسف في السجن شاءت العناية الالهية ان يخرج يوسف من سجنه ، ويتربع في اعلى المناصب الدنيوية ، وإذا اراد الله شيئاً هيأ له الأسباب .

فقد رأى الملك [1] في منامه رؤيا أثارت اضطرابه واوجس منها خيفة فجمع الملك الكهنة والحكماء وقال لهم : إني رأيت في منامي سبع بقرات سمينات تأكلهن سبع بقرات هزيلات نحيلات ، ورأيت ايضاً سبع سنابل خضراء وسبع سنابل يابسة ، فيا أيها القوم بينوا لي تأويل تلك الرؤيا إن كنتم

١ – هذا الملك من الأجانب الذين غزوا مصر والذين أطلق عليهم اسم الهكسوس ومعناه (الملوك الرعاة) فبعض المؤرخين يعتبرهم عرباً والبعض الآخر يعتبرهم فينيقيين .

تستطيعون تفسيرها وبيان ما ترمي اليه .

فوجىء القوم برؤيا الملك وظهر ارتباكهم ، وتشاوروا فيما بينهم ثم اجابوه إجابة يتنصلون بها من جهلهم بأن هذه الرؤيا لا يُعوّل عليها في تصاريف الأيام بل هي اخلاط أحلام باطلة ، أثارتها هواجس الملك ، وهي لا تدل على شيء ثم انهم فوق ذلك لا علم لهم بتأويل الأحلام .

اقرأوا هذه الآيات :

(وقال الملكُ : إنّي أرى سَبْعَ بقراتٍ سِمان يأكُلُهنّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وسَبْعَ سُنبُلات خُضْرٍ وأُخرَ يابسات ، يا أيّها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تَعْبُرُون . قالوا : أضغاثُ أحلامٍ ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) .

رئيس السقاة عند يوسف

سمع رئيس السقاة سؤال الملك وجواب الكهنة والحاشية الذي ينم عن جهل بتفسير الروى ، وأثار هذا المشهد ذكريات الماضي في نفسه وإذا صورة يوسف تتراءى امام عينيه وإذا براعة يوسف في تفسير الروى تنجلي تلقاء خاطره فانبرى امام هذا الجمع قائلاً : انا استطيع ان انبئكم بتعبير هذه الرؤيا ، فإن في السجن فتى يُقال له يوسف ؛ كنا سجينين معه أنا ورئيس الخبازين ، وكان كلانا قد رأى حلماً فسّره لنا يوسف وصدق في تفسيره وتحقق تماماً ، فإن رأى جلالة الملك ان يُرسلني اليه فسآتيه بالنبأ اليقين عن تفسير هذه الرؤيا ، فوافق الملك ومن حوله على طلبه وارسلوه الى يوسف .

ذهب رئيس السقاة الى يوسف في سجنه واجتمع به بعد هذه المدة الطويلة من فراقه للسجن ، وكأني به وقد اخبره بما جرى له من احداث ادت الى نسيانه إثارة قضيته امام الملك ، ثم طفق يبين له الغاية من الاجتماع به

قائلا : ايها الصادق في كل ما حدثتني به فيما مضى فسّر لي حلماً رآه أناس وهو : ان سبع بقرات سمان يأكلهن سبع هزيلات ، وسبع سنابل خضراء تجاور سبعاً يابسة ، افتني يا يوسف بحقيقة هذه الروٌيا لأخبرها لأصحابها لعلهم يعلمون فضلك ومكانتك من العلم . اقرأوا هذه الآيات :

(وقال الذي نجا منهما وادّكَرَ بعد أمّةٍ [1] : أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون . يوسف ايها الصدّيق ، افتنا في سبع بقراتٍ سِمان يأكلُهن سبعٌ عِجَافٌ [2] وسَبْعِ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ لعلي أرجعُ الى الناس لعلهم يعلمون)

يوسف يفسر روٌيا الملك

شرع يوسف في تفسير روٌيا الملك وكانت تحمل في طيّاتها نزول الكوارث والفواجع فلم يكتفِ بما تدل عليه الروٌيا من كوارث ستقع بل وصف الحلول الناجعة للخروج من الأزمة الخانقة التي ستعانيها مصر . فها هو يوسف يقول لرئيس السقاة : إن مصر سيأتي عليها سبع سنوات خصبة فعليكم ان تزرعوا ارضكم قمحاً وشعيراً وتواظبوا على زرعها عاماً بعد عام فما تحصدونه ادخروه في سنابله ولا تفرطوا فيه وقتّروا على انفسكم فلا تخرجوا منه إلاّ القليل مما يقيم اودكم ، ثم تأتي بعد هذه السنوات المخصبة سبع سنين مجدبة تستهلكون فيها ما ادخرتم ولا تبقون منه إلاّ القليل ليكون بذراً لما تزرعونه . وبعد هذه السنين المجدبة تأتي سنة خصبة يُغاث فيها الناس بالمطر وتجود الأرض بالغلات الوفيرة مما يتخذ زاداً ، وعصيراً كالعنب والزيتون . قال تعالى:

(قال : تزرعونَ سَبْعَ سنين دَأباً فما حصدتم فَذَروه في سُنبُله [3] ،

---

١ – ادكر بعد امة : تذكر بعد مدة طويلة .

٢ – عجاف : جمع عجفاء والعجف الهزال الذي ليس بعده.

٣ – فذروه في سنبله : تتفق هذه الآية مع ما وصل اليه العلم الحديث من ان ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات ، وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة . من اين لمحمد هذه الحقائق العلمية التي جاء بها عن ربه ؟ فلم تذكرها التوراة حتى يقال انه اقتبسها منها ، انها لمعجزة علمية للقرآن تدل على صدق نبوته .

إلاّ قليلاً مِمّا تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلكَ سَبْعٌ شِدادٌ يأكُلْنَ ما قَدَّمتم لَهُنَّ إلاّ قليلاً مِمّا تُحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصِرون) .

التحقيق في المــؤامرة

نقل رئيس السقاة الى الملك تفسير الرؤيا فسرّ بها وعلم أن تأويلها ينسجم مع رؤياه مما يدل على رجاحة عقل مفسرها ، فأمر باستدعائه ليستوضحه بعض التفاصيل ، فذهب الرسول الى يوسف يبلغه رغبة الملك ، فلم يتلهف للخروج ، بل أصرّ على البقاء في السجن حتّى ترتفع عنه التهمة التي الصقت به ظلماً ، وطلب من الرسول ان يعود الى الملك ويطلب منه التحقيق في المؤامرة التي حيكت ضده ، ويستجوب النسوة اللاتي حضرن وليمة امرأة العزيز وجرحن ايديهن في تلك الوليمة عن أسباب سجنه ليكن شاهدات في قضيته .

بَلّغَ رسول الملك رسالة يوسف اليه ، فلم يتردد في تحقيق ما طلب ، فأرسل مندوبه اليهن وجمعهن واستوضحهن حقيقة ما يعلمن عن يوسف بحضور امرأة العزيز فقال لهن : ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ هل وجدتن منه ميلاً اليكن ؟ هل تبسم ، وهل داعبكن حتى اقدمتن على مراودته وتجرأتن على مطالبته بما لا ينبغي لامثالكن . فقال النسوة : معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) . عند ذلك رأت زليخا ان من الحكمة والتعقل ان تعترف بالواقع لأنها اذا بقيت مصممة على انكارها شهد عليها هؤلاء النسوة بما اعترفت لهن سابقاً بما جرى لها مع يوسف ، او لعل ضميرها قد استيقظ بعد هذا الاجماع من النسوة على الشهادة بطهره وعفافه فلم تجد بدأً امام هذا الموقف من ان تعترف بالحقيقة بأنها هي التي حاولت اغراءه ، ولكنه صمد امام اغرائها ، وانه لصادق في اتهامه لها . وعللت هذا الاعتراف بأنها ارادت ان تُعلم يوسف بأنها لم تشأ ان تستغل غيبته في السجن لاستمرار

التهمة عالقة وخيانته لأن الله لا ينجح تدبير الخائنين . ثم ارادت الاعتذار عما كان منها بأن النفس تواقة الى الشر إلا من حفظها الله ورعاها والله غفور للتائبين . اقرأوا هذه الآيات :

وقال المَلِكُ : ائتوني به ، فلما جاءهُ الرسولُ قال : إرجع الى ربك ، فأسألْه : ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعن ايديهن؟ ان ربي بكيدهِنّ عليم . قال : ما خطبُكُنّ[1] إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه ! قُلن حاشا لله ، ما علمنا عليه من سُوءٍ ، قالت امرأة العزيز : الآن حَصْحَصَ[2] الحق ، انا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين . ذلك لِيَعْلَمَ أنّي لم أخُنْهُ بالغيب ، وان الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرىءُ نفسي ، إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم) .

انعام الملك على يوسف بوزارة المال

وقف الملك على صحة براءة يوسف وعفته فازداد ثقة به وميلاً اليه خصوصاً وقد آنس منه قبلاً ذكاء وفهماً حين أوّل رؤياه ، والتدبير الذي اقترحه للخروج من الضائقة الاقتصادية التي ستعانيها مصر ، ورأى الملك وهو الاسيوي الجنس انه يوجد بينه وبين يوسف صلة قربى من ناحية الجنس ، كل ذلك ترك اثراً قوياً في نفس الملك حببه فيه حباً جماً فرغب في استخلاصه لنفسه ، فأرسل رسوله للأتيان به .

ذهب الرسول يبلغ يوسف نتيجة التحقيق واعتراف زليخا ببراءته ورغبة الملك في المثول بين يديه للأنعام عليه ، فلم يتردد يوسف من تلبية رغبة الملك ، فمثل بين يديه وكلمه بما جعله يزداد به اعجاباً وتعلقاً . عندئذ قال له الملك بلسان الوعد والتطمين انك يا يوسف ستكون ذا مكانة ومنزلة كريمة عندنا مؤتمناً على كل شيء .

---

١ — ما خطبكن : ما شأنكن .

٢ — حصحص : ظهر وبرز واستقر .

شعر يوسف بهذه المنزلة الكريمة التي اولاه إياها الملك وتصور كل ما سيجري على المصريين في سني القحط فخاف ان يغدر الأقوياء بالضعفاء كما غُدِرَ به ويهانوا كما اهين ، فأحب ان يتولى شؤونهم المستقبلة بنفسه وان يكون هو القائم بخدمتهم ليمنع عنهم الظلم ، فطلب من الملك ان يجعله اميناً على خزائنه لكي يتولى الاشراف على تخزين الغلات وتوفيرها لسني القحط ، لأن هذا الاشراف يحتاج إلى أمانة ودراية وعلم وهذه الأشياء متوفرة لديه وقد لمسها الملك منه .

وافق الملك على ذلك وتولى يوسف امور مصر الاقتصادية كلها وجعل له سلطة في ارض مصر يتصرف فيها كما يريد ، وهذا شأن الله في عباده الصالحين يهب نعمته لمن يختاره منهم ويثيبهم في الدنيا على الاحسان الذي صنعوه ، ثم ان ثواب الله في الآخرة خير من ثواب الدنيا للذين آمنوا وكانوا يتقون ربهم . اقرأوا هذه الآيات :

(وقال الملكُ ائتوني به أستخلِصْهُ لنفسي ، فلمّا كلّمه قال : إنك اليوم لدينا مكينٌ امين . قال : اجعلني على خزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم . وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيثُ يشاءُ نصيب برحمتنا مَنْ نشاء ولا نضيعُ أجْرَ المحسنين . ولأجْرُ الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) .

الفصل الخامس

تعرف يوسف على اخوته

وحيلته لجمع الأسرة في مصر

اخوة يوسف في مصر – رجوع الأخوة الى والدهم يعقوب – يوسف يحتجز أخاه بنيامين – استرحام يوسف .

اخوة يوسف في مصـــر

تحقق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف بتدبيره وخزن الفائض من الغلات ، وجاءت السنون السبع الأخرى المجدبة فحصل جوع وقحط لا سيما في البلاد المجاورة كفلسطين لعدم استعداد اهلها لمثل هذا اليوم .

وقد اصاب يعقوب واولاده كما اصاب غيرهم ضيق شديد في العيش ، وسمع بوجود الخير والرزق في مصر ، فطلب من اولاده – باستثناء بنيامين – ان يذهبوا اليها على أن يأخذوا معهم ما عندهم من بضاعة وفضة وغيرها ليستبدلوا بها القمح والشعير .

وصل اخوة يوسف الى مصر فرأتهم العيون المرصدة ، قادمين بشكل

وعدد يلفت النظر ويثير الريبة فأخذوهم الى يوسف وأدخلوا عليه في قصره ، فعرفهم بملامحهم وكلامهم وازيائهم الخاصة بفلسطين ، اما هم فلم يعرفوه لبعد الشقة وطول مدة الفرقة وتغير شكله ، يضاف الى هذا وجوده في وزارة المال ولباسه الخاص وتكلمه معهم باللغة المصرية القديمة ، وتغير اسمه لأن مليك مصر اطلق على يوسف اسم « صفنات فعينع »[١] .

أنزل يوسف اخوته ضيوفاً عليه وكال لهم القمح والشعير كيلاً زائداً عن حقهم واعطاهم زاداً للطريق وما يحتاج اليه المسافر ، ولما تأهبوا للرحيل قال لهم : (ائتوني بأخ لكم من ابيكم)[٢] فإن لم تحضروا اخاكم فسوف اعرقل مساعيكم ، ولا كيل لكم عندي حينما تعودون لمصر ثانية ، كما اني احذركم ان تدخلوا بلادي غير منفذين ما طلبته منكم .

حينما طلب يوسف من اخوته ذلك . وحذرهم نتيجة عدم اتيانهم بأخيهم من أبيهم خاطبوه قائلين : سنحتال على ابينا لينزل عن ارادته ويسمح لنا باحضاره الى مصر ونؤكد لك أننا سننفذ ما تطلبه منا .

ولما هموا بالرحيل أمر يوسف خدمه بأن يدسوا الثمن الذي احضروه معهم ويضعوه في امتعتهم دون ان يشعروا . اراد يوسف بهذا العمل ان يحمل اخوته — متى رجعوا الى فلسطين وعرفوا حسن صنيعه — على حسن الظن به ، وانه بلغ من الكرم والجود حداً بعيداً ، فيوسف أتى ذلك العمل

---

١ — « صفنات فعينع » كلمتان مصريتان معناهما « طعام الحياة » او « قوت الأحياء » وفسرها آخر « بمخلص العالم » والمعنى على التفسيرين ان يوسف كان علة قوت الأحياء او طعامهم وانقاذهم من الموت بما فعله من خزن الحنطة الى زمن القحط .

٢ — هذه الجملة متى نقلت لابيهم اوقعته في استغراب وجعلته يظن ان لهذا الرجل المصري المتولي على خزائن مصر مغزى في هذا الطلب ، وإلا فمن عرفه ان لهم اخاً من ابيهم وما هي علاقته به وما هي الاسباب التي تدفعه لهذا الطلب ؟ فكأن هذا الطلب من يوسف ما هو إلا برقية (شفره) من يوسف لابيه او لغز لا يحله إلا يعقوب ، يضاف إلى ذلك تجهيز يوسف اخوته بما يلزم لهم في سفرهم وزيادة الكيل لهم بدون ثمن . فيعقوب فهم من هذه الرموز ان ابنه يوسف بمصر بدليل انه قال لأولاده عند زيارتهم لمصر المرة الثالثة (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه) .

ليشجع اخوته على الرجوع اليه وليعرفوا انه يعطف عليهم وانهم يتوقعون منه الكثير من الخير. قال الله تعالى :

(وجَاءَ إخْوَةُ يوسُفَ فدخلوا عليه فعرفهم وهُم لــه مُنكرون . ولما جَهزَهُم بجهَازِهم قال : ائتوني بأخٍ لكم من ابيكم ، ألا تَرَوْنَ أني أوفي[1] الكيل وأنا خيرُ المُنزلين[2] فإن لم تأتوني به فلا كيْلَ لــكم عندي ولا تَقْربون . قالوا سنُراودُ عنه أباه وإنّا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بِضَاعتَهُم في رِحالِهِم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يَرجِعون) .

رجوع الاخــوة الى والدهم يعقوب

عاد اخوة يوسف الى ابيهم بما معهم من موْن وطعام فقصوا عليه ما جرى لهم مع وزير المال ، وما لقوا منه من حفاوة واكرام ، وكيف انه انذرهم بمنع الكيل لهم إذا عــادوا ثانية الى مصر ولم يكن معهم اخوهم بنيامين ، فطلبوا من ابيهم ان يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في الرحلة الثانية للحصول على القوت الذي هم بحاجة اليه ، واكدوا لأبيهم انهم سيرعونه ويحافظون عليه .

ثارت في نفس يعقوب ذكريات الماضي فأجابهم والحسرة تنهش قلبه : هل يكون ائتمانكم على بنيامين كائتمانكم عــلى اخيه يوسف من قبل ، وعدم وفائكم بما تعهدتم به ؟ فالله حسبي في حماية ابني فهو اقوى حافظ وهو ارحم الراحمين .

وكان اخوة يوسف يجهلون ما فعل وزير المال من وضع اموالهم في حقائبهم ، فلما فتحوها وجدوا الأموال ، فتذرعوا بهــا لاستمالة ابيهم للموافقة على ارسال بنيامين معهم لجلب المؤن من مصر ، وطمأنوه بأنهم

---

١ – اوفي : اكثره ازيده .

٢ – المنزلين : المضيفين .

سيحرصون على العناية به وفوق ذلك يزداد قوتهم حمل بعير ، لأن وزير المال رسم ان يُعطي الرجل حمل بعير ولا يزيد على ذلك .

لكن يعقوب اشترط على اولاده حين ارسل بنيامين معهم ان يُعاهدوا الله ان يعيدوه اليه ولا يمنعهم عن ردّه مانع إلاّ ان يهلكوا ، او يحيط بهم عدو يغلبهم عليه ، فاستجابوا له واقسموا بالله على المحافظة عليه .

اطمأن يعقوب الى عهد ابنائه بعد ان رأى الاخلاص ظاهراً في كلامهم فوافق على ارسال بنيامين معهم ثم دفعته الشفقة ان يوصيهم عند دخولهم مصر بأن يدخلوا من ابواب متفرقة لكيلا يلفتوا الانظار عند دخولهم ، ولا ترقبهم الاعين وقد يكون في ذلك ما يسوءهم فهو ليس في قدرته دفع الأذى عنهم فالدافع للأذى هو الله وحده . اقرأوا هذه الآيات .

(فلما رجعوا الى ابيهم قالوا يا أبانا مُنِـعَ مِـنّا الكيل فأرسِـلْ مَعَنا أخانا نكْتَلْ وإنّا لَهُ لحافظون . قال : هل آمَنُكُمْ عليه إلاّ كما أمِنْتُكُم على اخيه من قبْلُ فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين . ولما فتحوا مَتَاعَهُم وجدوا بِضَاعَتَهُم رُدّت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتُنا رُدّت الينا ونميرُ أهلَنا [1] ونحْفَظُ أخانا ونزداد كيْلَ بعير ذلك كيْلٌ يسير . قال : لن أرسلَهُ معكم حتى تؤتونِ موْثِقاً من الله لتأتُنّني به إلاّ ان يُحاط بكم فلما آتوْهُ مَوْثِقهم قال : الله على ما نقول وكيل . وقال يا بنيّ لا تدخلوا من بَاب واحد وادخلوا من ابوابٍ متفرّقة وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحُكْمُ إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمَرَهُمْ أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفسِ يعقوب قضاها وإنه لـذو علم لما علّمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون) .

---

١ – نمير اهلنا : نجلب لأهلنا الطعام .

يوسف يحتجز اخـــاه بنيامين

وصل الإخوة الى مصر ودخلوا على يوسف في ديوانه وبرفقتهم اخوهم بنيامين فاستضافهم ثم انفرد باخيه في عزلة عن باقي اخوته وصارحه بأنه هو يوسف — شقيقه المفقود — ولا تسل عن فرحهما وابتهاجهما بهذا اللقاء المثير. ثم استعرضا الماضي وما كانا يقاسيانه من حقد ومكر اخوتهما، فقال يوسف لأخيه: لا تحزن ولا تتذمر على ما كانوا يعملونه معنا، فقد انعم الله عليّ بالسلطة والجاه وها أنت الآن في كنفي ورعايتي. ثم اظهر يوسف رغبته لأخيــه في استبقائه عنده كتمهيد لاحضار والديه الى مصر، وان الطريقة التي ارتآها هي نسبة السرقة اليه واخذه رقيقاً ليكون بجانبه وآنس لوحدته، فقبل بنيامين بهذه التهمة إرضاء لأخيه، وفي اتهام بنيامين بالسرقة اتهام لهم جميعاً بحيث يذلهم ويخفض من زهوهم تأديباً لهم. كما انه في عمله هذا يوقعهم في مأزق حرج مع ابيهم. ويدخل عليهم الكرب والهم انتقاماً منهم على عملهم السابق معه، فجازى مكرهم بمكر.

جهز يوسف اخوته بمثل ما جهزهم به في المرة الأولى وزادهم حملاً لأخيه بنيامين واخذ بنفسه المكيال الرسمي الذي كانوا يكيلون به ووضعه بين بضاعه اخيه بنيامين.

تفقد اعوان يوسف المكيال فلم يجدوه فهم لم يكيلوا في ذلك الوقت إلاّ لهؤلاء الاخوة فلم يترددوا في اتهامهم بسرقة المكيال فنادى احد اعوان يوسف: ايها الركب قفوا انكم سارقون.

سمع الاخوة النداء فارتاعوا واتجهوا الى المنادين يسألونهم ماذا فقدوا. قال لهم المنادي نبحث عن المكيال الرسمي، وقد وضعت مكافأة لمن يجده وهي حمل جمل من الطعام.

اقسم اخوة يوسف على براءتهم من السرقة والفساد، فقال اعوان يوسف: ما هي عقوبة من اقترف جريمة السرقة؟ ولوثوق ابناء يعقوب من براءتهم

قالوا : إن جزاء من اخذ المكيال ان يؤخذ رقيقاً فهو الجزاء العادل للمذنب الذي اقترف جريمة السرقة ممن احسن اليه . وقد كان هذا جزاء السارق في شريعة آل يعقوب .

اخذ يوسف وأعوانه يفتشون امتعة الأخوة قبل بنيامين حتى لا يظهر أن امر السرقة مدبّر ثم فتشوا امتعة بنيامين واستخرجوا المكيال منها .

رأى الاخوة المكيال فأجفلوا وبهتوا وكان وقع ذلك عليهم وقوع الصاعقة ، وبذلك نجحت حيلة يوسف وحق له بفتوى اخوته ان يحتجز بنيامين ، وهكذا دبّر الله الأمر ليوسف لأنه ما كان في استطاعته اخذ اخيه بموجب شريعة مصر التي تعاقب السارق بمثل ما سرق ، ولكن الله وفقه الى ترتيب الاسباب ليحفظ اخاه عنده ، وهكذا فإن الله يرفع من يشاء في العلم والحكمة والتدبير كما رفع يوسف ، وفوق كل ذي علم من هو اوسع منه علماً وحكمة فلا يغترّ الإنسان بما عنده من علم . قال تعالى :

(ولمّا دَخَلوا على يوسف آوى اليه أخاه ، قال : إني أنا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهّزهم بجَهَازِهم جعل السقاية في رحْلِ اخيه ثُمَّ أذّنَ مُؤَذّنٌ : أيتُها العيرُ إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم : ماذا تفقِدون . قالوا : نفقِدُ صُواع الملِكِ ولِمَنْ جاء به حِمْلُ بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كُنّا سارقين . قالوا : فما جزاؤُهُ إن كنتم كاذبين . قالوا : جــزاؤُهُ : مَنْ وُجِدَ في رحْلِهِ فهو جزاؤُهُ كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وِعاءِ أخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه ، كذلك كِدْنا ليوسف [1] ما كان ليأخُذَ أخاه في دينِ المَلكِ إلاّ أنْ يشاء الله ، نرفَعُ درجاتٍ من نشاء ، وفوق كل ذي علم عليم) .

---

١ – كدنا ليوسف : ففي مقابلة كيدهم ليوسف جازاهم الله على كيدهم بكيد مثله .

استرحـــام يوسف

إن اخراج المكيال الرسمي من امتعة بنيامين اخجلت اخوته فتنصلوا باعتذار يبرىء جماعتهم دونه ويطعنه هو ويوسف فقالوا له : انه ليس عجيباً ان يسرق فقد سرق أخ [1] له شقيق من قبل . فطن يوسف الى طعنهم الخفي فساءه وقال في سره : انتم أسوأ منزلة وأقل قدراً بافترائكم الكذب والله اعلم بكذب ما تدعون .

أليسوا هم السارقين الذين سرقوه من ابيه وألقوه في البئر ؟

ولم يكن بد من محاولة لتخليص بنيامين او افتدائه تنفيذاً للعهد الذي قطعوه على انفسهم امام والدهم يعقوب ، فراحوا يسترحمون قلب يوسف قائلين : إن لهذا الفتى أباً طاعناً في السن وهو متعلق به ، وإذا عدنا دونه فسيكون وقع ذلك اليماً عليه ، وقد عاهدنا الله ان نحافظ عليه فخذ واحداً منا يحل محله واطلق سراحه فما رأينا منك غير الاكرام والاحسان .

فقال يوسف : اعوذ بالله ان أظلم البريء وحاشا لي ان اخالف الحكم الذي تقره شريعتكم بالاسترقاق ، ثم إن شريعة الملك في مصر لا تبيح ان أعاقب بريئاً بجريرة آخر ، ولو فعلت ذلك لكنت من الظالمين .

فلما يئس الاخوة من اقناع يوسف اختلوا بأنفسهم واخذوا يتشاورون في موقفهم مع أبيهم فانتهى الرأي الى اخيهم الأكبر رأوبين الذي قال ما كان ينبغي ان تنسوا ما عاهدتهم الله عليه امام والدكم من انكم ستحافظون على بنيامين وترجعوه اليه سالماً . هذا وقد فرطتم في يوسف من قبل ففجعتم

---

١ – قيل ان راحيل والدة يوسف لما ارتحلت مع يعقوب من بلاد ما بين النهرين قاصدين فلسطين اخذت معها تمثالا صغيراً من ذهب هو خاص بأبيها (لابان) فافتقده أبوها وفتش عنه فلم يجده معها ولا مع غيرها لأنها خبأته في كور الجمل الذي كانت راكبة عليه . ولما وصل يعقوب بأهله الى فلسطين كان ذلك التمثال في يد يوسف يلعب به لأنه يشبه الدمية التي يلعب بها الصبيان فقيل انه سرقه من بيت جده لأمه ، ولكن الحقيقة انه لم يفعل شيئاً من ذلك .

اباكم في اعز اولاده عليه ، امام هذا الأمر المخجل فإني سأبقى في مصر ولن أفارقها إلاّ إذا فهم ابي الوضع على حقيقته وسمح لي بالرجوع اليه ، او قضى الله لي بالرجوع الكريم وهو اعدل الحاكمين ، ثم تابع قائلاً : عودوا الى ابيكم من دوني واخبروه حقيقة ما حدث واعلموه ان ابنه بنيامين سرق المكيال الرسمي فنُفّذ فيه حكم الاسترقاق وقد رأينا ذلك كله رأي العين ولو كنا نعلم الغيب بأن ذلك سيحصل لما اخذناه معنا . وقولوا له : إن كنت في شك مما بلغناك فأرسل رسلاً يأتوك بشهادة من اهل مصر ، واستجوب انت بنفسك رفاقنا الذين عدنا معهم في القافلة ليظهر صدق قولنا . اقرأوا هذه الآيات :

(قالوا : إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ لهُ من قَبْلُ ، فأسرّها يوسف في نفسه وَلَمْ يُبْدِها لَهُم ، قال أنتم شَرّ مكاناً والله أعْلَمُ بما تصفون قالوا : يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فَخُذْ أحَدَنَا مكانَهُ ، إنّا نَراكَ من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخُذَ إلاّ من وَجَدْنا متاعنا عندهُ إنّا إذن لظالمون . فلما استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نجيّاً [1] ، قال كبيرهُم ألمْ تعلموا أنّ اباكُم قد اخَذَ عليكم موْثِقاً مِنَ الله ومِنْ قَبْلُ ما فرّطتُم في يوسُفَ فلن أبْرَحَ الأرضَ حتى يأذَنَ لي ابي او يحكُمَ الله لي ، وهو خير الحاكمين . ارجعوا الى ابيكم فقولوا : يا أبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما عَلِمْنا وما كُنّا للغيب حافظين . واسأل القرية [2] التي كُنّا فيها والعير [3] التي اقبلنا فيها وإنّا لصادقون) .

١ – تأمل بلاغة هذه الجملة (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فاستيأسوا معناها استحكم اليأس في انفسهم ، وخلصوا معناها اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، ونجياً أي مناجين بعضهم بعضاً . فهذه الجملة في منتهى البلاغة واعجاز الايجاز فبكلمات قليلة صورت حالة الأخوة وقد تملكهم اليأس واعتزالهم الناس وتقليبهم الرأي ظهراً لبطن وتدبير الموقف الذي سيجابهون به والدهم . فكلمات هذه الجملة هي كالجوهرة التي لا نظير لها تدل على عظم فصاحة القرآن وجزالة منطقه ، وقل ان تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة كهذه الجملة القرآنية .

٢ – القرية : اي سكان القرية فان العرب تذكر اسم المكان وتريد من فيه .

٣ – العير : اي أصحاب العير ، والعير هي القافلة من الأبل .

الفصل السادس

لقاء يعقوب ويوسف

يعقوب فريسة الأحزان – الأخوة يتعرفون على يوسف – يعقوب يتلقى خبر سلامة يوسف – اللقاء المثير وتحقق رؤيا يوسف .

يعقوب فريسة الاحـــزان

رجع بقية أبناء يعقوب الى ابيهم واخبروه ما حدث فهيج الخبر احزانه وضاعف آلامه لفقد ابنه الثاني ، ولم يصدقهم لأن من عُهِدَ منه الكذب لا يصدّق ولو تكلم بالصدق ، وهو المفجوع بما صنعوا من قبل في يوسف ، وصرّح باتهامهم قائلاً : إن انفسكم زينت لكم ان تتخلصوا من بنيامين كما تخلصتم من اخيه من قبل ، والاّ فما أدرى ذلك الوزير ان السارق يسترق لولا فتواكم ومؤامرتكم على اخيكم ، وتابع قائلاً : امام هذا الأمر لا حيلة لي إلاّ ان اصبر صبراً جميلاً آملاً من الله ان يردّ عليّ جميع ابنائي فهو الذي يحيط علمه بكل شيء وله في كل شيء حكمة .

اعرض يعقوب عن اولاده وقد غمره الحزن ، والأسى يبعث الاسى

الدفين ، فمصيبته ببنيامين ذكرته مصيبته بيوسف فقال : يا حسرتي ويا مصيبتي بيوسف ، وذهب سواد عينيه من شدة الحزن وهو مفعم بالغيظ على اولاده ولكن دون ان يُظهر لهم ما يسوءهم .

وتوالت الأيام ويعقوب مسترسل في احزانه فخشي ابناؤه عليه فقالوا له : إن ذكرى يوسف لتزيد من آلامك واوجاعك الى أن يذيبك الغم فتشرف على الموت .

لم يؤثر قولهم فيه ، فردهم قائلاً : ما شكوت لكم ، انما اشكو ما انا فيه من الحزن والهم الى الله واتضرع اليه وحده واعلم من الله ما لا تعلمون من سعة رحمته .

والثقة في الله تحيي الأمل ولذلك لم يذهب الغم برجاء يعقوب في عودة ولديه اليه وألقي في روعه أنهما من الأحياء فأمر بنيه بأن يرجعوا الى مصر وينضموا الى اخيهم الكبير باحثين عن يوسف وأخيه ولا يقنطوا من رحمة الله ، لأنه لا يقنط من رحمة الله غير الجاحدين ، اقرأوا هذه الآيات :

(قال : بَلْ سوَّلت [1] لكم أنفُسُكُمْ أمْراً فصبْرٌ جميلٌ ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم . وتولّى عنهم وقال يا أسَفَا على يوسف وابيضت عيناهُ من الحُزْنِ [2] فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسُفَ حتى تكونَ حرَضاً [3] او تكون مِنَ الهالكين . قال : إنّما اشكو بثّي [4] وحُزني الى الله [5] واعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنيّ اذهبوا

---

١ – سولت : زينت وسهلت .

٢ – وابيضت عيناه من الحزن : ينشأ عن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين وتحدث الجلوكوما ، او ما يسمى عرفاً « بالمياه الزرقاء » فيزول صفاء القرنية وبريقها ، ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء ، فانظر كيف وصف القرآن حالة يعقوب بما يؤيده العلم ، وما ذلك إلا لأنه وحي إلهي لا من صنع بشر .

٣ – حرضاً : مشرفاً على الهلاك .

٤ – البث : اصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فينشره بين الناس .

٥ – (انما اشكو بثي وحزني الى الله) : انظر انسجام كلمات هذه الآية من سهولة نظمها وعذوبة الفاظها ما يجعل وقعها على النفوس كبيراً وتأثيرها في القلوب بما لا مزيد بعده .

فتحسّسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله[1] إنه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون) .

الاخوة يتعرفون على يوسف

استجاب الاخوة لطلب ابيهم في البحث عن يوسف واخيه فعادوا الى مصر للبحث عنهما وللحصول على القوت الذي هم بحاجة اليه .

دخلوا على يوسف في ديوانه لاسترحامه في سبيل اخلاء بنيامين فمهدوا طلبهم بعرض ما هم عليه من فاقة وبؤس حتّى يرق قلبه لهم ويحصلوا على مبتغاهم فقالوا له : ايها الامير قد اصابنا واصاب اهلنا ضرّ شديد من الجوع والفقر ، وحملنا ما عندنا من بضاعة قليلة ثمناً لما نطلبه من الطعام وهي تُرد لقلتها ورداءتها وما زلنا نطمع في كرمك بأن توفي لنا الكيل ، وتجعل الزائد عن حقنا صدقة علينا ، ان الله تعالى يثيب المتصدقين بأحسن الثواب .

رأى يوسف ان اخوته قد اشتكوا اليه بشكوى تنم عن رقة الحال وشظف العيش ، وانه قد استحالت نفوسهم الصلبة الى نفوس اخرى غيرها لا صلة لها بها ، نفوس وديعة رقيقة ، فتأثر من بؤسهم واعتزم على اظهار نفسه لهم حتّى يضمهم واهليهم الى معيته ليعيشوا عيشة الرغد والسعة ، فبعث في طلب اخيه بنيامين ، ثم توجه نحوهم قائلاً : هل علمتم عظم ما ارتكبتم في حق يوسف واخيه وقبح عملكم الذي ينم عن جهالة وسفه ؟ هل تذكرون انكم شردتم يوسف عن ابيه والقيتموه في دامس الجب ؟ واما بنيامين فقد احزنتم قلبه على فقد شقيقه وسلبتم منه لذة الحياة حتّى صار شريكه في هذا المصاب .

سمع الأخوة كلام اخيهم يوسف فأنعموا فكرهم في مغزى خطابه ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته فانتقلوا من دور الانكار له

---

١ – روح الله : فرج الله .

وعدم معرفتهم به الى دور (الشك) اي شكهم في ان الذي يكلمهم هو يوسف أم لا فقالوا له وهم مضطربو الحواس : هل انت يوسف ؟ فأجابهم يوسف مصدقاً : انا يوسف وهذا أخي واشار الى بنيامين ، قد انعم الله علينا بالسلامة من المهالك ، ومنّ عليّ بالكرامة والسلطان والغنى وكان ذلك جزاء من الله على تقواي وصبري والله لا يضيع اجر من احسن عملا .

ما كاد يوسف يتم كلامه حتى تحققوا انه بنفسه اخوهم المفقود . فأسقط في ايديهم وقد علت وجوههم صفرة الوجل فنكسوا رؤوسهم خجلاً منه ، ثم ارادوا ان ينتحلوا عذراً يبرئون به ساحتهم ويتخلصون به من عقاب اخيهم فلم يجدوا ما يعتذرون به إلاّ الاعتراف الصحيح . فقالوا له : تالله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين وبالمنصب الرفيع بينما نحن آثمون لم نتق ولم نصبر خاطئون في اقوالنا واعمالنا نحوك فمعذرة الى الله واليك فارفق بنا ، ولا تأخذنا بالشدة ، فرد عليهم يوسف قائلاً : لا لوم عليكم اليوم ولا تأنيب على أفعالكم وأطلب لكم من الله الغفران والرحمة وهو ارحم الراحمين .

وبعد ان استفسر يوسف عن والده وعلم أنه فقد بصره لشدة حزنه عليه اعطاهم قميصه وامرهم بأن يطرحوه على وجهه فيرتد اليه بصره ودعاهم أن يأتوا بعد ذلك الى مصر مع أهلهم اجمعين . اقرأوا هذه الآيات :

(فلما دخلوا عليْهِ قالوا : يا أيّها العزيزُ مَسّنا وأهْلَنَا الضُرّ وجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجاة [1] فأوفِ لنا الكيْلَ وتصَدّق علينا انّ الله يجزي المتصدقين . قالَ : هل عَلِمتم مَا فَعَلْتُم بيوسُفَ واخيه إذ انتم جاهلون . قالــوا أئنّكَ لأنْتَ يُوسُفُ قال : أنا يُوسُفُ وهذا اخي قَدْ منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك

[1] — مزجاة : رديئة .

اللهُ علينا وإن كُنّا لخاطئين . قال لا تثريب [١] عليكم اليوم يَغفِرُ الله لكم وهو أرْحم الراحمين . إذهبوا بقميصي [٢] هذا فألقوه على وجه ابي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم اجمعين) .

يعقوب يتلقى خـــبر سلامة يوسف

صدع إخوة يوسف بأمر اخيهم وانصاعوا لاشارته وركبوا دوابهم وساروا سيراً حثيثاً ميممين وجوهم شطر ابيهم في فلسطين وهم يحملون قميص يوسف وبشرى اسناد « وزارة المال » اليه وحين تجاوزت قافلتهم ارض مصر شعر يعقوب شعوراً خفياً بقرب اجتماعه بيوسف فأخبر اهله واحفاده بذلك قائلاً : إني اشعر برائحة يوسف المحبوبة تغمرني ولولا خشية ان تتهموني في قولي لأنبأتكم عن يوسف بأكثر من ذلك ألا وهو أنه حي وقد قرب موعد لقائه .

ما كاد يعقوب يتفوه بقوله هذا امام احفاده حتى بادروا مؤنبين لـــه حالفين بالله بأنه لا يزال بعيداً عن صوابه هائماً في خياله بسبب افراطه في حبه يوسف ولهجه بذكراه على الدوام . وكأن يعقوب وقد صعب عليـــه انتقادهم فتغاضى عن لهجتهم الجافة فاستقبل جفاءهم بالغض والاحتمال فلم يعلق اهمية على كلمتهم بل سكت وفي سكوته ما يغني عن الجواب .

استمر يعقوب على هذا الشعور الطيب الممزوج بالأمل والترقب للقاء ابنه الى ان أتاه من يحمل القميص ويبشره بسلامة يوسف فحين طُرِحَ القميص على وجهه غمرته الفرحة ودبت في روحه حياة جديدة ، فعاد اليه بصره

---

١ – لا تثريب : لا تأنيب ولا عتب .

٢ – هناك تفسير آخر تؤيده اللغة لقميصي : فقد فسر القميص على المنصب الجليل الذي ناله يوسف من (وزارة المال) والوكالة عن مليك مصر . يقولون : من (قمصك هذا القميص) أي من جعلك في هذه الدرجة والرتبة العالية . والمراد (بألقوه على وجه أبي) أي أعلموه بحالي وعرفوه بمنصبي واحيطوه علماً بما انا فيه . ومعنى بصير كما جاء في كتب اللغة ما كان برؤية القلب او بمعنى العلم أي انه يصبح بصيراً بحال ولده يوسف .

باذن الله ، ثم اخبره البشير عن احوال يوسف وانه يطلب منه الارتحال مع اهله وأحفاده الى مصر ، عندئذ اتجه يعقوب الى من حوله يذكرهم بصدق نبوءته وحقيقة شعوره من انه يدرك من رحمة الله وفضله ما لا يدركون ، فأقبلوا عليه معتذرين عما كان منهم ، راجين منه أن يسأل الله ان يغفر لهم ذنوبهم التي ارتكبوها فوعدهم يعقوب بأنه سيطلب العفو لهم من الله عن سيئاتهم لأنه وحده صاحب المغفرة والرحمة الدائمة . قال الله تعالى :

ولما فَصَلَتِ العيرُ [1] قال أبوهم : إني لأجِدُ ريح [2] يوسف لولا أن تُفنّدون [3] . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً ، قال : ألم أقُل لكم إني أعلمُ من الله ما لا تعلمون . قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كُنّا خاطئين . قال سَوْفَ استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم) .

اللقاء المثير وتحقق رؤيـا يوسف

أمر يعقوب اولاده بتحضير وسائل السفر تسرّعاً وشوقاً للقيا ولده يوسف فلذلك تهيأوا واستعدوا للرحلة هم وأهلوهم البالغ عددهم سبعين شخصاً ولما علم يوسف بمقدمهم سار ووجوه القوم لاستقبالهم عند حدود مصر .

وصلت اسرة يعقوب الى مصر فرأوا يوسف في استقبالهم ، ولا نستطيع ان نصف مبلغ فرح وغبطة يعقوب بلقاء ابنه فذلك فوق مقدور الكاتب ان يسطره ويوفيه حقه وخصوصاً بعد هذا الفراق الطويل وما حصل عليه يوسف من سلطة وجاه وغنى .

ضم يوسف اليه والديه وانزلهما منزلة كريمة وطلب منهما ومن اهله ان

---

١ – فصلت العير : أي خرجت من مصر ، يقال فصل القوم عن المكان وانفصلوا عنه بمعنى فارقوه .

٢ – ريح : تأتي بمعنى القوة والمنصب والدولة والغلبة .

٣ – تفندون : تسفهون ، وتكذبون والتفنيد النسبة الى الخرف .

يقيموا في مصر آمنين سالمين بإذن الله .

ثم سار الركب داخل مصر حتى بلغ دار الحكومة فدخلوها واجلس يوسف والديه بقربه على سرير الحكم زيادة في تكريمهما ، وغمر يعقوب واولاده شعور بجليل ما هيأ الله لهم على يدي يوسف من التكريم فحيوه تحية مألوفة عندهم من الانحناء له على عادة اهل زمانهم بما يحيون به الرؤساء الحاكمين . فأثار ذلك في نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير وقال لأبيه : هذا تفسير ما قصصت عليك من رؤيا حين رأيت في المنام احد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين لي قد حققه ربي ، كما اكرمني واحسن إليّ فأظهر براءتي وخلصني من السجن واتى بكم من البادية لنلتقي في مصر من بعد ان افسد الشيطان بيني وبين اخوتي وما كان يتم هذا كله بغير ارادة الله فهو رفيق بعباده ، وهو المحيط علماً بكل شيء . الحكيم في كل ما يصرفه من شؤون خلقه

وبعد ان انتهى يوسف من حديثه في بيان ما انعم الله عليه ، اتجه الى ربه شاكراً فقال : يا رب كم انا مدين لك ، ومعترف لك بالجميل لقد منحتني من السلطة والحكم ما احمدك عليه ، يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق انت مالك امري وولي نعمتي في الدنيا والآخرة توفني اليك على ما ارتضيت لانبيائك وعبادك الصالحين من الخضوع لك وحدك ، وادخلني في زمرة من هديتهم الى الصلاح من عبادك المخلصين . اقرأوا هذه الآيات :

(فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع ابويه [1] على العرش وخرّوا له سُجّدا ، وقال : يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قَبْلُ قد جعلها ربي حقا ، وقد أحْسَنَ بي إذ اخرجني

---

١ – ابويه : اي امه واباه . ولكن من هي ام يوسف التي حضرت لمصر قيل هي أمه راحيل ولكن ورد في سفر التكوين ان راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين فقيل ان المراد من امه التي حضرت لمصر (بلهه) جارية امه ومربيته حال حياة امه وبعد وفاتها ، والمربية في – عرف العرب – تدعى أماً لقيامها مقام الأم .

مِنَ السجن وجاء بكم من البدْو [١] مِنْ بَعْد أنْ نَزَغَ الشيطان بيني وبين اخوتي إن ربي لطيف لما يشاءُ انه هو العليم الحكيم [٢] . رب قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطِرَ السموات والأرض انت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مُسْلماً وألحقني بالصالحين) .

---

١ – البدو : البادية .

٢ – بهذه الآية اختصر القرآن القصة التي سبقت وأشار الى اهم الاحداث التي وقعت .

الفصل السابع

دروس وعبر من قصة يوسف

درس في الإيمان من يعقوب — درس في العفة — عاقبة الصبر — فائدة الإحسان — السمعة الطيبة — العفو عند المقدرة — العدل بين الأبناء .

درس في الايمان من يعقوب

الايمان بالله له اكبر الأثر في النفس الانسانية فهو يمدها بالعزاء عند حلول المصائب وهو يهبها الطمأنينة لتصمد بها امام ما يصادفها من كوارث واهوال .

وهذا ما يتمثل لنا في تصرفات يعقوب في سلسلة متلاحقة من تاريخ حياته وفي توجيهه لأولاده .

فها هو يعقوب يتلقى نبأ فقدان يوسف — احب اولاده اليه — وان الذئب قد افترسه .

تصوّر وقع هذه المصيبة عليه وما تحدثه فيه من انفعالات وجروح في نفسه . ولكن ماذا كان رد الفعل في نفس يعقوب ؟

لقد رأينا يعقوب يظهر بمظهر المستعين بالله على هذه المصيبة ، صابراً على هذا البلاء ، ولكن بأي صورة من الصبر ؟ انه الصبر الجميل الذي لا يخالطه جزع ولا شكوى ، فنراه ينطق بهذا القول الرائع (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

وها هو يعقوب نراه مؤمناً ايماناً عميقاً بلطف العناية الالهية ، مستسلماً لها بثقة ويقين وخاصة عندما طلب اولاده منه ان يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في رحلتهم الى مصر ، وهو المصاب من غدرهم ، والمـــرتاب من تصرفاتهم ، والحزين عـــلى فراق يوسف . ماذا كان جواب يعقوب أمام هذا الطلب ؟

لقد كان جوابه بهذه الكلمات التي يشع منها الايمان القوي بلطف الله والثقة بعدله ورحمته بعد موافقته على ارسال بنيامين معهم (فالله خـــير حافظاً وهو ارحم الراحمين) .

وها هو يعقوب نراه بصورة المتوكل على الله وما يستتبع ذلك من راحة وطمأنينة نفسية لأمر الله ، وهذا ما نراه عندما يوصي اولاده بدخول مصر في الرحلة الثانية بأن لا يدخلوها من باب واحد بل من ابواب متفرقة لئلاّ يلفتوا الأنظار ويكونوا موضع ريبة من الحرس فيكون في ذلك ما يسوءهم ولا سيما لأنهم من أهل فلسطين الذين كان بينهم وبين اهل مصر عداء .

علل يعقوب هذا التدبير والاحتراس بأنه لا يدفع عنهم ما قدَّر الله عليهم (وما أُغني عنكم من الله من شيء) إذ لو أراد الله بهم سوءاً لم ينفعهم هذا التدبير . ثم تابع يعقوب نصيحته لأولاده بهذه الجملة التي تفيض بالإيمان والاستسلام لإرادة الله (إن الحُكْمُ إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) .

فيعقوب يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب ان يصاحبه الأخذ بالأسباب ، والحيطة والحذر من الأضرار ، فللطبيعة في سيرها نظام تأتي فيه المسببات

على قدر الأسباب . والمؤمن هو الذي يأخذ بأسباب النجاة مع الثقة والاطمئنان لِمـَا قدّر الله .

فالاحتراس والحيطة والحذر تُعطي النفس الانسانية قوة وعزاء عند وقوع المصاب .

فنصيحة يعقوب لأولاده أدخلت الطمأنينة الى نفسه وجعلته في وضع لا يتحسر كثيراً ، ولا يأسف أسفاً يائساً إذا أصابت اولاده صدمة من صدمات القدر ولا سيما لم يصدر قصور منه ولا تقصير ، فهو حين عمل بالواجب سيهون عليه وقع المصاب إذا وقع .

وها هو يعقوب ايضاً يتلقى صدمة قاسية وهي استرقاق ولده بنيامين فهذه المصيبة ذكّرته بيوسف ففاضت احزانه ، فعندما لامه أهله على استرساله في الحزن نراه يقول لهم : (انما اشكو بثي وحزني الى الله) هذه الجملة تركز فيها اعمق معاني الإيمان والصمود امام المصائب التي تُذْهبُ عادة بصواب الانسان او تؤدي به الى الانهيار . فيعقوب يقول لهم : (انما اشكو بثي) — أي همي العظيم — الى الله وهو الرحيم القادر على كشف غمّي ، ولا اشكو الى العباد الذين لا حول لهم ولا قوة امام تصاريف الدهر .

واخيراً نرى يعقوب بصورة المؤمن المتفائل المفعم بالأمل عندما يُوصي اولاده بالبحث عن يوسف وبنيامين فيقول لهم : (يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون) يحدد يعقوب بهذة الآيـة نفسية المؤمن بأنه لا ييأس من رحمة الله ، فاليأس كفر بنعمة الحياة وخالقها ، لأنه يشل حياة الانسان وارادته ، ويجعله عاجزاً عن السير في ركابها ، بينما الايمان عدو اليأس اللدود ، إذ هو الأمل والرجاء برحمة الله مهما ادلهمت الخطوب ، واكفهر الزمان ، فإن مع العسر يسرا ، وإن وراء الضيق فرجاً .

درس في العفة

وإن في قصة يوسف وصموده أمام الإغراء درساً في العفة وفي مغالبة الشهوة والانتصار عليها مما يعتبر اعظم مثل يمكن ان يقتدي به الكثيرون الذين يبتغون السمو الإنساني.

فشهوة الجنس هي تلك القوة العارمة التي خضع وركع أمامها عظماء التاريخ من ملوك وقواد الجيوش، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة الحقيقية ولا سيما إذا لابستها تلك الظروف والاغراءات والتهديدات التي حصلت ليوسف عليه السلام.

فها هي امرأة وزير الملك تختلي بيوسف وهي على قسط وافر من الجمال تعرض عليه مفاتنها واغراءها، وتطلب منه الاستجابة لرغبتها. إن الوضع الذي كان عليه يوسف يستدعي مطاوعتها وتلبية رغباتها بلهفة واندفاع، وذلك لان يوسف في ريعان الشباب في وقت تتفتح فيه النفس على الحب وتضطرم فيه الشهوة، وفوق هذا فهو في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى – ان لم يطاوعها – اذاها فاجتمع لديه داعيا الرغبة والرهبة، وهو ايضاً لا يخشى ان تنم عليه فانها هي الطالبة الراغبة وقد غلقت الأبواب وابعدت الرقباء. وزيادة على ذلك فإنه كان مملوكاً لها يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه احد ذلك، وهذا مما يزيد الانس والود وهو من اقوى الدواعي لمطاوعتها في رغبتها، ولكن امام هذه الأمور جميعها اعرض عنها بدافع من واجب الشرف والاخلاص والوفاء لزوجها من ان يخونه لذا قال لها: (معاذ الله انه ربي احسن مثواي).

وحافز الوفاء كان مقروناً بالرقابة الالهية، هذه الرقابة جعلت نفسية يوسف تترفع عن هذا الاثم مع امرأة سيده.

وموقف آخر يرفع من منزلة يوسف وهو عندما تآمرت سيدته عليه مع صاحباتها لاستمالته ثم تهديده بالسجن في حال رفضه، فماذا كان

موقف يوسف امام هذا التهديد والوعيد ؟ لقد اعرض عنها بترفع وأنفة ، وفضّل حياة السجن المحفوفة بالذلة والهوان والعذاب على العيش في كنف الترف والانغماس في الشهوات قائلاً مناجياً ربه : (رب ، السجن احب إليّ مما يدعونني اليه) .

عاقبة الصبر

وان في قصة يوسف درساً لنا في التحلي بالصبر ، وكيف يجب ان يكون زاد الانسان في رحلة العمر لما فيه من العاقبة الحسنة .

فالانسان يخلق وتخلق معه متاعبه من مصائب وآلام وفقر ومرض ، وفقد حبيب الى خيبة امل وخسران ، كل هذه الأمور ونحوها تحتاج الى الصبر للتغلب عليها ، وبالتالي للوصول الى النجاح والسعادة المرجوة .

وان حياة يوسف سلسلة من المتاعب التي انتهت بالفوز والمكانة المرموقة والحياة الطيبة .

تبتدىء حياة يوسف بانسلاخه عن اهله والقائه في البئر ثم انقاذه والعيش بعيداً عن اهله مع ما في ذلك من ألم مكبوت على فراق أهله وكيد اخوته ، ثم تأتي مرحلة قاسية عليه وهي زجه في السجن ظلماً وعدواناً جزاء امانته .

هذه الأمور يمكن ان تلقي في النفوس اليأس والكفر بقيم الحق والعدالة وتحثه على الارتماء في احضان الشر والرذيلة ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بل ظل يوسف صامداً على مبادئه ، صابراً على بلوائه ، مترقباً رحمة ربه منتظراً انفراج الأزمة التي وقع فيها ظلماً وعدواناً ، مؤمناً بالله وعدله ، داعياً الى عبادته وحده وهو في ظلمات السجن ، فلم تزحزحه هذه المصائب عن ايمانه وثقته بالله ، فكان جزاؤه ان مَنّ الله عليه بموهبة تفسير الرؤى التي بواسطتها نجا من السجن وتربع في ارفع المناصب الدنيوية ونال الجاه والسلطان وطيبات الحياة ، وقد بين يوسف عاقبة الصبر الذي تحلى به بقوله : (انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين) .

وفي قصة يوسف ترغيب بفضيلة الاحسان وبيان آثارها في نيل سعادة الدنيا والآخرة . ولكن ما هو الاحسان ؟ وما معناه ؟

فالاحسان : من أحسن ضد أساء ، ويأتي بمعنى إتقان العمل .

اول ما يطالعنا من فائدة الإحسان في القصة قوله تعالى في يوسف : (ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) .

فيوسف لم يؤت العلم والحكمة محاباة بل لسابق إحسانه . ونعمة العلم والحكمة افضل نعم الحياة على ذوي النفوس الكبيرة ، ولا تقاس بهما نعمة المـــال .

وماذا اعطى الله يوسف ؟ لقد اعطاه الله السلطة والنفوذ والجاه جزاء إحسانه ، اقرأ قولــه تعالى : (ولقد مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين) .

فهذه الآية وعد إلهي بأن من كان محسناً مكنه الله في الأرض واصابه برحمته فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ولكنه مرتبط بالوصف .

وتأمل قوله تعالى في الآية : (ولا نضيع أجر المحسنين) . فما أحلى وقعها على النفس فهي بلسم لأصحاب النفوس السامية المحسنة وحافز لهم للاستمرار في كفاحهم في سبيل الاحسان .

فالأفعال الحسنة التي يقدمها الانسان لمجتمعه تكسبه علو المقام وحسن الذكر وعرفان الجميل ممن يصيبهم احسانه .

وكل من احسن عمله أي اتقنه نال الجزاء الأوفر من اقبال الناس على صناعته وثقتهم به وتقديرهم له ، وهل جزاء الإحسان إلاّ الاحسان .

هذه هي فائدة الإحسان في الدنيا ، اما ثواب الإحسان في الآخرة فيبينه

قوله تعالى في تتمة الآية السابقة : (ولأجر الآخرة خير) فثواب الآخرة أجل وأعظم من ثواب الدنيا بمراحل .

السمعة الطيبـــة

وفي قصة يوسف درس في المحافظة على السمعة الطيبـــة والدفاع عن الشرف من ان يمس بسوء .

فيوسف ذلك المضطهد المظلوم الملقى في ظلمات السجن مدة طويلة بدون ذنب اقترفه لما جاءه أمر الأفراج عنه ودعوته لمقابلة الملك لم يتلهف للخروج ولم يغتبط لهذه البشرى بل رفض الخروج من السجن حتى يبرىء ساحته من تهمة الاجرام فقال لمندوب الملك : اني لن اخرج إلاّ بعد التحقيق في قضيتي وما نسب اليّ زوراً وبهتاناً .

وهذا ما ذكره القرآن (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن) .

فلما اجرى الملك التحقيق مع النسوة وامرأة العزيز وظهرت له براءته ونقاوة صفحته رضي يوسف الخروج من السجن مرفوع الرأس موفور الكرامة حتى لا يقال عنه انه سجن لجرم اقترفه وان خروجه من السجن كان منة وعفواً من الملك .

هذا وقد كشف التحقيق عن السمو الخلقي الذي تحلى به يوسف حتى أثار اعجاب الملك ، ففي طلب الملك ليوسف في المرة الأولى عندما بلغه علمه في تأويل الرؤيا وتدبير الأمور الصعبة قال : (ائتوني به) اما عندما كشف التحقيق براءته ونزاهته قال الملك : (ائتوني به استخلصه لنفسي) .

فالملك رغب في اسناد الوزارة الى يوسف بعد ان لمس منه علماً ونزاهة وعفة .

العفو عند المقدرة

وفي القصة درس في التسامح والعفو عن المسيء ومقابلته بالاحسان فيوسف كان باستطاعته عندما تعرف على اخوته ان ينتحل اي تهمة ضدهم ليزج بهم في السجن ويذيقهم الواناً من العذاب جزاء كيدهم له ، ولكن سمو نفسه وكرم عنصره وترفعه عن الانتقام جعله يأبى ان ينزلق الى هذا المنزلق الذي ينغمس فيه عادة الأشخاص العاديون .

لقد كانت السلطة والحكم بيد يوسف ، وكانت حياة الذين اساءوا اليه رهن كلمة منه ولكنه قابل الاساءة بالاحسان فزاد كيلهم ورد ثمن البضاعة لهم ، فعل ذلك وهو متنكر ، لا يعرفون انه اخوهم . وعندما كشف يوسف عن هويته وادرك اخوته انه وزير الملك شعروا عندئذ وهم في هذا الموقف الرهيب بفداحة الجرم الذي اقترفوه في حقه فاعترفوا بخطئهم نحوه قائلين : (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فأجابهم يوسف بهذا الجواب المفعم بالعطف الأخوي والمسامحة عما أجرموا نحوه قائلاً : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) .

العدل بين الأبناء

وفي قصة يوسف درس في كيفية معاملة الأبناء بالعدل والمساواة . فالطفل في طبيعته غيور ، حسود ، محتاج الى عطف وحنو والديه فأي اهمال له ، وانحراف في مراعاة شعوره يولّد فيه حقداً دفيناً نحو منافسيه .

والغيرة سريعة الحدوث بين الإخوة ، فقد يؤدي ايثار الوالدين لأحد الأبناء على الآخرين إلى إذكاء العداوة بين الإخوة ، التي تتأجج على طول الزمن ، مما تؤدي الى قطع الروابط بين الاسر .

فهذا يوسف قريب من قلب والده يعقوب لأنه توسم فيه امارات النبوة ، لذا آثره على اخوته ، فأثار ذلك حفيظتهم وبغضاءهم وظهرت امارات

ذلك عليهم مما دفع يعقوب إلى تحذير يوسف عندما قص عليه رؤياه وما تحمل من ارهاصات في رفعته وعلوّ شأنه بأن قال له : (يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا) .

ومن اسباب عداوة ابناء يعقوب ليوسف هو تعدد الزوجات ، فقد كان ليعقوب اربع زوجات وكانت راحيل احدى زوجاته – والدة يوسف وبنيامين – احب اليه من بقية زوجاته مما ولّد حسداً وبغضاً لها من ضرائرها ثم انتقل العداء من الأمهات الى الأبنــاء ، وهذه المشكلة هي بعض ما يقاسيه الرجل الذي يتزوج اكثر من واحدة وهذا بعض اسرار القرآن (فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة) .

الباب الرابع

قصة موسى عليه السلام

- سيرة موسى قبل الرسالة
- موسى يتلقى رسالة ربه
- كفاح موسى وقومه
- سوء مصير فرعون وقومه
- في الطريق الى أرض الميعاد
- دروس وعبر من قصة موسى
- ثلاث قصص وقعت على عهد موسى

تمهيد

اضطهاد بني اسرائيل

ذكرنا فيما سبق في قصة يوسف كيف انه استقدم أباه واولاده واحفاده للاقامة في مصر ، فطلب يوسف آنذاك من ملك مصر ان يسكنهم ارض جاسان وهي في شمال بلبيس من مدنها سفط الحنة . وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم انها أرض مراع وهم رعاة ماشية ، وكان ذلك على عهد (الملوك الرعاة) . ثم دار الزمان وجاء أحمس الأول اول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الذين طردوا (ملوك الرعاة) ثم جاء رعمسيس الثاني فرأى ان بني اسرائيل يتضاعف عددهم ويتزايد نسلهم فخاف ان يكونوا عوناً لاعداء مصر فأمر بقتل كل ذكر من اولادهم حتى لا يكثر عددهم ، وقيل ان الكهنة اخبروا فرعون [1] بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني اسرائيل فأمعن في تفريقهم شيعاً وأحزاباً ، واستخدمهم في أشق الأعمال لإضعاف قوتهم لهذا قضت رحمة الله ان تمد لهم يد المعونة وترفع عنهم هذا الظلم ، وهذا ما قصه القرآن بقوله :

(نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . انّ فرعون علا في الأرض وجَعَلَ أهلها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذبّحُ أبناءهم ويستحي [2] نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) القصص : ٣ — ٥ .

١ — فرعون : لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر الأقدمين .

٢ — يستحيي نساءهم : يتركهم احياء لاسترقاقهن .

الفصل الأول

سيرة موسى قبل الرسالة

ولادة موسى وتربيتــه في بلاط فرعون – موسى ينصر أحد الإسرائيليين – افتضاح أمر موسى وهربه – موسى في أرض مدين – زواج موسى .

ولادة موسى وتربيته في بـــلاط فرعون

في عصر اضطهاد الاسرائيليين عاش رجُلٌ عبراني يُقال له (عمران) تزوج هذا من عمته (يوكابد) فانجبا طفلاً سمياه موسى [١] .

ولما ولدت (يوكابد) موسى خبأته عن العيون ، فلم يتسرّب خبره الى فرعون ، فمكث عندها عدة أشهر فلما خافت افتضاح أمرها ألهمها الله ان تهيء له صندوقاً تضعه فيه ثم تطليه بالقار ، ثم تلقي به في نهر النيل ، وقد هدأ الله من روعها وبشرها بأنه سيرجعه اليها ويجعلــه من المرسلين .

١ – ورد في اشتقاق كلمة موسى انهـــا اسم مركب من كلمتين (مو : شا) (مو) اسم للماء في اللغة المصرية القديمة و (شا) بمعنى الشجر وقد سمي بهذا لأنه وجد حيث القته أمه في الماء بين ماء وشجر . وقيل هو من الكلمة المصرية (مس) ومعناها طفل .

انتشل بعض آل فرعون الصندوق من المـــاء وعندما فتحوه ووقعت عين امرأة فرعون على الطفل موسى القى الله محبته في قلبها ، وادركت ان زوجها سيقتله كما قتل جميع اولاد بني اسرائيل ، فقالت له : هذا الولد سيكون مسرّة عين لي ولك لا تقتله عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً بعد أن حُرمنا من الأولاد ، فوافقها فرعون على ذلك واستبقاه لها . وهكذا نجا موسى من الهلاك المحقق وكان فرعون ووزيره هامان وجنودهما لا يدرون ما يخبئه القدر لهم من انهم انتشلوا من سيكون لهم عدواً ، ومصدراً لحزنهم ، وسبباً لهلاكهم بسبب كفرهم وطغيانهم .

هذا ما كان من أمر موسى أما ما كان من أمر أمه فإنها عند القائها لموسى في النهر ، ارسلت اخته تقتفي أثره فرأت انه التقط وأُدخل دار فرعون فأخبرت أمها بذلك ، فطار عقلها لهذا النبأ من الخوف والجزع ، وصار قلبها خالياً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى ، وكادت للهفتها ان تكشف سِرّها ، وتُظهر أمرها ، لولا ان ثبّت الله فؤادها وجعلها من المؤمنين المطمئنين الى وعده بارجاعه اليها .

أتوا لموسى بالمراضع ولكنه عافهن جميعاً ، فتقدمت أخته وعرضت عليهم ان تدعو لهم امرأة ترضعه ، فقبلوا ذلك وبعثوها في طلب المرضعة ، فجاءت بامه فاستأنس بها الوليد والتقم ثديها دون سائر المراضع ، وهكذا ايقنت ام موسى ان وعد الله حق بعد ان ارجع الله اليها وليدها .

اقرأوا هذه الآيات :

(وأوْحَيْنا إلى أمّ موسى : أن أرضعيه ، فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمّ ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنّا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين [1] .

---

١ - روى الاصمعي انه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما افصحك ، فقالت : او بعد قوله تعالى فصاحة (واوحينا الى ام موسى .. الى .. وجاعلوه من المرسلين) فجمع في آية واحدة بين امرين ونهيين وخبرين متضمنين بشارتين .

فالتقطهُ آلُ فرعون ليكونَ لهُم عدُوّاً وحزَناً ، إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالتِ امرأةُ فرعونَ : قُرّةُ عينٍ لي ولَكَ ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا او نتخذهُ ولداً ، وهم لا يشعرون . وأصبح فؤادُ أمّ موسى فارِغاً ، إن كادت لتُبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قُصّيه ، فبصُرت به عن جُنُب [1] وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قَبْلُ ، فقالت : هل أدلكم على أهْلِ بيت يكفلونه لكم وَهُمْ له ناصحون؟ فرددناهُ الى أُمّه كي تَقَرَّ عينُها ولا تحزن ، ولِتَعلم أنّ وَعْدَ اللهِ حقّ ، ولكِنَّ اكثرهُم لا يعلمون) القصص : ٧ – ١٢ .

ومن الطبيعي أن تكون ام موسى بعد أن أتمت رضاعته قد أتت به الى بيت فرعون ، وتولى البلاط الفرعوني تربيته ، ولما بلغ من القوة غاية ما يبلغه الشباب منحه الله العلم والحكمة وبمثل هذا الجزاء يثيب الله المحسنين . قال تعالى : (ولمّا بَلَغَ أشُدَّهُ واستوى آتيناهُ حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) القصص : ١٤ .

موسى ينصـــر احد الاسرائيليين

شَبَّ موسى في بيت فرعون وكان قوي الجسم ، وافر القوة ، ولم يخف عليه انه دخيل في بيت فرعون ، وانه اسرائيلي من ذلك الشعب المضطهد ، فكان عوناً للاسرائيليين يدفع عنهم أذى قوم فرعون .

غادر موسى قصر فرعون يوماً ، ودخل المدينة فجأة دُون أن يعلم أحد بذلك ، فوجد رجلين يتشاجران ، احدهما اسرائيلي من قومه ، والآخر فرعوني ، فاستغاث الاسرائيلي بموسى فأخذ بنصرتـه ، ووكز خصمه وكزة كانت القاضية عليه فندم على فعلته وعدّها من عمل الشيطان ، واستغفر

١ – عن جنب : عن بعد .

ربه على ما ارتكب وتضرع اليـــه ان يتوب عليه . وألاّ يجعله مساعداً للمجرمين ، فغفر له وتاب عليه . قال تعالى :

(وَدَخَلَ المدينةَ على حين غَفْلةٍ مِنْ أهلها ، فَوَجَدَ فيها رَجُلَين يقتتلان : هذا مِنْ شيعته ، وهذا من عدوّه ، فاستغاثَهُ الذي من شيعته على الذي من عدوّه ، فَوَكَزَهُ موسى ، فقضى عليه [1] ، قال : هذا مِن عَمَلِ الشيطانِ ، إنّهُ عدوٌّ مُضِلٌّ مبين . قال : ربِّ ، إني ظَلَمْتُ نفسي فاغفِرِ لي ، فَغَفَرَ له ؛ إنه هو الغفور الرحيم . قال : ربِّ بِمَا أنعمتَ عليَّ فلن أكون ظهيراً [2] للمجرمين) . القصص : ١٥ – ١٧ .

افتضاح امـــر يوسف وهربه

فلما كان اليوم الثاني خرج موسى الى المدينة وهو يخاف افتضاح أمره ، فوجد ذلك الاسرائيلي الذي نصره بالأمس يقاتل فرعونياً آخر ، فاستغاثه ذلك الاسرائيلي على الفرعوني وطلب نصرته ، فغضب موسى من مشاكسته وميله للخصام وأنّبه على ذلك ، ثم تدخل بينهما لفض النزاع فخاف الاسرائيلي وظن ان موسى يقصد قتله فخاطبه قائلاً : (أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) فلم يكد يسمع الفرعوني هذا الاتّهام الصريح – وقد كان قومه في حيرة من امر قتيل الأمس لا يعرفون قاتله – حتّى وافاهم هذا الفرعوني واخبرهم بخبر موسى ، فتألب عندئذ القوم وراحوا يبحثون عن موسى للفتك به ، سمع بالأمر رجل مخلص لموسى فجاءه من أقصى المدينة مسرعاً وأعلمه بما يُدبّر له القوم ، ونصحه بأن ينجو بنفسه ويخرج من مصر حتّى لا تمتد

---

١ – فوكزه موسى فقضى عليه : أثار بعض المستشرقين الشبهات على هذه الحادثة بأن موسى ارتكب معصية بقتله نفساً بينما يدعي الإسلام عصمة الرسل . وللرد عليهم نقول : القرآن اوضح ان موسى وكز الرجل ليمنع عدوانه على اسرائيلي والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف فقد وكزه موسى ولم يرد قتله هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبياً ولا رسولا حين وكز خصمه .

٢ – ظهيراً معينا .

اليه ايديهم بسوء ، فقبل منه موسى نصيحته ، وفر هارباً متوجساً خيفة داعياً ربه ان ينجيه من القوم الظالمين . اقرأوا هذه الآيات :

(فأصْبَحَ في المدينةِ خائفاً يترقّب ، فإذا الذي استنصَرَهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ[١] قال له موسى ؛ إنّكَ لغوي مبين . فلما اراد أن يَبْطِشَ بالذي هو عدوٌّ لهما ، قال : يا موسى ، أتُريد ان تقتلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس ، إن تُريدُ إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض ، وما تُريدُ ان تكون من المصلحين . وجاء رجُلٌ من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ، إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقّب ، قال : رب نجني من القوم الظالمين) القصص : ١٨ — ٢١ .

موسى في ارض مدين

خرج موسى من مصر الى ارض مدين بعد مشقة ، ولما قصد ماءها ليروي ظمأه وجد عنده حشداً من الناس قد تزاحموا عليه بشدة ، كل منهم يعتمد على قوته في التقدم والمسابقة الى الحوض ، ورأى على مقربة من الماء فتاتين تهشان غنمهما لئلا تقترب من الماء ؛ رأى موسى هذا المشهد فعجب لأمرهما ، وتقدم وسألهما عن شأنهما فأجابتاه : اتينا لنسقي غنمنا ، ولكن لشدة الزحام لن نستطيع السقيا حتى ينصرف الرعاة . هذا الجواب يدل على ما في الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها الى التخلف في مثل هذه المواقف التي يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء بالرجال ؛ ثم تضيف الفتاتان في تعليل ذلك قولهما : (وأبونا شيخ كبير) كأنهما بذلك تريدان استثارة الرحمة والشفقة من قلب موسى .

ثارت حمية موسى وسقى لهما غنمهما ، ولم يقدر احد على منعه ، لأنهم رأوا من قوته وصلابته ما منعهم من مقاومته ، ثم اتجه بعد ذلك الى

---

١ — يستصرخه : يستنصر به .

الظل منهوك القوى ليستريح ، شاكراً ربه قائلاً : رب اني فقير لكل ما قدمته إلي من خير .

وبعد برهة من الزمن جاءته إحدى الفتاتين وهي (تمشي على استحياء) ، فقالت له : إن أباها يدعوه ليجزيه اجر السقي الذي قام به لهما . وهل يُنتظر من موسى إلا ان يجيب هذه الدعوة بلهفة ؟ فهو الغريب الفقير . إذاً فليطو معها الطريق وليلق الشيخ ، وهكذا فعل ، واجتمع به وافضى اليه بمكنون سرّه ، فوقف منه الشيخ موقف الشهم الكريم وطمأنه على نجاته من القوم الظالمين . اقرأوا هذه الآيات :

(ولمّا توجّه تِلقاء مدين[1] ، قال : عسى ربي أن يهديني سَوَاءَ السبيل[2]. ولمّا ورد ماء مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمّةً من الناس يسقون[3] ، وَوَجد من دونهم امرأتين تذودان[4] قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يُصدِر الرّعاءُ وأبونا شيخ كبير . فسقى[5] لهما ثم تولّى الى الظلّ فقال: ربّ ، إني لما أنزلتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فقير . فجاءته إحداهما تمشي على استحياء[6] ، قالت : إن أبي يدعوك ليجزيَكَ أجْر ما سقيت لنا ؛ فلما جاءَهُ وقصّ عليه القصص ، قال : لا تخف ، نجوت من القــوم الظالمين) القصص : ٢٢ — ٢٥ .

---

١ — مدين : هي بلاد واقعة حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية .

٢ — عسى ربي ان يهديني سواء السبيل : أرجو الله أن يوفقني الى الطريق السوي .

٣ — ٤ — ٥ — : في هذه الآية ايجاز والايجاز هو اختصار بعض الألفاظ ليأتي الكلام وجيزاً بليغاً وذلك ان يقتص المتكلم قصة بحيث لا يغادر منها شيئاً في ألفاظ قليلة بحيث لو اقتصها غيره لم يكن في مثل طبقته من البلاغة بل أتى بها في اكثر من تلك الألفاظ . ومثل ما جاء في هذه الآية من الايجاز قوله تعالى : (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أي يسقون أغنامهم ومواشيهم، والمراد بـ (تذودان) أي تمنعان مواشيهما عن الماء وقوله تعالى : (فسقى لهما) يعني غنمهما .

٦ — (تمشي على استحياء) ألا ما أعذب هذه الجملة وما اخف وقعها على الاسماع والتي تدل على خير ما في الفتيات من جمال الا وهو جمال الحياء ، فالقرآن ذكر هذه الصفة تنويهاً وثناء على البنات المتحليات بهذه الصفة .

زواج موسى

وكان موسى فتياً نبيلاً لذا أثار في نفس الشيخ وبنتيه عوامل الاعجاب ولهذا قالت احدى ابنتيه : يا أبتِ استأجره لرعي ماشيتنا ليكفينا موءنة هذا العمل فهو قوي وأمين ، وكأن الشيخ قد فطن الى المراد ، فأسرع الى تحقيق رغبة ابنتيه ، وطلب الى موسى ان يخدمه فيرعى له غنمه ثماني سنوات نظير ان يزوجه باحدى ابنتيه وإن زاد المدة سنتين فتلك منّة جليلة ، فقبل موسى طلب الشيخ على انه بالخيار في أي المدتين يخدم وتم الاتفاق بينهما على ذلك . اقرأوا هذه الآيات :

(قالت إحداهما : يا أبت، استأجِرْهُ ، إن خير مَنِ استأجرت القويّ الأمين . قال : إني أُريد أن أُنكِحَك [1] إحدى ابنتيّ هاتين ، على أن تأجُرَني ثماني حِجج [2] فإن أتممت عشراً فمِنْ عِندكَ وما أُريد أن أشُقّ عليك ، ستجدُني إن شاء الله من الصالحين . قال : ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضَيْتُ فلا عُدوان عليّ والله على ما نقول وكيل) . القصص : ٢٦ — ٢٨ .

---

١ — انكحك : ازوجك .
٢ — حجج : سنين .

الفصل الثاني

موسى يتلقى رسالة ربه

بدء رسالته – أمر إلهي لموسى بالذهاب إلى فرعون – موسى يبلغ الرسالة الإلهية لفرعون – محاورة بين موسى وفرعون في ربوبيــة الله – فرعون يأمر ببنـــاء قصر للصعود الى السماء .

بدء رســالته

امضى موسى السنين المتفق عليها في خدمة الشيخ ، ثم توجه بأهله نحو الجنوب حتى ادرك طور سيناء . وفي ليلة مباركة اراد الله ان يخص موسى بكرامته ونبوته وكلامه ، وكان قد اخطأ الطريق وأمسى لا يدرك اين يتوجه ، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً عن بُعْد فقال لأهلــه : الزموا مكانكم ، هذه نار أراها من بعيد سآتيكم منها بقبس نستضيء به ، او جذوة نصطلي بها . أو اسأل من عندهم النار عن الطريق فيهدوننا اليه ، فلما قَرُبَ موسى من موضع النار التي أبصرها سمع نِداءً ربانياً يقول له : إني أنا ربك فاخلع نعليك تأدباً وتواضعاً . إنك في وادي (طوى) ذلك الوادي المطهر المقدس ، وهناك سمع من ربه الكلام الالهي الذي أنست نفسه به وسكنت روحه اليه :

إني قد اصطفيتك يا موسى للنبوة فاستمع لِما يُوحى اليك ، وإني انا الله لا اله غيري فخصني بالعبادة وحدي ، واعلم ان يوم القيامة آتٍ لا شك في ذلك حيث تحاسب كل نفس على ما عملت فلا يمنعك عن تذكرها وعن العمل الصالح لأجلها من يكفر في حدوثها ، فتسبب لنفسك الهلاك . ثم اراه الله بعض معجزاته فهذه عصاه يلقيها على الأرض فتنقلب حية حقيقية تتلوى وتهتز وتتحرك وتلقي الرعب في قلوب الناظرين . وهذه يده يضمها الى جيبه ثم يخرجها فتظهر بيضاء متلألئة لها بياض حسن ، وبهاء جميل ؛ ثم قال له ربه : اذهب بهاتين المعجزتين الى فرعون لتبلغه الرسالة الالهية ، فقد جاوز الحد في الطغيان والجبروت .

ولما كانت مواجهة فرعون تستدعي الشجاعة ورباطة الجأش فقد سأل موسى ربه ان يشرح صدره ليحتمل ما يواجهه من صعاب ويسهّل عليه الأمر ، وان يعينه على البيان والافصاح ، وان يجعل اخاه هرون مساعداً له في رسالته الشاقة وان يعينه على عبادته ، وقد أجاب الله دعاءه واعطاه كل ما سأل . والى القارىء هذه الآيات القرآنية التي تصف بدء رسالة موسى والتي تستشعر فيها جلال الربوبية لما تحتويه من بيان رائع وتعبير معجز :

(وهَلْ أتاكَ حديثُ موسى إذ رأى ناراً ، فقال لأهله : امكثوا ، إني آنستُ ناراً ، لعلي آتيكم منها بقَبَسٍ أو أجِدُ على النار هُدى ، فلما أتاها نُودي : يا موسى إني أنا ربّكَ ، فاخلع نعليك ، إنك بالواد المقدس طُوى . وأنا اخترتُك فاستمع لِمَا يُوحى : إنني انا الله ، لا إله إلاّ انا ، فاعبُدني وأقِم الصلاة لِذكري . إنّ الساعة [1] آتيةٌ أكاد [2] أُخفيها لتُجزَى كُلّ نفسٍ بما تسعى . فلا يصُدّنّكَ عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتَرْدَى . وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال : هي عصاي ، أتوكأ عليها وأهُشُ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال : ألقِهَا يا موسى ،

١ – الساعة : يوم القيامة .

٢ – أكاد : اريد .

فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى ، قال : خُذها ولا تخف ، سنُعيدُها سيرتها الأولى . واضمم يَدَكَ الى جناحِكَ تخرج بيضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيةً أخرى ، لنُريَكَ من آياتنا الكُبرى ، إذهب الى فرعون إنّه طغى . قال رب اشرح لي صدري ويسّر لي امري واحلُل عُقْدَةً من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً[1] من اهلي : هارون اخي ، اشدُد به أزري[2] ، وأشْرِكهُ في امري كي نُسبّحك كثيراً ونذكُرك كثيراً . إنك كُنْتَ بنا بصيرا . قال : قد أُوتيت سُؤْلَكَ يا موسى) طه : ٩ — ٣٦ .

أمر الهي لموسى بالذهاب الى فرعــون

اعد الله موسى لرسالته وأجابه الى ما سأل فبعث معه أخاه هارون وأمره ان يذهب هو واخوه الى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات ، ونهاهما عن الفتور والتقصير في ذكر الله وتبليغ رسالته ، وأمرهما ان يقصدا فرعون بالذات لأنه هو الذي طغى ، واوصاهما ان يتلطفا له في القول لعل ذلك يلين من طبيعة طغيانه ويصلا الى قلبه بحسن الكلام فيخشى الله . فقال موسى وهارون : اننا نخاف جبروت فرعون وقسوته إذا بلغناه هذه الرسالة فربما حمله الغضب على البطش بنا او التعجيل بعقابنا ، فقال الله لهما : لا تخافا ان يصيبكما ما توهمتماه منه فإني معكما اسمع وأرى فسأحفظكما من بغيه . ثم امرهما الله ان يقولا لفرعون : إننا رسولان من عند الله الذي انت عبد من عبيده ولست إلهاً كما تدعي.، فلا يحق لك أن تأسر بني اسرائيل وتسلبهم الحرية فأطلق سراحهم ليكون لهم الحرية في الانطلاق معنا إذا شاءوا وليس لك ان تعذبهم باستخدامهم في اشق الاعمال ، ونحن لدينا البينة على اننا مكلفون ان نبلغك ذلك، والسلام والسعادة لمن اتبع الحق وآمن بالله . اقرأوا هذه الآيات :

(اذهب أنت واخوك بآياتي ، ولا تَنيا في ذكري . إذهبا الى فرعون

---

١ — وزيراً : معيناً .

٢ — اشدد به ازري : قو به ظهري .

إنهُ طغى ، فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّرُ او يخشى . قالا : ربنا إنّنا نخافُ ان يفرُطَ علينا او ان يطغى . قال : لا تخافا ، انني معكما اسْمَعُ وأرى . فأتياه ، فقولا : إنّا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذّبهم ، قد جئناك بآيةٍ من ربّك ، والسلامُ على من اتبع الهدى) . طه : ٤٢ – ٤٧ .

موسى يبلغ الرسالة الالهية لفرعون

لبى موسى وهارون امر ربهما وذهبا الى فرعون وبلّغاه الرسالة ، وكان فيما بلّغه موسى لفرعون ان لا يقول على الله إلاّ الحق ، وقد أيده بمعجزات تشهد بأنه رسول الله حقاً ، وطلب منه ان يسمح بخروج بني اسرائيل معه الى فلسطين . قال الله تعالى : (وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ مِنْ رب العالمين . حقيق [1] على ألاّ اقول على الله إلاّ الحق قد جئتكم ببيّنة من ربكم فأرسل مَعيَ بني اسرائيل) الاعراف : ١٠٤ – ١٠٥ .

استغرب فرعون كلام موسى ربيبه السابق ، وشرع يمنّ ويظهر فضله عليه بأنه تربى في بيته ، وهذا يقتضي ان يكون وفيّاً له ، بعيداً عن كل ما يغيظه ، ثم ذكّره فرعون بما اقترفه من قتل الرجل الفرعوني وان من ارتكب جريمة قتل كان آثماً بعيداً عن رحمة ربه وليس جديراً به ان يدعي حمل رسالته ، فرد موسى على هذه المسألة بأنه لم يقصد قتل الفرعوني بل وكزه وكزة وهو جاهل بأنها ستؤدي الى الموت ، وأضاف قائلاً : وقد خفتُ أن تعاقبوني على قتل لم اقصده فخرجت من مصر فراراً منكم فوهب لي ربي بعد ذلك حكمة واصطفاني لنبوته . ولم ينس ان يرد على فرعون ما منّنه به فأجابه : ولكن أي نعمة تمنها عليّ ؟ هل تربيتك لي وأنا طفل تعدها نعمة علي وانت قد أستعبدت بني اسرائيل ؟ فإن كنت قد اسديت اليّ نعمة فقد لاقى قومي منك الذل والهوان فإني اتألم لآلامهم واشفق لحالهم . قال تعالى :

١ – حقيق : أي جدير .

(قال الم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتكَ التي فعلت وانت من الكافرين . قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تَمُنّها عليَّ أن عبّدت بني اسرائيل) الشعراء : ١٨ – ٢٢ .

محاورة بين موسى وفرعون في ربوبية الله

استغرب فرعون رسالة موسى فشرع يجادله في ربوبية الله ويسأله : (ما رب العالمين) فقال موسى لفرعون وحاشيته : رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم تدركون سرّ القدرة الالهية فيهما ، فالتفت فرعون الى من حوله من اتباعه مظهراً العجب قائلاً : (ألا تستمعون) ؟ وتابع موسى كلامه قائلاً : (ربكم ورب آبائكم الأولين) اي حين لم يكن فرعون موجوداً . فرد على ذلك فرعون: بأن موسى لمجنون لأنه يتكلم في امور غريبة ، فاستمر موسى قائلاً : (رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) والى هذا يشير القرآن :

(قال فِرعونُ : وما ربّ العالمين . قال : رب السموات والارض وما بينهما إن كُنتُم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون . قال : ربكم ورب آبائِكُمُ الأولين . قال : إن رسولَكُمُ الذي أُرسِلَ اليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كُنتم تعقلون) الشعراء : ٢٣ – ٢٨ .

ولما رأى موسى وهارون عدم استجابة فرعون لهما حذراه بأن الله أوحى لهما بأن العذاب سيصيب من يرفض دعوتهما ، فسألهما عندئذ فرعون عن حقيقة ربهما فأفهماه بأنه هو الذي خلق كل شيء واعطى الحياة لبعض مخلوقاته ثم هداها الى المحافظة على حياتها بما أودع بها من سنن وغرائز خاصة ، ثم اراد فرعون ان يحول الحديث إما لصرف موسى عما جاء لأجله وإما لاستطلاع بعض الأمور الغيبية فسأله : ما حال الاجيال السالفة والأمم الخالية ؟ فأحال موسى ذلك الى علم الله تعالى الذي استأثر بذلك وحده ،

فعلمها مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يخطىء الله في حكمه ولا ينسى احداً من عباده في كل زمان ومكان . ثم عدّد موسى بعضاً من دلائل قدرة الله التي هي آيات على وجوده يدركها كل ذي عقل . قال تعالى :

(إنّا قد أُوحي الينا أن العذاب على من كذّب وتولّى . قال : فمن ربكما يا موسى . قال ربّنا الذي اعطى كلّ شيء خَلْقَهُ ثمّ هدى . قال : فما بالُ القرون الأولى . قال : عِلمُها عِندَ ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً [1] وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنزَلَ مِنَ السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً مِنْ نباتٍ شتّى . كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) طه : ٤٨ ــ ٥٤ .

فرعون يأمر ببنـــاء قصر للصعود الى السماء

الح موسى على فرعون بالدعوة الى الايمان وهو في ملأ من قومه ، ولما كان ذلك يُضعف من هيبته ويحط من قدره ، اصدر امره الى وزيره (هامان) بأن يبني له قصراً عالياً حتى يطّلع الى اله موسى . ولا نظن ان فرعون كان من الجهل بدرجة أنه يأمل ان ينال السماء ببناء عال ، ولكنه أراد ان يتغفل القوم الذين معه حتى لا يخامرهم شك في قدرته . ويذكر المفسّرون ان (هامان) بنى له الصرح حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء ثم صعد فرعون وصوّب سهماً مخضباً بالدم الى السماء فعاد اليه النصل ، وقال لمن حوله : لقد قتلت اله موسى . قال تعالى :

(وقال فرعون ياهامان ابْنِ لي صرحاً لعلي ابلــغ الأسباب . اسباب السموات [2] فأطّلع الى اله موسى وإني لأظُنّه كاذباً ، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصَدّ عن السبيل وماكيْدُ فرعون إلا في تباب [3]) غافر : ٣٦ ــ ٣٧ .

---

١ ــ مهداً : ــ مذللة سهلة كالمهد وهو الفراش .

٢ ــ اسباب السموات : ابواب السموات والطرق المؤدية اليها .

٣ ــ تباب : هلاك وخسران .

الفصل الثالث

كفاح موسى وقومه

معجزات موسى وإيمان السحرة – صمود موسى وأتباعه – مؤمن فرعوني يحذر قومه – دعوة الحق على لسان المؤمن الفرعوني – تبجح فرعون .

معجزات موسى وايمان السحرة

تطور الجدل بين فرعون وموسى في شأن رسالته الالهية . فطلب فرعون من موسى دليلاً يشهد بصدقه ، فألقى حينئذ موسى عصاه من يده فإذا هي ثعبان لا شك فيه يتحرك ، واخرج يده من جيبه فإذا هي ناصعة البياض تتلألأ للناظرين .

رأى فرعون وحاشيته ذلك فعمدوا الى التمادي في تكذيب موسى ، واحالوا ذلك منه الى السحر ، وتشاوروا فيما بينهم في شأن موسى مؤكدين انه ساحر عليم بالسحر ، وغايته من ذلك ان يخرجهم من ارض مصر بسحره ليتملك عليها ، ثم سألهم ماذا يشيرون بأمره ؟ فأشار الاشراف على فرعون بأن يمهل موسى واخاه ويبعث في طلب السحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل

ما أتى به موسى ، لأن هذه المعجزة التي أتى بها متى كان في مقدور غيره أن يأتي بمثلها تنهار معجزته وتتلاشى دعوته .

أرسل فرعون اعوانه في انحاء مصر ليأتوه بالسحرة ، فجاءوا بكثيرين منهم ، فطلب السحرة من فرعون الأجر الجزيل إذا تفوقوا على موسى في سحره ، فقبل فرعون ذلك ووعدهم بجعلهم من المقرّبين ، هذا وقد كان للسحر منزلة عظيمة في ارض مصر يُعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه وهذا امر كشفت عنه الآثار المصرية حديثاً .

جاء اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى . وتدفقت جماهير غفيرة الى ساحة العرض وكان ذلك في يوم الزينة ويظن انه يوم وفاء النيل ، وكان اعظم اعيادهم .

دخل موسى في حوار مع السحرة هل يلقون سحرهم ، او يلقي هو سحره أوّلاً ؟ فأصر موسى على ان يلقوا سحرهم أولاً ، وكان عتادهم العصي والحبال ، فألقوها فامتلأ مكان العرض حيّات وثعابين ، وخيّل الى موسى والجماهير انها تسعى ، فخاف الناس من هذا المشهد واوقع في قلوبهم الرهب والرعب .

ابتهج فرعون وقومه وأيقنوا بنجاح السحرة ، وان موسى لا يمكنه التفوق عليهم ، ولكن الله اوحى لموسى أن يُلقي عصاه ، فألقاها كما أُمِرَ فإذا هي حية تبتلع بسرعة ما يكذبون ويموهون مما عرضوه من السحر .

دهش فرعون وقومه ، وعَلِمَ السحرةُ ان السحر لا يفعل ما فعله موسى ، وانما هي القوة الالهية صنعت هذا ، فخرّوا ساجدين لله قائلين : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

أيقن فرعون انه لم يقهر موسى ولكن موسى هو الذي قهره ، فأراد ان يستر فشله فقال للسحرة : إن موسى هو كبيركم الذي علمكم السحر . ولهذا تفوّق عليكم ، وغلب سحره سحركم ، قال هذا مع علمه بأن موسى لم

يعرفهم ، ولم يسبق له ان اجتمع بهم من قبل ، ولكن المقهور يلتمس لنفسه أي عذر . ثم أخذ يظهر جبروته على اولئك السحرة قائلاً : (آمنتم به قبل ان آذن لكم) مدّعياً بأنه المتصرف في وجدانهم ، وأنه كان على وشك أن يأذن لهم . ولكنهم أجرموا بإيمانهم قبل صدور الأذن منه . وهددهم بقطع الايدي والأرجل ، والصلب على جذوع النخل ، فلم يثنهم تهديده عن الايمان بل قالوا : إنّا الى ربنا راجعون وما عقابك لنا إلاّ لأننا صدّقنـا بموسى واذعنا لآيات ربنا الواضحة الدالة على الحق . ثم توجهوا الى الله ضارعين : يا ربنا افض علينا صبراً عظيماً لنقوى معه على احتمال عذاب فرعون وتوفنا مسلمين . اقرأوا هذه الآيات :

(قال : إن كُنتَ جئت بآية فأتِ بها ، إن كُنْتَ الصادقين . فألقى عصاهُ ، فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونـَزَعَ يـَدَهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرين . قال الملأ [1] مِن قوم فرعون : إنّ هذا لَساحِرٌ عليم ، يـُريدُ ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه [2] وأخـَاهُ ، وارسل في المدائن حاشرين [3] ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السَحَرة فرعون . قالوا : إن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ؟ . قال : نعم وإنكم لمن المقرّبين . قالوا : يا موسى ، إمّا أن تـُلْقِيَ وإمّا ان نكون نحن الملقين . قال : ألقوا . فلمّا ألقوا سَحَروا أعيُنَ الناسِ واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . واوحينا الى موسى : أن ألْقِ عصاك ، فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فـَغُلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين [4] . وأُلقِيَ السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون : آمنتم به قبل ان آذن لكم إن هذا لمكرٌ [5] مكرتموه في المدينـة

١ – الملأ : الأشراف .

٢ – ارجه : اي أخر أمره .

٣ – حاشرين : اي من يجمع السحرة .

٤ – انقلبوا صاغرين : رجعوا اذلاء .

٥ – المكر : الخداع .

لِتُخْرِجوا منها اهلها فسوف تعلمون . لاقطّعنَّ أيديكم وارجُلَكُم مِن خِلافٍ [١] ، ثم لأصلبنّكم اجمعين . قالوا : إنّا الى ربنا منقلبون ، وما تنقِمُ منّا إلاّ أن آمنّا بآياتِ ربنا لمّا جاءتنا . ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين [٢]) الاعراف : ١٠٦ - ١٢٦ .

صمود موسى واتبـــاعه

رأى فرعون الآيات التي أتى بها موسى فتمادى في كفره . وأصرّ على عناده ، ولامه الاشراف على ترك موسى واتباعه يعبدون الله وحده ويتركون عبادته هو وآلهته ، وهذا فساد في الأرض بزعمهم ، فطمأنهم فرعون واعداً إياهم قائلاً : سنقتل ابناءهم وسنترك نساءهم أحياء لاسترقاقهن ، ثم شرع يحقق وعيده السيء .

وطبيعي ان يضج بنو اسرائيل بالشكوى الى موسى مما اصابهم من الظلم فأوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل والاستعانة بالله على احتماله . ووعدهم بحسن العاقبة إن اتقوا . فلم يخفف ذلك من مصيبتهم بل قالوا له : اوذينا قبل ان تأتينا برسالتك كما اوذينا بعد مجيئك لنا بهذه الرسالة ، فقال لهم مواسياً : لعل الله يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاءه في الأرض التي وعدتم بها ، ليرى بعد ذلك ما يصدر منكم من عمل سيء او حسن فيجازيكم عليه .

اقرأوا هذه الآيات :

(وقال الملأ من قوم فرعون أتَذَرُ موسى وَقَومَهُ ليُفسدوا في الأرضِ ويَذَرَكَ وآلهتك . قال : سنُقتّل أبناءهم ونستحيي نِساءهم وإنّا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين . قالوا : أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن

---

١ - من خلاف : من كل ناحية من الجسم طرف كاليد اليمنى والرجل اليسرى .

٢ - مسلمين : اسلم الانسان وجهه إلى الله اخلص نفسه له لا يعرف له رباً ولا معبوداً سواه .

بعد ما جئتنا ، قال : عسى ربكم ان يُهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) الاعراف ١٢٧ — ١٢٩ .

مؤمن فرعوني يحذر قومه

ضاق فرعون ذرعاً بموسى ، فأتمر وقومه على قتله والخلاص من دعوته ، ومن فساده على زعمهم ، قال الله تعالى :

(وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليَدْعُ ربّه إني أخاف ان يبدّل دينكم أو ان يُظهر في الأرض الفساد) غافر : ٢٦ .

وبينما هم في أخذ ورد يقلبون أوجه الرأي في سبيل الإقدام على قتله إذ دفعت المروءةُ رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه ، فدافع عن موسى دفاعاً مجيداً مبيناً لهم انه ينبغي ان لا يقتلوا رجلاً يقول (ربي الله) وبالأخص انه جاءهم بالمعجزات الدالة على صدقه . ولو فرض انه كاذب فيما يقول ما نالهم ضرر من كذبه ، ولو انه كان صادقاً لأصابهم بعض الوعيد الذي توعدهم به . واستمر قائلاً لهم : انتم اليوم ذوو نفوذ وسيطرة في الأرض فمن يستطيع ان يدفع عنا عذاب الله ، اذا جاءنا ، فعارضه فرعون فيما رأى وادعى انه يهدي قومه سبيل الرشاد .

ثم اخذ هذا المؤمن يذكرهم بعذاب الله وبطشه في هذه الدنيا كما حصل في الأمم السالفة بسبب اعمالها السيئة ، ثم حذرهم من عذاب الآخرة يوم يحاول الكافرون الفرار من عذاب الله ولا مفر من هذا العذاب .

ثم ذكرهم بأن الدعوة التي جاء بها موسى اليوم ليست جديدة ، فقد جاء يوسف بالبينات الى آبائهم فارتابوا في صدقه حتى إذا توفي قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً ، ثم أبان لهم ان ذلك الموقف السيء أدى بهم الى الضلال لأنهم حين انصرفوا عن الرشد صرف الله قلوبهم عن الهداية ، اقرأوا هذه الآيات :

﴿ وقال رجُلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتُمُ إيمانَهُ : أتقتلون رَجُلاً ان يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يَكُ كاذباً فعليه كذبُهُ ، وإن يَكُ صادقاً يُصبكُم بَعضُ الذي يعِدُكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب . يا قوم لكم المُلْكُ اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصُرُنا من بأسِ[1] الله إنْ جاءنا . قال فِرعونُ : ما أُريكم إلاّ ما أرى ، وما أهدِيكُم إلاّ سبيل الرشاد . وقال الذي آمن : يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ؛ مثل دَأب[2] قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يُريد ظُلماً للعباد . ويا قومِ إني اخاف عليكم يوم التناد[3] . يوم تُوَلّون مدبرين[4] مالكم من الله من عاصم ومن يُضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبلُ بالبينات ، فما زِلتم في شك مِمّا جاءكم بَه حتى إذا هَلَكَ قُلتُم : لن يَبْعَثَ الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب .. ﴾ غافر : ٢٨ — ٣٤ .

دعوة الحق عـلى لسان المؤمن الفرعوني

تمادى فرعون وقومه في الضلال ، وتابع هذا المؤمن دعوتهم الى سبيل الحق والرشاد فنصحهم بعدم الاغترار بهذه الدنيا الفانية ، والعمل للآخرة ، دار البقاء ، فهناك يُجازي الله السيئة بمثلها . والحسنات يكافأ عليها المرء بأحسن ما يشتهيه ، ثم لامهم هذا المؤمن على دعوتهم له الى الكفر بينما هو يدعوهم الى الايمان ، فالآلهة التي يدعونه الى عبادتها لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة . حيث المرجع الى الله وحده ، ثم نبههم بأنه سيأتي وقت يذكرون فيه نصحه إياهم ، وأنه يفوض أمره الى الله ، ولقد هموا بقتله فوقاه الله سوء عملهم ، وكانت عاقبته السعادة . وعاقبة آل فرعون الشقاء .

---

١ — البأس : العذاب .
٢ — دأب : جزاء .
٣ — التناد : يوم القيامة .
٤ — تولون مدبرين : تبتعدون محاولين الهرب .

بيّن القرآن هذا النداء الذي وجهه ذلك المؤمن بأسلوب رائع يشع منه الاخلاص والصدق يجعلك تخرج من قراءته باقتناع تام بمصدره الالهي لما يثيره في نفسك من إحساس روحي ورعشة سماوية تصلك بالله.

اقرأوا هذه الآيات :

(وقال الذي آمن ، يا قومِ ، اتّبعون أهدِكُم سبيل الرشاد ، يا قومِ إنّما هذه الحياة الدنيا متاع [1] ، وإن الآخرة هي دارُ القرار [2] ، من عَمِلَ سيئة فلا يُجزى إلاّ مثلَها ، ومن عَمِلَ صالحاً من ذكَر او أنثى — وهو مؤمن — فأولئك يدْخلون الجنّة ، يُرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ؟ تدعونني لأكفُر بالله ، وأُشرِك به ما ليس لي به علم ، وأنا ادعوكم الى العزيز الغفّار ؛ لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردّنا الى الله وان المسرفين هم اصحاب النار [3] . فستذكرون ما أقولُ لكم ، وافوّض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد . فوقاهُ الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سُوءُ العذاب) غافر : ٣٨ — ٤٥ .

تبجح فرعون

استمر فرعون في غيه واخذته عزة الملك فجمع قومه ونادى فيهم قائلاً : يا قوم ألست ملك مصر وصاحب الأمر والنهي فيها ؟ اليس نهر النيل وفروعه تجري بين قصوري وجنائني ؟ ألست خيراً من هذا الحقير المهين (وهو موسى عليه السلام) ؟ هذا الذي لا يكاد يستطيع ان يعبّر عمّا يجول في خاطره (لحبسة في لسانه) ثم تابع قوله : ان هذا الرجل ليس عليه سمة

---

١ — انما هذه الدنيا متاع : اي هذه الدنيا يتمتع بها الناس تمتعاً موقوتاً ينتهي بانتهاء الآجال او بزوال اسباب التمتع كالمال او الصحة مثلا .

٢ — دار القرار : اي دار الاستقرار والاقامة والخلود .

٣ — وان المسرفين هم اصحاب النار : اي ان متجاوزي الحد في الظلم والاشراك هم الذين يدخلهم الله النار .

الرياسة ، فكيف تريدون ان تتبعوه دون ان تُلقى عليه اسورة الذهب فيتحلى بها كما يتحلى بذلك الملوك ؟ ولماذا لا تأتي معه الملائكة يمشون وراءه صفاً صفاً مقترناً بعضهم ببعض ليكونوا اتباعه واعوانه كما تمشي الحاشية خلف الملك ؟

استهوى فرعون بكلامه الباطل هذا عقولهم فأطاعوه وانقادوا اليه لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله . اقرأوا هذه الآيات :

(ونادى فرعونُ في قومه ، قال يا قومِ اليسَ لي مُلْكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي افلا تبصرون . أم انا خير مِنْ هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يُبين . فلولا أُلقي عليه أسورة مِنْ ذَهب او جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين) الزخرف : ٥١–٥٤

الفصل الرابع

سوء مصير فرعون وقومه

المصائب التي ابتلاهم الله بها – خروج بني إسرائيل وهلاك فرعون وقومه – مصير آل فرعون في الآخرة .

المصائب التي ابتلاهم الله بها

لم تنفع فرعون وقومه الموعظة الحسنة من موسى عليه السلام ، بل ازدادوا علوّاً في الأرض وطغياناً وتعذيباً للمؤمنين ، إزاء هذا دعا موسى ربه قائلاً : يا رب انك اعطيت فرعون والأشراف من قومه زينة الدنيا وبهجتها من الأموال والثياب الفاخرة والقصور والجنائن والسلطان . لكنهم قابلوا هذه النعم بالعناد والكفر وصرفوا الناس عن الايمان بك ، اللهم امحق اموالهم ، وزد قلوبهم قسوة وعناداً فلا يُوفقوا للايمان حتّى يروا العذاب الاليم رأي العين يصيبهم .

بهذا دعا موسى ربه وأمّن على قوله اخوه هارون ، فقال الله لهما : قد أُجيب دعاؤكما فاستمرا على السير في الطريق المستقيم واتركا سبيل اولئك الذين لا يعلمون سبيل الحق الذي وضح لكما . قال تعالى :

(وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على اموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) يونس : ٨٨ — ٨٩ .

استجاب الله دعاء موسى فعاقب فرعون وقومه بالجدب والقحط ونقص من ثمرات الزرع والاشجار رجاء أن ينتبهوا الى ضعفهم وعجز ملكهم والههم فرعون امام قوة الله فيتعظوا ويستجيبوا لدعوة موسى ، ولكن طبيعتهم تأبى العظة والاعتبار مما يصيبهم ، فإنهم إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا : نحن نستحق ذلك لما لنا من امتياز على الناس ، وإن اصابهم ما يسوءهم كقحط او مصيبة تنزل بهم يتشاءموا بموسى ومن معه ، ولكن هؤلاء لا يعلمون ان الخير الذي يأتيهم او الشر الذي يداهمهم انما هو مقدّر من عند الله . قال تعالى :

(ولقد اخذنا آل فرعون بالسّنين ونقص من الثمرات لعلّهم يذّكّرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون) الاعراف : — ١٣٠ — ١٣١ —

ولكن طبيعة فرعون وقومه الموغلة في السوء أبت الإذعان للآيات الواضحة التي تدل على رسالة موسى ، فاستمروا في إجرامهم حينئذ أصابهم الله بصنوف أخرى من المصائب والنكبات : بالطوفان يغمر ممتلكاتهم ومزارعهم ، وبالجراد يأكل مزروعاتهم ، وبالقمل وهو حشرة تفسد الثمار وتؤذي الإنسان والحيوان . وبالضفادع التي انتشرت في كل مكان فنغصت حياتهم وافسدت صفاء عيشهم ، كما ارسل عليهم آفة جعلت الدم يسيل من انوفهم وافواههم وتلوثت بذلك مياههم فضعفت اجسامهم ، وكانوا كلما حل بهم العذاب يقولون لموسى : لئن كشف الله ما بنا من سوء وعذاب سنؤمن بربك ونرسل معك بني اسرائيل ، ولكن ما إن يكشف الله عنهم العذاب حتى

ينكثوا بوعدهم . قال تعالى :

(وقالوا : مهما تأتِنا به من آية لِتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدّمَ آياتٍ مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولمّا وقع عليهم الرِّجز ١ ، قالـــوا : يا موسى ، أدْعُ لنا ربك بما عهد عِندَك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسِلنّ معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرّجز الى أجل هم بالِغوه إذا هُم ينكثون) الاعراف : ١٣٢ — ١٣٥ .

خروج بني اسرائيل وهــلاك فرعون وجنوده

جاء الأمر الالهي لموسى بالخروج من مصر ، فانطلق بقومه بني اسرائيل سراً من ارض مصر قاصداً فلسطين ليلاً .

علم فرعون بذلك فأرسل اعوانه في الأقاليم يجمعون الناس بعنف لتجهيز جيش كبير ليقتفوا أثَرَ بني اسرائيل ليدركوهم قبل ان يهربوا الى فلسطين ، ولم يرغب فرعون أن يظهر الخوف فأذاع في مصر ان الفارين شرذمة ضئيلة لا يخشى شرها ، وقد اغاظونا بهربهم وأخذهم اموالنا وحلي نسائنا ، وقد كنا دائماً متيقظين لهم نتتبع حركاتهم .

خرج فرعون وجنوده يتبعون موسى وبني اسرائيل وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وجنات وكنوز من الذهب ومقام كريم من المساكن الفخمة ، لقد تركوا هذه النعم الى الأبد لأنهم لن يرجعوا ابداً الى وطنهم ، ولكن بني اسرائيل ورثوا مثل هذه النعم في فلسطين .

وصل بنو اسرائيل الى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس عندئذ ايقنوا بالهلاك ، واستولى الذعر على نفوسهم وقالوا لموسى : لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به فماذا نفعل

---

١ — الرجز : العذاب .

والبحر امامنا؟ قال لهم موسى : لا تخافوا إن ربي معي سيرشدني الى طريق النجاة . عندئذ اوحى الله لموسى بأن يضرب البحر بعصاه ففعل ، فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد اسباط بني اسرائيل ووقف الماء بينها كالجبل العالي . سار بنو اسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر . وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبروه فرأى طريقاً في البحر ، فاقتحم هو وجنوده هذا الطريق خلف بني اسرائيل فانطبق الماء على فرعون وجنوده واغرقهم جميعاً ، وأنجى الله موسى ومن معه من بني اسرائيل .

وصف القرآن هلاك فرعون في عدة آيات منه لما يكمن فيها من العبر . وبأساليب شتى من البيان والفصاحة وكان الوصف تارة بآيات قصيرة زاخرة بالمعاني التي تتلاحق بسرعة وتارة بآيات طوال للتأمل وإمعان الفكر لما تحتويه من المعاني الرائعة .

وبعض هذه الآيات يعطيك المعنى موجزاً يغنيك عن الشروح الطويلة ، وهي بتنوعها واختلافها زاخرة بالايقاع الموسيقي القريب من الشعر والسجع ولكن لا هو شعر ، ولا هو سجع . اقرأوا هذه الآيات :

(وأوحينا إلى موسى : أن أسْرِ بعبادي ، إنّكم مُتّبعون . فأرْسَلَ فِرعونُ في المدائنِ حاشرين . إن هؤلاء لشرذمةٌ قليلون . وإنّهم لنـا لغائظون . وإنّا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون ، وكنوز ومقامٍ كريم [1] ، كذلك وأورثناها بني اسرائيل ، فأتبعوهم مُشرقين . فلما تراءى الجمعان ، قال اصحابُ موسى إنّا لمدركون . قال : كلاً ! إن . معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى : أن اضرِب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كُلّ فِرْقٍ كالطود العظيم [2] . وأزلفنا [3] ثَمّ الآخرين . وأنجينا موسى

---

١ – مقام كريم : منزل بهي بهيج .

٢ – كل فرق كالطود العظيم : كل جزء كالجبل العظيم .

٣ – وازلفنا ثم الآخرين : وقربنا هنا الفريق الآخر من البحر .

ومن معه اجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين) الشعراء : ٥٢ – ٦٧ .

ويصف القرآن الانحدار الأليم لقوم فرعون من النعيم إلى الهلاك بقوله :

(فأسرِ بعبادي ليلاً إنكم مُتّبعون . واتركِ البحر رَهْواً [١] إنهم جُنْدٌ مُغرقون . كم تركوا من جنّاتٍ وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين [٢] . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين [٣] . ولقد نجينا بني اسرائيلَ مِن العذاب المهين . من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين) الدخان : ٢٣ – ٣١ .

ويبين القرآن العاقبة الحسنى لبني اسرائيل على صبرهم بقول الله تعالى :

(فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يُستَضعفون مَشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت كلمةُ ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا . ودمّرنا ما كان يصنع فرعونُ وقومُهُ وما كانوا يعرِشون) [٤] الاعراف : ١٣٦–١٣٧ .

ويصف القرآن نفسية فرعون عند الغرق وبقاء حطام جسمه الى الآن :

(وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتْبَعهم فِرعونُ وجنودُهُ بغياً وعدْواً حتى إذا أدركَهُ الغرق قال آمنت انه لا اله إلاّ الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكُنتَ من المفسدين . فاليوم ننجيك بِبدنك لتكون لمن خَلْفَكَ آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) يونس : ٩٠ – ٩٢ .

تأمل قول الله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية)

---

١ – رهوا : ساكنا .

٢ – نعمة كانوا فيها فاكهين : رغد في العيش كانوا ناعمين فيه متمتعين به .

٣ – وما كانوا منظرين : لم يمهلوا الى وقت آخر .

٤ – يعرشون : يبنون من قصور وغيرها .

هذه الآية معجزة علمية للقرآن تشهد انه وحي الهي وأن محمداً رسول الله حقاً . فالآية تشير الى ان جسم فرعون سيبقى محفوظاً ليراه الناس ويعتبروا برؤية تلك الجثة لمن كان يعتبر نفسه الهاً والى القارىء توضيح ذلك :

تذكر التوراة ان فرعون مصر الذي اضطهد بني اسرائيل كان يستخدمهم في بناء مدينتين (فيتوم ورعمسيس) [1] وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود هاتين المدينتين اللتين بناهما رعمسيس الثاني .

وتذكر التوراة بعد ذلك (ان ملك مصر مات) [2] .

وكان ذلك عند هرب موسى الى مدين وقبل تلقيه رسالة ربه .

وقد خلف منفتاح بن رعمسيس الثاني أباه في الحكم ، فيكون منفتاح هو فرعون الخروج الذي أرسل الله موسى اليه لإخراج بني اسرائيل من مصر وهو الذي لحق بموسى عند البحر وغرق ، وبقيت جثته الى الآن كما يذكر القرآن وكما تحقق صدقه في سنة ١٩٠٠ بعد الميلاد اي بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن فقد عُثِرَ على جثته في الحفريات في الاقصر في قبر (امنحتب الثاني) وتعرض جثته اليوم بالمتحف المصري . والجدير بالذكر انه قد ظهر من آثار قبر منفتاح انه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظراً فلم يُهيأ له قبر خاص .

مصير آل فرعون في الآخرة

هذه كانت عاقبة آل فرعون في الدنيا من إغراقهم في البحر . أما في الآخرة فلم يهمل القرآن ذكر ما أعده لهم من العذاب بما فيه تبصرة وعظة لكل مؤمن ، قال تعالى : (وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب . النار يُعرَضون عليها غُدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدْخِلوا آل فرعون اشد العذاب) غافر : ٤٥ ـ ٤٧ .

---

١ ـ الفصل الأول من سفر الخروج آية ١١ .
٢ ـ الفصل الثاني من سفر الخروج آية ٢٣ .

الفصل الخامس

في الطريق الى أرض الميعاد

رواسب الوثنية في بني إسرائيل – فضل الله على بني إسرائيل – موعد لموسى مع ربه – عبادة بني إسرائيل للعجل – عقاب لبني إسرائيل ثم عفو عنهم – رفع الجبل فوق بني إسرائيل – إحجام بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة – تيهان بني إسرائيل .

رواسب الوثنيـــة في بني اسرائيل

لقي موسى الأهوال من بني اسرائيل في سبيل دعوتهم الى عبادة الله وحده . وكانت المعجزات التي ايّده الله بها كافية لأن تنزع منهم كافـــة رواسب الوثنية . ومع هذا فقد كانت تغلب عليهم الوثنية التي ألفوها طوال عهدهم مع المصريين .

فمن مظاهر ذلك انهم عندما جاوزوا البحر مرّوا على قوم يعبـــدون الأصنام فطلبوا من موسى ان يتخذ لهم صنماً يعبدونه مثل هؤلاء الوثنيين فلامهم موسى على جهلهم واكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام دينهم باطل واعمالهم خاسرة ولذا فإن مصيرهم الهلاك ، ثم ابدى عجبه

كيف انهم يطلبون معبوداً غير رب العالمين الذي خصهم باكرامه وفضلهم على الأمم التي كانت في زمانهم بوحيه ورعايته. اقرأوا هذه الآيات :

(وجاوزنا ببني اسرائيل البحر. فأتوا على قوم يعكُفُون [1] على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون. إنّ هؤلاء مُتَبّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغيرَ الله أبغيكُم إلهاً وهو فضّلكم على العالَمين) الاعراف : ١٣٨ — ١٤٠.

فضل الله على بني اسرائيل

تابع بنو اسرائيل مسيرهم وجاءوا الى الشاطىء الشرقي فلم يجدوا ماء لشربهم وسقياً لدوابهم. فشكوا امرهم الى موسى متذمرين وطلبوا منه الماء. فأمره الله ان يضرب الحجر بعصاه. فلما ضربه تفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً [2]، لكل قبيلة منهم عين ترويها.

ولما وصلوا الى سهول شبه جزيرة سيناء. والشمس فيها شديدة فلا مساكن يأوون اليها. ولا شجر يلتمسون تحته الظل. شكوا الى موسى ما يلقون من عناء فدعا موسى ربه فساق لهم الغمام يقيهم حرارة الشمس.

ولما كان زادهم عرضة للنفاد. سأل موسى ربه مرة اخرى الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى. والمن مادة تنزل من الجو كما ينزل الطل. تنزل على الحجر وورق الشجر طعمها حلو كالعسل. والسلوى طائر السماني يأتي اليهم أسراباً متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرته. وبعد ان تفضل الله عليهم بهذه النعم امرهم ان يأكلوا من هذه الطيبات. ولكنهم كفروا بتلك النعم وطلبوا غيرها. فكانوا بذلك من الظالمين لانفسهم. اقرأوا هذه الآية :

---

١ — يعكفون : العكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم.

٢ — هذه العيون بالبر الشرقي قريبة من مدينة السويس هي شهيرة بـ (عيون موسى) وقل اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره.

(وقطّعناهم اثنتي عشرة اسباطاً [1] أُمَماً ، وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه : أن اضرب بعَصَاك الحجر فانبجست [2] منه اثنتا عشرة عينا ، قد عَلِمَ كُلّ أناسٍ مَشْرَبَهُمْ وظلّلنا عليهم الغَمَامَ ، وأنْزَلْنَا عَلَيهِم المَنّ والسلوى ، كلوا من طيّبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، ولكن كانوا انفُسَهُم يظلمون) الاعراف : ١٦٠ .

موعد لموسى مع ربـه

اخبر موسى بني اسرائيل وهم بمصر ان الله سيهلك فرعون وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه الأوامر والنواهي التي ينبغي ان يسيروا عليها ، فلما اهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله ان يقصد سفح جبل الطور الأيمن ويمكث فيه ثلاثين يوماً صائماً متعبداً لله ، فلما اتم موسى ثلاثين يوماً ، أمره الله باستئناف الصيام عشرة أيام اخرى استكمالاً لعبادته وكان موسى قبل ان يتوجه لمناجاة ربه قد اوصى هارون قائلاً : كن خليفتي في قومي ، واصلح امرهم واحذر ان تتبع طريق المفسدين .

وبعد تمام الاربعين كلمه ربه بكلامه الازلي فنال بذلك حظوة امتاز بها عن البشر عندئذ عظم لهفه وغلبه شوقه فطلب من ربه التجلي عليه برؤيته ، فقال الله له : لن تراني ، ثم اراد الله ان يعلمه انه انما طلب شيئاً عظيماً لا تتحمله الجبال فقال له : (انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فلما تجلى ربه للجبل جعله مفتتاً مستوياً بالأرض وسقط موسى مغشياً عليه لهول ما رأى ، فلما أفاق من غشيته قال : انزهك يا رب تنزيهاً يليق بجلالك وأتوب اليك ، وأنا اول المؤمنين في زماني بعظمتك ، فخاطبه الله بأنه اصطفاه على الناس برسالاته (وهي اسفار التوراة) التي تحتوي على ما يحتاجه بنو اسرائيل من المواعظ والأحكام ، وامره أن يأخذ قومه بأحسنها

---

١ – الاسباط : اسباط بني اسرائيل هم سلائل اولاد يعقوب العشرة وسلائل ولدي ابنه يوسف .
٢ – انبجست : انفجرت .

أي يسيروا على افضل ما رسم فيها ، فإذا نُص على فعلين احدهما يستدعي ثواباً اعظم فعليهم أن يأخذوا بالأفضل . ثم حذر الله بني اسرائيل من الخروج عن طاعته لئلا يصيبهم بعذابه مثل ما اصاب غيرهم من الفاسقين .

اقرأوا هذه الآيات :

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، واتممناها بعشرٍ . فتَمّ ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلُفني في قومي واصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه ، قال : رب أرِني انظر اليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جَعَلَهُ دكّاً وخرّ موسى صعِقاً فلما افاق ، قال : سبحانك تُبْتُ اليك ، وانا أوّلُ المؤمنين . قال : يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتك وكُن من الشاكرين. وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء فخذها بقوّة وأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها سأُريكم دار الفاسقين) الاعـــراف : ١٤٢ — ١٤٥ .

عبادة بني اسرائيل للعجل

ذكرنا فيما سبق ان الوثنية كانت متأصلة آثارها في قلوب بني اسرائيل بسبب ملازمتهم الطويلة للمصريين . ومن مظاهر ذلك عبادة العجل ، فكانت العجول المؤلهة إذا ماتت في مصر حنطوها ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقاره تسمى (سرابيوم) .

وقد استغل هذه الظاهرة رجل ماكر من بني اسرائيـــل سماه القرآن (السامري) فجاءهم بعجل وقال لهم هذا الهكم واله موسى وقد نسيه هنا وذهب لملاقاته في هذه الغيبة الطويلة عنكم .

وتفصيل ذلك : ان موسى اخبرهم — قبل ذهابه لمناجاة ربه — ان غيبته عنهم لن تطول اكثر من ثلاثين يوماً ، فلما امر الله موسى أن يستأنف صومه

عشرة أيام أخرى وطالت غيبته عن قومه فاستبطأوه ، وقالوا ان موسى اخلفنا وعده . فعندئذ تحركت نزوة الشر في نفس السامري ، فاغتنمها فرصة وأخذ من بني إسرائيل بعض حليهم التي كان نساؤهم قد جلبنها من مصر ، وألقاها في النار وسبك منها عجلاً وجعله بطريقة هندسية خاصة تجعل الريح اذا دخلته تعطي اصواتاً من فمه كصوت البقر ، ثم امرهم السامري بعبادته .

تصدى لهم هارون وافهمهم انهم فتنوا وجهد في ردهم عن عبادة العجل فلم يفلح واصروا على عبادته حتى يرجع اليهم موسى .

فلما كلم موسى ربه اخبره ان قومه فتنهم السامري عن دينهم واضلهم ، فعاد موسى اليهم وهو في اشد حالات الغضب والحزن ، وقال لهم : ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بأن يعطيكم التوراة التي فيها هدى ونور وقد وفى بوعده ؟ أم طال بكم عهد مفارقتي لكم فاستبدلتم الكفر بالايمان ؟ ام اردتم ان تفعلوا فعلاً سيئاً يستوجب غضب ربكم فأخلفتم ما وعدتموني من الثبات على الايمان ؟ فقالوا لموسى لم نخلف وعدنا اياك باختيارنا ورغبتنا ولكن اضلنا السامري وغلبنا على رأينا وقال لنا إن ما لدينا من ذهب اخذناه من المصريين قد اغضب ربنا وما هو الا اوزار نحملها فتؤخر عودة موسى الينا ، والرأي أن نقذفها في النار ليرضى ربنا ويرجع موسى فصدقناه وقذفنا بالحلي في النار وكذلك فعل السامري فقذف ما معه من حلي ، واخرج لنا من هذه الحلي تمثالاً لعجل وقال لنا : هذا الهكم الذي ينبغي ان تعبدوه ، وهو اله موسى الذي غفل عنه وذهب يطلبه في الطور .

ما اسخف عقول هؤلاء القوم افلا يرون ان هذا التمثال لا يضرّ ولا ينفع ولا يقدر ان يرد عليهم الكلام لأنه جماد صامت ؟!

ثم توجه موسى الى اخيه هارون وقال له في عنف وهو يجذبه من لحيته وشعر رأسه : ما منعك إذ رأيت القوم وقد فتنوا ومالوا الى عبادة العجل ان تتبعني وتلحق بي لتخبرني بحالهم ؟! فقال هارون : خشيت ان تظن اني

فرقت بين بني اسرائيل فجعلت فريقاً يتبعك وفريقاً يتبع السامري ، وخشيت ان تقول لي : إنك تركتهم وقد امرتني بالبقاء معهم فانتظرتك حتى تعود .

ثم اقبل موسى باللوم الشديد على السامري الذي تسبب في اضلالهم فأجابه السامري قائلاً : عرفت ما لم يعرفه احد من انكم لستم على حق وكنت قد اتبعتك واخذت بشيء من دينك ثم تركته وعدت الى عبادة العجل . وبمثل هذا حدثتني نفسي وحسنته لي ففعلته . عندئذ قال له موسى : إذهب فإن الله عاقبك بأن تقول في حياتك : « لا مساس » فكان يتألم من مس اي انسان له ، فإذا لقي إنساناً وخشي ان يمسه يقول له « لا مساس » . ثم ذهب موسى نحو العجل فأحرقه واذرى بقاياه في البحر .

ندم بنو اسرائيل على زلتهم ، واستغفروا ربهم . فأوحى الله لموسى ان توبتهم تكون بقتل أنفسهم ، اي بكبت شهواتها وتطهيرها من الشرور والآثام وتجريدها من كل مشتهى مرغوب ، عندئذ يتوب الله عليهم . اقرأوا هذه الآيات :

(قال فإنّا قد فتَنّا قومك من بَعدِك وأضلّهُمُ السامريّ . فرجع موسى الى قومه غضبان أسِفاً ، قال يا قوم ألَمْ يَعِدْكم ربكم وعداً حسناً . أفطال عليكم العهد ام اردتم ان يَحلّ عليكم غَضَبٌ من ربكم فأخلفتُم موعدي . قالوا : ما أخلفنا مَوْعِدك بِمَلْكِنا [1] ولكِنّا حُمّلنا اوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامريّ . فأخرج لهم عِجْلاً جسداً له خوارٌ فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي . افلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فُتِنْتُم به . وإنّ ربّكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى . قال يا هرونُ ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتّبِعَنِ . أفعصيْتَ امري . قال يابن أمّ لا تأخذ

---

١ – بملكنا : باختيارنا .

بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ ان تقول فرّقْتَ بين بني اسرائيل ولم ترقُب قولي . قال فما خطبُك يا سامري ؟ قالَ بَصُرْتُ بما لم يبصروا به فقبَضْتُ قبضةً من أثَرِ الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي . قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مِساس ، وإن لك موعداً لن تُخْلَفه وانظر إلى الهك الذي ظلتَ عليه عاكفاً لنحرقنّه ثم لننْسفنّه في اليمّ نسفاً) طه : ٨٣–٩٨.

ويشير القرآن الى هذا في موضع آخر : (وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا فانفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم [1] فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) البقرة : ٥٤ .

عقاب لبني اسرائيل ثم عفو عنهم

رأى بنو اسرائيل انهم قد ظلموا انفسهم ، وقارفوا اثماً كبيراً بعبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً للذهاب معه الى جبل الطور – الذي اعتاد ان يناجي ربه فيه – ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم ، وهناك كلّم الله موسى ، ولكن جماعة منهم لم يؤمنوا ان الله هو الذي يكلم موسى فتمردوا وعصوا وقالوا لـه : لن نؤمن بكَ حتى نرى الله جهرة بأعيننا لا يحجبه حاجب . على إثر هذا الطلب اخذتهم الصاعقة فراحوا يتساقطون على الأرض صرعى ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم بعد ان تضرع موسى ، وطلب العفو عمّا صدر من سفهائهم وبعد ان دعا ربه ان لا يؤاخذ المجموع بما فعله بعض السفهاء . فغفر الله لهم ذلك واعادهم الى الحياة ، فطلب موسى عندئذ الرحمة لقومه والاحسان لهم في الدنيا والآخرة فأخبره ربه بأن ذلك راجع لمشيئته . كما اخبره انه كتب رحمته للمتقين الذين يؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآيات الله . قال تعالى :

(واختار مُوسى قومَهُ [2] سبعين رجُلاً لميقاتنا [3] ، فلمّا اخذتهم

---

١ – بارئكم : خالقكم .

٢ – قومه : اي من قومه .

٣ – لميقاتنا : اي للوقت الذي وقته الله ليعتذروا به عما صدر من سفهائهم من عبادة العجل .

الرجفة[1] قال : رب ، لو شئتَ أهلكتهم من قَبْلُ وإيّاي اتهلكُنا بما فعَلَ السفهاء مِنّا ؟ إن هي إلاّ فتنتك تُضِلّ بها من تشاءُ وتهدي من تشاءُ ، انت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدُنيا حَسَنةً وفي الآخرة إنّا هُدْنا اليك ، قال : عذابي أُصيبُ به من أشاءُ ورحمتي وسِعَتْ كُلّ شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الاعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(وإذ قُلتُم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) البقرة : ٥٥ ، ٥٦ .

رفع الجبل فـــوق بني اسرائيل

استمر موسى في اصلاح بني اسرائيل ولكنه رأى منهم معارضة وقسوة ، عندئذ تهددهم الله بالسحق بأن رفع جبل الطور فوقهم فارتاعوا وظنوا انه واقع عليهم فتضرعوا الى الله فأمرهم أن يأخذوا حينئذ ما آتاهم من الاحكام بقوة اي بدون تذمر وان يحافظوا عليها اشد المحافظة وان يدرسوا ما في الكتاب ولا يغفلوا عنه لعلهم بذلك يصبحون من المتقين ، فلمـــا ازال الله عنهم هذه الغمة أعرضوا عن هدى الله . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لكانوا من الخاسرين . قال تعالى :

(وإذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) البقرة : ٦٣ ، ٦٤ .

احجام بني اسرائيل عن دخـــول الارض المقدسة

أمر الله موسى ان يذهب ببني اسرائيل الى الارض المقدسة فلسطين للاقامة بها . فخاطب موسى قومه مذكراً اياهم بالنعم التي انعم الله عليهم :

---

١ – الرجفة : الزلزلة الشديدة ، اي اصابتهم رجفة الجبل بالصعق .

بأن جعل فيهم أنبياء كثيرين لهدايتهم من الضلال ، وأنه جعلهم أحراراً بعد أن كانوا في رق العبودية ، وآتاهم من النعم الكثيرة التي اختصهم بها على عالم زمانهم ، فمن واجبهم إزاء ذلك ان يشكروا الله ويتلقوا ما يأمر به بقبول حسن .

وقبل ان يطلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة ارسل رواداً للإستطلاع وليأتوه بخبر أهلها ، فلما رجعوا اخبروه ان قومها أقوياء طوال الهامات ، ومدنها حصينة ، فارتاع بنو اسرائيل وتولاهم الفزع ولم يمتثلوا لأمر موسى بمباشرة الغزو ، بل قالوا له : ان في هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ما داموا فيها ، فإذا ما خرجوا منها فإنّا نلبي طلبك وندخلها . اقرأوا هذه الآيات :

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤْتِ احداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كَتَبَ الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) . المائدة : ٢٠ ، ٢١ .

تيهان بـني اسرائيل

وحيث ان كل جماعة لا تخلو من افراد ذوي مزايا حسنة فقد انبرى رجلان – ممن فطر الله نفسيهما على التقوى – الى قومهما ناصحين : ادخلوا على القوم في عقر دارهم من باب المدينة عندئذ يدخل الذعر قلوبهم فتنتصروا عليهم ، وتوكلوا على الله إن كنتم تؤمنون به حق الايمان .

ولكن بني اسرائيل أبوا النصيحة وقالوا لموسى هذه الجملة التي تفوح باللؤم والتمرد والجبن : (اذهب انت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون) .

هكذا كانت نهاية المطاف بموسى ، نهاية الجهد والسفر الطويل : اعراضاً

من بني اسرائيل عن دخول الأرض المقدسة .

ماذا يصنع موسى بعد هذا الجهد الجهيد في اصلاح قومه وتمردهم المستمر ؟ هل هناك غير الشكوى لله قائلاً : رب لا سلطان لي إلا على نفسي واخي فاقض بعدلك بيننا وبين هؤلاء الفاسقين . فاستجاب الله له واخبره بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم وانهم سيتيهون في الأرض في صحراء سيناءِ اربعين سنة ، فلا يأخذه الحزن على هؤلاء الخارجين على طاعة الله ، اقرأوا هذه الآيات :

(قال رُجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا : يا موسى إنّا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك. فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون . قال : ربّ إني لا أملك إلاّ نفسي واخي فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرّمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين) . المائدة : ٢٣ — ٢٦ .

الفصل السادس

دروس وعبر من قصة موسى

الاقتداء بموسى عليه السلام — اصلاح الأمم بعد فسادها — عاقبة الكفر والظلم — صمود العقيدة — انتصار الحق على الباطل — حرية الشعوب — الدعوة الى الكفاح — تقويض الطغيان — نجاة المؤمنين — التحرر من سلطان التقاليد — التحلي بالقول اللين .

الاقتداء بموسى عليه السلام

القرآن يختار من قصة موسى المثل السامي الذي يصلح للقدوة ، ويغري النفوس بالترفع عن سفاسف الحياة وصغائرها ، وهكذا شأن القرآن في قصصه بصورة عامة . وفي قصة موسى يعرض القرآن صوراً من كفاحه وصبره على لؤم بني اسرائيل وتمردهم المستمر . فلم ييأس ، بل ثابر على محاولة هديهم ، وتقويم اعوجاجهم صابراً متحملاً مشاق الدعوة .

كما يعرض علينا القرآن ألواناً من شجاعة موسى المحفوفة بالمخاطر بما يفوق الوصف ، فقد واجه ملكاً ظالماً متألهاً ، وواجهه برسالة الهية تهدم

ألوهيته وتساويه برعيته ، فلم يخشه ، ولم يثنه عن هدفه اي تهديد ، ولهذا كان موسى من اولي العزم[1] من الرسل الذين أمر القرآن الاقتداء بهم في صبرهم وكفاحهم : (فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل) .

ولكن ما تعليل هذه التضحيات الجسام من رسل الله ؟ انه الايمان الذي تغلغل في أرواحهم فألهب فيهم حب الاصلاح .

فحب الاصلاح يولد في النفوس الكريمة السامية سعادة ولذة معنوية لا تفوقها لذة أخرى ، يستهينون في سبيلها ما يلاقونه من مخاطر وصعاب ، فلا السجن ، ولا العذاب ، ولا التنكيل ، تثني هممهم عن متابعة جهادهم . فكأن الألم نفخ في أرواحهم قوة جبارة فأحالها نفوساً أقدر من غيرها على تحمّل ما يصادفونه من صعاب وأهوال ، في سبيل الدعوات والرسالات التي نذروا أنفسهم في سبيلها .

اصـــلاح الأمم بعد فسادها

ان الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد ، وتُعامل بالظلم والاضطهاد من قِبَل حكامها تَفسُدُ اخلاقها ، وتذل نفوسها ، فتستسيغ حكم كل طاغ ، وإذا طالَ عليها الأمد تصبح هذه الأخلاق موروثة ومن صميم طباعها .

هكذا كان الحال مع بني اسرائيل ، افسد ظلم الفراعنة فطرتهم في مصر ، وطبع عليها طابع المهانة والذل والجبن الى ان جاءهم موسى يدعوهم الى الجهاد لدخول الأرض المقدسة ، ولكن نفوسهم المهينة التي ألفت الذل والاستعباد لم تطاوعهم على الجهاد ، لهذا يخبرنا القرآن ان الله تركهم يتيهون في الصحراء اربعين سنة (قال : فإنها محرمة عليهم[2] اربعين سنة يتيهون

---

١ – اولو العزم : ذوو الثبات والحزم والجد .
٢ – عليهم : المقصود بذلك بيت المقدس .

في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) .

تلك هي التّربية الالهية التّي اخذهم بها رب العالمين ، وهي ان يتيهوا في الصحراء لتّربى فيهم عناصر البأس والقوة والاعتماد على النفس ، وليذهب الجيل القديم الذي رضخ للطغيان ، واستعذب العبودية ، ولينشأ جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وقسوتّها ، وعدل الشريعة وهدايتها ، رباهم الله هذه التّربية ليمكنهم بعد ذلك من دخول الأرض المقدسة ، فيكون لهم بذلك السيطرة على نفوسهم والاستجابة السريعة للواجب ، والحياة الصحيحة ، حياة السيد العزيز لا العبد الذليل . فعلينا ان نعتبر بهذه التّربية الالهية ونعلم ان اصلاح الأمم بعد فسادها إنما يكون بانشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وما فيها من استقلال وخشونة ، وبين العمل بالشريعة الالهية وما فيها من هدى وعدالة .

ونستطرد في هذا المقام قليلاً ونلقي نظرة على مجتمعنا الذي تغلغل فيه الفساد فنجد ان من اهم المؤثرات التّي توجّه الاجيال الجديدة هي : الافلام ، وبرامج التلفزيون ، والصحف ، والمجلات . فهل من الصواب ان نهمل هذه المؤثرات وندعها لأهواء المنتجين والمخرجين وأصحاب الصحف في سبيل زيادة مواردهم من المال . ولــو كان ذلك على حساب إفساد الأمة وميوعتها ؟

وهل من الصواب يا قوم ان نقلد افلام هوليوود المائعة التّي يسيطر على اكثر الشركات السينمائية فيها اليهود . ونسير على طريقتهم واسلوبهم في الموضوعات ومشاهد الافلام المغرية ؟ لماذا لا تساهم الحكومات العربية في انتاج الافلام التوجيهية وتمنع انتاج الافلام المائعة المستهترة ؟

لماذا لا تقيم الحكومات العربية رقابة شديدة صالحة على الافلام المستوردة من الخارج التّي تنشر الخلاعة والاستهتار والفساد بين ابناء الجيل الجديد ؟

لماذا لا تقفل الحكومات العربية ابواب الصحف التّي تنشر مثالب الناس

وتستغل الفضائح ، وتنشر الصور الخلاعية في صدر صفحاتها إرضاء لنزوات الناس من جهة وطمعاً بالتجارة الرخيصة من جهة اخرى ؟

لماذا لا تمنع الحكومات العربية الرقص الشرقي والاجنبي المثير من برامج التلفزيون ، هذا النوع من الرقص الذي ليس له غاية إلاّ اثارة الشهوات البهيمية وخصوصاً عند المراهقين فيصيبهم من ذلك اضرار كثيرة في نفوسهم ، ومنهج سلوكهم ؟ ولماذا لا تمنع الافلام البوليسية التي يكثر فيها القتل والاجرام والتي تطبع في عقول بعض الشبان هستيريا السلب والجريمة .

لماذا لا تقف الحكومات العربية سدّاً امام سيل هذه الأزياء المستوردة من الخارج والتي تكشف عن عورات البدن ومفاتنه مما تستنكرها الأديان ، والتي تلهب عواطف وشعور الشبان فتصرف افكارهم عن الدرس والعمل الجدي المثمر لهم ولأمتهم ؟ هل هذه هي المدنية ؟ لا ... انها الجانب المريض النتن من المدنية والتي تهدّد المجتمع بشر الكوارث .

عاقبة الكفـــر والظلم

يتساءل الانسان عن الكوارث الطبيعية وغيرها التي تصيبه ، فمن زلازل مهدمة مخربة ومن فيضانات تقضي على الثروة القومية وتشتت وتهلك الألوف . ومن رياح هوجاء تدمّر ما أفنى الانسان عمره في تشييده ، ومن حروب تثيرها اطماع القادة يجيء من ورائها الخراب الشامل .

يتساءل الانسان عن اسباب ذلك كله في قرارة نفسه ولا يجد الجواب المقنع ، ويؤدي به هذا التساؤل الى التشاؤم والنظر الى الحياة بمنظار اسود يفقده هناء العيش وصفاء الاستقرار النفسي .

هذا التساؤل في اسباب هذا العذاب الذي يصيب الناس يجيب عليه القرآن في عدة مواضع منه وفي قصة موسى بالذات ويبين ان من اسبابه الكفر والظلم واقتراف الذنوب ، والظلم والكفر تعبيران اطلقا في القرآن

واريد بهما عدم الايمان بالله او الاشراك به والاعراض عن شريعته والتعدي على حدوده وذلك باقتراف المعاصي والشرور والآثام .

جاء في القرآن : (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة) آل عمران : ٥٦ .

وقال تعالى : (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً) الكهف : ٥٩ .

ويعدد الله انواع الهلاك بقوله : (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) العنكبوت : ٤٠.

يذكر الله في هذه الآية انواع العذاب التي ارسلها للأمم العاصية فمنهم من اهلكه بالريح العاصف التي تحمل الحصباء ومنهم من اهلكه بالصاعقة ومنهم من اهلكه بخسف الأرض ومنهم من اهلكه بالغرق .

وفي قصة موسى في القرآن يقص علينا سبحانه وتعالى ما اصاب قوم فرعون بسبب ظلمهم واعراضهم عن الايمان بقوله : (واستكبر [1] هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) القصص : ٣٩ ـ ٤٠ .

ويصف القرآن مآل حالهم عندما غرقوا في البحر معدداً ما خلّفوا وراءهم من بساتين وقصور وبحبوحة من العيش للعبرة والعظة (كم تركوا من جنّات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونَعْمةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين) الدخان : ٢٨ . انظر الى هذه الصورة البلاغية التي ذكرها القرآن عن مآل حالهم (فما بكت عليهم السماء والأرض) انها تجسّم النهاية

---

١ ـ استكبر : المراد به فرعون .

التعيسة المفجعة للظالمين الذين لم يتأثر ولم يحزن عليهم اي مخلوق حتى الجماد.

فالقرآن في ذكر هذه الوقائع من التاريخ القديم غايته : دعوة الناس الى النظر في تاريخ من قبلهم نظرة استفادة ، ودرس عوامل الفناء والبقاء للأمم السالفة ، وبيان أن الحصول على السعادة لا يكون إلاّ بالايمان والعمل الصالح وان الذنوب عاقبتها وخيمة على الجنس البشري ، وهذا ما اكده القرآن ايضاً في قوله تعالى : (اولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشدّ منهم قوّة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق[1]) غافر : ٢١ .

صمود العقيدة

العقيدة السليمة إذا رسخت في النفوس وحلت في القلوب لا تزحزحها جميع القوى المادية . هذا درس نتلقاه من سحرة فرعون عندما آمنوا برسالة موسى عن اقتناع ، وعندما تلقوا تهديد فرعون الذي قال فيه : (لأقطّعن ايديكم وارجلكم من خلافٍ ثم لأصلبنكم اجمعين) الاعراف : ١٢٤ .

ماذا كان جوابهم لفرعون ؟ هل ارهبهم تهديده ؟ كلا ... بل أجابوه بهذا القول العظيم الذي يثير الرعشة في النفوس لما يحمل في ثناياه من التضحية والاستماتة في سبيل المبدأ :

(قالوا : إنّا الى ربنا منقلبون وما تنقم منّا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) الاعراف : ١٢٥ ، ١٢٦ .

وقفة قصيرة امام هذه الآية العظيمة ومعانيها السامية . فالسحرة يقولون (إنا الى ربنا منقلبون) هذا الاعتقاد يخفف من وقع المصيبة . فالانسان مرجعه الى الله عاجلاً ام آجلاً ولا بأس بالتعجيل بلقياه إذا كانت هذه ارادته . والحصول على مرضاته ، ويقولون ايضاً : (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا

---

١ – واق : اي حافظ يحفظهم من عذاب الله .

مسلمين) فالمصائب والآلام التي يلاقيها الانسان من مرض وفقر واضطهاد ، وفقد عزيز لتزحزحه في بعض الاحيان عن ايمانه ويقينه بالله وترميه في بؤرة الكفر والتشاؤم ، فدعاء السحرة يحمل في ثناياه العزم على تحمل الآلام والاستمرار النهائي في الايمان مهما كانت النتائج .

فالآلام والمصائب هي أشد ما تمتحن به النفس الانسانية ، إنها اختبار وامتحان لجوهر العقيدة ودرجة تغلغلها في النفس ، ولهذا حذّر القرآن من الإيمان السطحي الضعيف الذي لا يصمد لعاديات الزمان والذي لا ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ، بقوله :

(ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ فإن أصابه خير اطمأنّ به ، وإن اصابته فِتْنَةٌ انقلب على وجهه ، خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) الحج : ١١ .

انتصار الحق عـــلى الباطل

وتفيدنا قصة موسى ان الباطل مهما استعلى ووجد له انصاراً واعواناً فلا بُدّ من هزيمته أخيراً امام الحق ، فهؤلاء السحرة الذين جاءوا بالباطل وسحروا اعين الناس لم يدروا ان الله سيؤيد رسوله موسى عليه السلام بمعجزة هي اقوى من سحرهم ، وهذا ما يقصه علينا القرآن : (وأوحينا الى موسى ان الق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبَطَلَ ما كانوا يعملون) الاعراف : ١١٧ ، ١١٨ .

انها وقفة قصيرة يبين لنا فيها القرآن جولة الحق مع الباطل الذي لم يلبث أن خرّ صريعاً .

فالسحرة كانوا اعلم الناس بباطلهم واعرف الناس بالذي جاء به موسى لهذا كانوا أول من آمن برب موسى ، فتوعدهم فرعون بالتنكيل والعذاب الأليم فما أعاروا ذلك أهمية بل أجابوه بنفوس مؤمنة ليس فيها مجال للشك :

(إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر) طه : ٣٧ .

وقد صوّر العالم الأخفش[١] هذه الواقعة بوصف بليغ فقال : (قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود . ثم القوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين) .

حرية الشعوب

وفي قصة موسى تقرير لحرية الشعوب وحقها في التخلص من استعباد الأقوياء وذلك في قوله تعالى عن بني اسرائيل وفضله عليهم عندما حرّرهم من ذل الاستعباد الذي ذاقوا اهواله حيناً من الدهر (ونريد ان نَمُنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) القصص : ٥ .

فهذا النص القرآني يُعلن بأن لا موجب لأن تستضعف أمة غيرها وتخضعها لقوتّها وسيطرتّها وتستغل مواردها . فاذا فعلت ذلك كان الله في عون المستضعف فينصره ويحرره من ربقة الاستعباد والطغيان . والتاريخ يحمل في طياته البراهين الكثيرة على امم تحررت من سيطرة المستبدين ، وكانت عاقبة هؤلاء وخيمة إذ انقض عليهم المستضعفون وانتقموا منهم اشد الانتقام .

وقد جاء على لسان موسى استنكار الاستعباد بما ذكرته الآية القرآنية التالية : (وتلك نعمة تَمنّها عَليَّ ان عبّدت بني اسرائيل) الشعراء : ٢٢ . هذه الآية جاءت على لسان موسى عندما تمن عليه فرعون من انه رباه وأنشأه في قصره . فموسى يقول له : كيف تظهر منتك عليَّ وأنت تستعبد قومي وتفتك بهم ؟ وفي فحوى هذا القول حملة جريئة على العبودية وتقريع لفرعون المتكبر المستبد وانتقاد عنيف لتصرفاته .

---

١ — الأخفش : هو من مشاهير النحاة في اللغة العربية .

الدعوة الى الكفـــاح

وإن في ايمان قوم موسى وتحملهم ايذاء فرعون ، ووصايا موسى لهم بالصبر والكفاح لدرساً للمؤمنين ليستمروا في كفاحهم في سبيل عقيدتهم .

فهؤلاء المؤمنون برسالة موسى يمعن فيهم فرعون تقتيلاً وتعذيباً ، فيواسيهم موسى بقوله : (استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) في هذه الآية يوصي موسى اتباعه بالصبر ويعدهم بالنصر إذا اتقوا ربهم .

ولكنهم يتململون تحت وطأة العذاب الأليم فيجأرون بالشكوى اليه قائلين : (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فيجيبهم موسى : (عسى ربكم ان يهلك عدوكم) ففي هذه الأجابة تجرد واضح من التشبث بالنصر العاجل . فهلاك العدو بيد الله إن شاء قدّمه وإن شاء أخره ، ولكن الله سينصرهم عاجلاً او آجلاً ليرى ما يصدر منهم من عمل كما تقول بذلك تتمة الآية (ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) .

فهذا الاعتقاد إذا سيطر على المؤمنين : من ان الله سينصرهم على اعدائهم إذا استمروا في كفاحهم له اكبر الأثر في شحذ الهمم وتقوية العزائم ، وإزالة الوهن من النفوس ، وإبعاد اليأس عن القلوب .

تقويض الطغيـــان

وانتصار موسى على فرعون مثل واضح لتقويض الطغيان يعرضه القرآن لكل أمة يطغى حاكمها كما طغى فرعون .

ومظاهر طغيان فرعون تظهر لنا فيما يلي :

فهو الذي اعلن الوهيته في قومه (يا ايها الملأ ما علمت لكم من اله غيري) .

وهو الذي قال لموسى مهدداً (ولئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) .

وهو الذي قيد عقائد الناس وعقولهم فليس لأحد منهم ان يؤمن بشيء إلا بإذنه فهو القائل : (آمنتم له قبل ان آذن لكم) .

وهو الذي فرّق الأمة وجعل أهلها شيعاً واحزاباً ليسهل عليه السيطرة عليها كما يفعل المستعمر اليوم في الأمم الضعيفة . او كما يفعل الحاكم الظالم لاستمرار حكمه وهذا ما ذكره القرآن بقوله : (ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً) .

وهو الذي اصم اذنيه عن سماع كلمة الحق (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وقالوا من اشد مِنّا قوّة) .

وهو الذي ظلم وساقه طغيانه الى كل اسباب العسف والظلم فقتّل ابناء بني اسرائيل ، وابقى نساءهم احياء فقال كما حكى القرآن عنه: (سنقتّل ابناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون) .

ولقد بيّن القرآن نتيجة هذا الطغيان والاستكبار والتكذيب بآيات الله (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) .

إن في ذلك لعبرة للطغاة ودرساً للأمم المضطهَدة كي تصمد وتكافح طغيان حكامها لأن النصر حليفها في النهاية .

نجاة المؤمنين

يتراءى لنا ذلك عندما أذن الله لموسى ومن آمن معه بالرحيل من مصر . وكيف ان فرعون استنفر جنوده وخرج وراءهم يريد اهلاكهم ، فأدركهم عند ساحل البحر . والتفت اصحـــاب موسى وراءهم فرأوا الهول يتبعهم ونظروا أمامهم فلم يروا إلاّ البحر بأمواجه فظنوا ان هلاكهم قد قرُب ولكن موسى ثبت امام هذا الرعب الذي سيطر على اصحابه ولم يجزع بل قال لقومه هذه الجملة الطافحة بالايمان: (ان معي ربي سيهدين) هذه الجملة مثل حيّ يضعه القرآن امام الذين يجاهدون في سبيله بأن لا يجزعوا ولا ييأسوا عند

المصائب بل يرددوا هذه الجملة في انفسهم مطمئنين الى نصر الله وفرجه وهذا الذي حصل لموسى مع فرعون كما قصه علينا القرآن : (وانجينا موسى ومن معه اجمعين ثم اغرقنا الآخرين ان في ذلك لآية ومـــا كان اكثرهم مؤمنين) .

التحرر من سلطان التقاليـــد

صوّر القرآن سيطرة التقاليد على قوم فرعون عندما خاطبوا موسى في شأن الدعوة الجديدة التي أتاهم بها (قالوا : أجئتنا لِتَلْفِتَنَا [1] عمّا وجدنا عليه آباءنا) يونس : ٧٨ .

فسلطان التقاليد له قيمته وله وزنه من الناحية الاجتماعية في كل أمة . وقد يكون حجر عثرة في سبيل رقيها وتقدمها ويجعلها تقف دائماً امام التقاليد التي ورثتها من تراث الآباء والأجداد ولو ناقضت الحقائق . فالتقليد من هذه الناحية من أمارات الجمود والتخلف يجعل الأمة غير قادرة على الحركة والسير في مضمار الرقي ، ومسايرة ما يحدث من تطورات اجتماعية ، فأعظم ضرر يصيب الجماعات البشرية ويمنعها من ارتياد طرق النجاح هو التقليد الأعمى للآباء ، وقد ادى التقليد في بعض الجماعات الى الاعتداء على دعاة الحق واضطهادهم كما وقع لكثير من الانبياء والمصلحين من اممهم التي لم تستطع الافلات من ربقة التقاليد .

ومن روعة القرآن انه حارب التقليد الاعمى للآباء بدون روية وتبصر وبيّن متسائلاً : كيف ينقاد الانسان الى آبائه ولو كانوا لا يسلكون طريق العقل ، أو كانوا على ضلال ؟ وهذا ما قاله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) البقرة : ١٧٠ .

---

١ – لتلفتنا : لتصرفنا .

التحلي بالقول اللـــين

تلقى موسى وهارون أمر ربهما بدعوة فرعون الى عبادة الله ، ولكن ما هي الطريقة التي يجب ان يتبعاها ؟ لقد أمرهما الله أن يبلغا فرعون الرسالة الالهية بلين ورفق (فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر او يخشى) .

انه إرشاد سام ذكره القرآن ليكون مثالاً يحتذى به في كل الأزمان والظروف فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا صاحبهما اللين . كانا أفعل واشد أثراً في النفس في ردها عن غيّها ، لأنه يترك لها فرصة التفكر في الوضع الذي هي فيه وفي فائدة النصيحة التي القيت اليها وهذا ما يرضي كرامتها وكبرياءها ويجعلها طيّعة لقبول ما يعرض عليها من الخير إذا صاحبه الاقناع . بخلاف طريقة القسر والشدة والقول الغليظ فإنه يحملها على التمرد والنفور ، وعدم تقبل النصيحة .

الفصل السابع

ثلاث قصص وقعت في عهد موسى

قصة البقرة – قصة قارون – قصة موسى والعبد الصالح .

قصة البقرة

قتل رجل قريبه الثري ليرثه وأتى رسول الله موسى وقال له : إن قريبي قُتِلَ وإني لا أجد احداً يظهر لي قاتله غيرك . وقصْدُ هذا الرجل ان يدفع التهمة عن نفسه ويحصل على الإرث . فنادى موسى في الناس من كان عنده علم من هذا الامر فليبينه ، فجعل كل من تحوم عليه الشبهة يدفع عن نفسه تهمة القتل ويلحقها بسواه ولم يكن هناك شاهد للجريمة فأراد الله ان يظهر الحق على لسان القتيل ذاته فأمر بني اسرائيل على لسان موسى ان يذبحوا بقرة . جاء في القرآن :

(وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم ان تذبحوا بقرة) .

ولكن بني اسرائيل لم تكن عندهم الطاعة التي يتحلى بها المؤمنون لذلك استقبلوا الأمر بالانكار وزعموا ان موسى يهزل معهم ويهزأ بهم ، فاستنكر موسى ادعاءهم وذكّرهم بأن من كان مثله في مقام النبوة فهو بعيد عن

الهزل وعن تعدي حدود الادب مع ربه ، وهذا ما ذكره القرآن :
(قالوا أتتخذنا هزُواً ؟ قال : أعوذُ بالله ان اكونَ مِنَ الجاهلين) .

كان في هذا الجواب كفاية ليثوبوا الى رشدهم وينفذوا امر ربهم ولكن طبيعة بني اسرائيل المتلكئة تدركهم فإذا هم يطلبون تحديد عمر البقرة (قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) والسؤال بهذا الأسلوب يدل على لؤم في الطبع فهم يقولون : (ادعُ لنا ربك) فكأنما هو رب موسى وحده لا ربهم ، ومسايرة لحكمة الله في امهالهم اجابهم موسى عن ماهية البقرة : (قال : انه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بِكر عَوَانٌ بين ذلك فافعلوا ما تُؤمرون) أي انها بقرة لا عجوز ولا شابة وسط بين ذلك .

ولكن بلادة ولؤم الطبع تجر بني اسرائيل الى معاودة السؤال فيقولون له : (ادع لنا ربك يبين لنا : ما لونها) فيجيبهم موسى ثانية (قال : انه يقول إنها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسرّ الناظرين) فليس يكفي لونها الأصفر بل لا بد من فقاعة اللون « أي شدة الصفرة في صفاء » ولا يكفي هذا بل لا بد ان تسر الناظرين .

ولقد كان فيما تلكأوا فيه كفاية ولكنهم مضوا في تعقيد أمورهم ، فعاودوا السؤال عن صفتها التي تتميّز بها عن غيرها (قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون) لم يترفق الله بهم بل اضاف قيوداً اخرى مجاراة لما يبدون من حرص زائد فيجيبهم موسى بما اوحى الله له : (قال : انه يقول إنها بقرة لا ذلول تُثيرُ الأرض ولا تسقي الحرثُ مسلّمة لاشية فيها) أي يجب ان تكون غير مذللة ولا مُدرّبة على حرث الأرض ولا سقي الزرع خالصة اللون لا عيب فيها ، وهنا وبعد ان تضاعفت الشروط وضاق مجال الاختيار بحثوا عن بقرة تتوفر فيها الشروط المطلوبة الى ان وجدوها ونفذوا ما أمرهم الله به (قالوا : الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) [1] .

---

١ – سورة البقرة الآيات : ٦٧ الى ٧٢

العبرة : فالعبرة المستقاة من هذه القصة هي : تذكير بني اسرائيل بما كان منهم من انحراف وفسوق عن سبيل الله ومماطلة عن إطاعة اوامره وسخرية منبثقة من سلاطة لسانهم ، كما ان في هذه القصة تحذيراً للمؤمنين من الاقتداء بأفعالهم .

فلو ان بني اسرائيل حين أمروا بذبح بقرة ، احضروا اي بقرة شاءوا لأجزأتهم ولكنهم شددوا على انفسهم فشدّد الله عليهم ، ولولا انهم استثنوا فقالوا : (وإنّا إن شاء الله لمهتدون) لما اهتدوا اليها ابداً .

واختيار البقرة دون غيرها من المواشي للذبح . الغاية منها القضاء على فكرة التكريم والتقديس التي كانت عند بني اسرائيل للبقرة والتي اقتبسوها من المصريين القدماء .

والجانب الأهم من هذه القصة هو إظهار قدرة الله على بعث الموتى احياء ، فأمرهم الله ان يأخذوا جزءاً من البقرة ويضربوا بها جسم القتيل ففعلوا فإذا به ينهض ويقول على مشهد ومسمع من القوم : قتلني فلان .

وهكذا ظهر لبني اسرائيل ما حسبوا أنه يخفى وحُرم القاتل من ميراث القتيل وعوقب على جريمته . وكشفت هذه الحادثة لأعينهم قدرة الله في إحياء الموتى وهذا معنى قوله تعالى في تتمة الآية السابقة : (وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم [1] فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .

قصة قارون

كان قارون من قوم موسى ومن عشيرته المقرّبين وقد آتاه الله سعة في الرزق وكثرة في الأموال حتى إن مفاتيح الكنوز التي عنده ليثقل حملها على جماعة ذات قوة .

---

١ – التدارؤ : هو ان يدفع الشخص القتل عن نفسه ويلصقه بسواه .

ولقد كان بطراً فرحاً بما أوتي من مال وولد ، فبغى على قومه وفرض سلطانه عليهم . حاول قومه ان يبيّنوا له طريق الرشاد فقالوا له : لا تفرح فإنه لا يفرح بالدنيا إلاّ من رضي بها واطمأن اليها ونسي الآخرة . والله لا يحب الفرحين الذين يغترون بهذه الدنيا ، ونصحوه بأن يفعل الخير وأن يحسن الى العباد كما أحسن الله اليه ، وأن يبتغي الدار الآخرة فيما أنعم الله عليه ، وان يستمتع من الدنيا بما أحلّه الله له ولا يكون مفسداً في الأرض .

اقرأوا هذه الآيات :

(إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم [1] وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة إذ قال لـــه قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك مِنَ الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض [2] ان الله لا يحب المفسدين) .

ماذا كان جواب قارون امام هذا النصح ؟ لقد اجاب على هذا النصح بما ينم عن فساد طبعه وغرور في نفسه ، لقد قال : لقد نلت هذه النعم بجدّي وبما لديّ من علم لم يقدّر لغيري ، وغفل بأن غناه من نِعَمِ الله عليه وأن كثيراً من أمثاله ممن عاشوا في الأجيال الماضية وكانوا اشد قوة واكثر غنى ، قد اهلكهم الله بسبب طغيانهم وبطرهم النعمة . اقرأوا قوله تعالى : (قال : إنما أوتيته على عِلم عندي ، أوَلم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون [3] من هو اشد منه قوة واكثر جمعاً ؟ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون) .

خرج قارون يوماً على قومه في زينته : تحف به مظاهر الثراء التي تغري

---

١ – فبغى عليهم : فظلمهم وتكبر عليهم واستبد بهم .

٢ – ولا تبغ الفساد : ولا تعمل عمل المفسدين .

٣ – من القرون : من الأمم والأجيال الماضية .

وتفتن قاصري النظر ، فقال فئة من الناس ممن فُتنوا بهذه المظاهر : ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال آخرون ممن يعلمون حقيقة هذه المظاهر الخلابة الكاذبة : ويلكم ثواب الله خير مما أُوتي قارون وابقى من كل ما ترون من مظاهر لا ينبغي للعاقل ان يقيم لها وزناً .

ولكن ما حصل عليه قارون من جاه وسلطان لم يدفع عنه عذاب الله حين جاءه ، فخسف الله به وبداره الأرض فلم يجد له فئة من الناس تنصره من عذاب الله ، وهكذا اصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون : لـــو منّ الله علينا بالثروة العظيمة لأضلتنا ولخسف الله بنا الأرض انه لا يفلح الكافرون .

اقرأوا هذه الآيات :

(فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يُريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون انه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أُوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقّاها إلاّ الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . واصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون : وي [1] ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر [2] ، لولا أن مَنّ الله علينا لخسف بنا ! وي كأنه لا يفلح الكافرون) [3] .

العبرة : قص القرآن على الناس هذه القصة للعظة والاعتبار ، ليعلموا ان الدنيا دار امتحان واختبار . فهي متاع الغرور ، فما الجاه والغنى ليردا ما قدّر الله ، ولا يمنعان من عذاب الله ان فرط صاحبهما وتعدى حدود الله . وليست الدنيا بدار اطمئنان فلا يركن اليها إلاّ جاهل بحقيقتها . كما

---

١ – وي : كلمة تعجب وتنبيه وتندم . أي أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ ...

٢ – ويقدر : ويضيق .

٣ – سورة القصص الآيات : ٧٦ الى ٨٢ .

ان في هذه القصة دعوة لتأدية حق الله وذلك باعطاء المستحقين المحتاجين حقهم من الحياة والتحذير من البغي والطغيان والبطر بالنعمة . لان عاقبة ذلك زوالها والعقاب الشديد من الله في الدنيا والآخرة .

قِصَّةُ مُوسَىٰ وَالعَبْدِ الصَّالِح

خطب موسى في قومه مذكراً إياهم بطاعة الله ، ولما أتم خطبته سأله رجل : أي الناس أعلم فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم اليه وحده وأوحى اليه : ان لي عبداً بملتقى البحرين هو اعلم منك . فقال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً [1] فتجعله في مكتل [2] فحيثما فقدت الحوت فهو هناك . فأخذ موسى حوتاً وجعله في مكتل ثم انطلق وبصحبته فتاه يوشع بن نون .

ولما بلغ موسى وفتاه ملتقى البحرين جلس ليستريح فأخذته سنة من نوم ، وفي هذه الاثناء امطرت السماء فابتل الحوت وانتفض إذ عاودته الحيــاة وانساب في مياه البحر .

استيقظ موسى من غفوته وأمر فتاه بمعاودة السير للبحث عن بغيتهما . وقد حدث ان فتاه نسي ان يخبره بفقدان الحوت . ولما أحسا بالجوع أمره موسى بتحضير الطعام ، وعندئذ تذكر الفتى ما كان من امر الحوت فأخبر موسى بفقدانه .

استبشر موسى بما سمعه وقال لفتاه : هذا ما كنا نبغيه ، فلنرجع لنقتفي الأثر حتى نبلغ المكان الذي فقدنا فيه الحوت ، وما ان وصلا الى المكان المقصود حتى وجدا العبد الصالح [3] الذي وُعِدَ به موسى .

---

١ – حوتاً : الحوت في اللغة هو السمك صغيراً كان او كبيراً والمقصود هنا الحجم الصغير .
٢ – مكتل : ما يستعمله صيادو السمك لحمل السمك .
٣ – العبد الصالح : ليس المراد بالعبد هنا الشخص المملوك لانسان بل المراد بذلك العبودية لله فالبشر كلهم عباد الله .

اقرأوا هذه الآيات :

(وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرحُ[1] حتى أبلُغَ مجمع البحرين أو امضي حقباً[2] . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ؛ قال : أرأيتَ إذ أوينا الى الصخرة ، فإني نسيت الحوتَ ، وما أنسانيه إلاّ الشيطانُ أن اذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال : ذلك ما كُنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصا)[3] .

التقى موسى بالعبد الصالح ورحّب به وطلب منه ان يأذن له بمرافقته ليستزيد من علمه فأجابه العبد الصالح : بأنه لن يستطيع الصبر على ملازمته إذ كيف يصبر على شيء يخالف ظاهره شريعته ، فردّ موسى عليه قائلاً : ستجدني إن شاء الله صابراً على تصرفاتك ولا اعصي لك امرا . فأجابه العبد الصالح : إن اتبعتني فسأشترط عليك شرطاً ان لا تسألني عن شيء من تصرفاتي لأني سأبين لك اخيراً سرّها وتعليلها . اقرأوا قوله تعالى :

(فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلّمناه من لَدّنا علما[4] . قال له موسى : هل أتّبِعُكَ على ان تُعَلّمَنِ مِمّا عُلّمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبراً[5] ؟ قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ولا اعصي لك أمراً ، قال : فإنِ اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدِثَ لك مِنْه ذِكرا)[6] .

سار موسى والعبد الصالح على ساحل البحر فمرت بقربهما سفينة فطلبا

١ – لا ابرح : لا أزال سائراً .
٢ – او امضي حقباً : او اسير في طريقي زماناً من الدهر حتى ابلغ مكانه .
٣ – فارتدا على آثارهما قصصا : فرجعا في الطريق الذي جاءا منه يتبعان آثار سيرهما .
٤ – وعلمناه من لدنا علما : وعلمناه علماً مختصاً بنا وهو بعض علم الغيب .
٥ – خبرا : معرفه .
٦ – حتى احدث لك منه ذكرا : حتى اذكر لك تعليله .

من أصحابها ان يحملوهما معهم فقبلوا ، وركبا في السفينة ، وفي غفلة من اصحابها عمد العبد الصالح الى جدار السفينة الخشبي فثقبه ، هال موسى هذا الصنيع ونسي العهد الذي اخذه على نفسه من عدم الاعتراض على فعل العبد الصالح فقال : اتخرق سفينة القوم لتغرقهم بعد ان أكرموا وفادتنا ؟ لقد عملت شيئاً معيباً . ولكن العبد الصالح ذكّره بالشرط الذي بينهما ، فأدرك موسى خطأه وطلب منه ان لا يؤاخذه على نسيانه .

تابعا المسير فوجدا غلاماً يلعب مع اقرانه فاحتال العبد الصالح حتّى أخذه بعيداً عن رفاقه وقتله . انفطر قلب موسى من هذه الجريمة النكراء واعترض ثائراً : أقتلت نفساً طاهرة بريئة بغير ذنب اقترفته ؟ فهي لم تقتل نفساً حتّى تستحق إهدار دمها ، لقد صنعت شيئاً منكراً . فما كان من العبد الصالح إلاّ ان قال له بلهجة العاتب المؤنب : ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبراً على ما تراه في صحبتي ؟ فأجابه موسى مظهراً ندمه : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فقد وجدت لك عذراً – من جهتي – في مفارقتك إياي .

ثم تابعا سيرهما حتّى اعياهما التعب والجوع فدخلا قرية ، وطلبا من اهلها طعاماً لهما فرفض اهل هذه القرية ان يضيّفوهما وردوهما رداً غير لطيف ، وفيما هما عائدان ادراجهما وجدا جداراً يوشك ان ينهار فأصلحه العبد الصالح واقام بنيانه ، فما وسع موسى إلاّ ان قال : اتجازي قوماً طردونا باصلاح جدارهم ؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا اجراً يكفي لطعامنا . وبعد هذا الاعتراض حصلت الفرقة بين موسى والعبد الصالح . اقرأوا هذه الآيات :

(فانطلقا حتّى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لِتُغْرِق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً [1] قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معيَ صبراً ؟

---

١ – شيئاً امراً : شيئاً عظيماً منكراً .

قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا تُرهقني من امري عُسْراً . فانطلقا حتّى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال أقتلت نفساً زكيّة بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نكراً ، قال : ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لَدُنّي عذراً . فانطلقا حتّى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا ان يضيّفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقضّ فأقامه قال : لو شئت لاتخذت عليه اجراً ، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) .

وقبل ان يفارق العبد الصالح موسى شرع يبين له الاسرار التي اكتنفت الاعمال التي قام بها قائلاً :

اما السفينة فكانت لمساكين ليس لهم مال سواها وقد علمت ان ملكاً غاصباً كان يتعقب كل سفينة صالحة ويسلبها من أهلها فأردت ان اجعل فيها عيباً يمكن اصلاحه فيما بعد حتى إذا رآها الملك ظنها غير صالحة فيتركها لأصحابها وتسلم لهم .

واما الغلام فقد كانت تظهر عليه علائم الفساد منذ الصغر وكان ابواه مؤمنين صالحين فخشيت بما فُطِرَ عليه الآباء من حب الأبناء ان يطغى فساده على صلاحهما ويجرهما الى الكفر والطغيان ، فقتلته لأريح هذين الأبوين المؤمنين من مثل هذا الغلام الشرير ويرزقهما بدله مولوداً اطهر وارحم .

واما الجدار الذي اقمته وتعبت في بنائه فقد كان لغلامين يتيمين في المدينة وتحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فأراد ربك الكريم ان يحفظ لهما الكنز حتى يكبرا ويستخرجاه . وهذا كله ليس من اجتهادي بل كان وحياً من الله وهو تفسير ما لم تستطع عليه صبراً . اقرأوا هذه الآيات :

(اما السفينة فكانت لمساكينَ يعملون في البحر ، فأردت ان أعيبها وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذُ كُلَّ سفينَةٍ غصبا . وأمّا الغلام فكان ابواه

مؤمنين ، فخشينا ان يُرهقهما طُغياناً وكفراً . فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً . وأما الجدارُ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان ابوهما صالحاً ، فأراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن امري ، ذلك تأويلُ ما لم تَسطِعْ عليه صبراً)[1] .

العبرة : فالعبرة المستقاة من هذه القصة هي : ان الانسان ينبغي ان لا يأخذه الغرور بعلمه ، فمهما بلغ من العلم والمعرفة ، فإن علومه ضئيلة وهي مختصة في بعض نواحي الحياة وسُرْعان ما يجد غيره يتفوق عليه في نواح اخرى من المعرفة لم يسبر غورها . وهذا ما أراد الله ان يعلمه لموسى عندما جمعه بالعبد الصالح .

ومنها : ان ايمان الانسان يحفظه الله لصاحبه فلا يدع ظروف الحياة تذهب به كما في حادثة قتل الغلام الذي سينشأ على العصيان وسيرهق والديه طغياناً وكفراً .

ومنها : ان المساكين لن يتخلى الله عنهم بل يحفظهم من عاديات الدهر ويرزقهم اليسر بعد العسر كما في حادثة خرق السفينة لتشويهها حتى لا يستولي عليها الملك الغاصب .

ومنها : ان الله قد يكرم الابناء اكراماً لآبائهم الصالحين ولا يأخذهم بما فشا في مجتمعهم من فساد واعوجاج وييسر لهم الحياة الرغيدة ، كما في حادثة اقامة الجدار الذي تحته كنز والذي كان ليتيمين وكان ابوهما صالحاً .

---

١ - سورة الكهف الآيات : ٦٠ الى ٨٢ .

الباب الخامس

أضواء على القصة في القرآن

- خصائص القصة في القرآن
- هل قصص القرآن مقتبسة من اليهودية؟
- منهج القرآن في الدلالة على وجود الله ووحدانيته

الفصل الأول

خصائص القصة في القرآن

غاية القصة في القرآن – طريقة القرآن في عرض القصة – أسلوب القرآن في القصة – سر التكرار في قصص القرآن – الفرق بين القرآن والتوراة في عرض القصة .

غاية القصة في القــرآن

القصص في القرآن من اهم العوامل النفسية التي لجأ اليها القرآن في الجدال والحوار مع مخالفيه وفي التبشير برضوان الله ، والتحذير من معصيته ، وفي شرح مبادىء الدعوة الاسلامية واهدافها ، وفي تثبيت قلب النبي ومن اتبعه ، وفي الدلالة على صدق نبوة محمد وأنه مبلغ عن ربه .

والقصة في القرآن هي « اول قصة في لغتنا العربية عرفت « الالتزام » وحددت « رسالة الأدب » بمعناه الانساني الذي يفهم الأدب على اساس وظيفته الاجتماعية التي تدعو الناس كلهم الى الخير وتبعدهم عما الفوه من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطلة ... » [1]

---

١ – فن القصة : للأستاذ احمد ابو سعد .

لهذا نرى القرآن يشرح الغاية من ايراده قصص الأنبياء بقوله تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) .

طريقة القـــرآن في عرض القصة

والقرآن حين يعرض قصة موسى وغيرها من القصص نراه « يأخذ مواد القصص من احداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضاً ادبياً ، ويسوقها سوقاً عاطفياً ، يبين المعاني ، ويؤيد الأغراض ، ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائياً يستثير منها العاطفة والوجدان » [1] ويخرج بها من الدائرة التاريخية الى الدائرة الدينية ، ومن هذا الاتجاه الذي يقصده القرآن « لا يصح حينئذ ان يؤخذ عليه انه لا يتناول القصة من جميع اطرافها ، وانه لا يتسلسل في ايراد حدوثها مرتبة منظمة ، وانه يصعب فهم القصة من القرآن على من لم يطلع عليها من مصدر آخر ، ذلك ان القرآن يأخذ من القصة ما يحقق اهدافه من التهذيب والوعظ . فحيناً يقص القصة كلها محبوكة الأطراف موصولة الاجزاء مرتبطاً بعضها ببعض في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها الى لاحقه حتى نصل الى خاتمتها ... كما نراه في سورة يوسف . وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف . وقد يلمح القرآن ويشير الى القصة تلميحاً يستغني به عن الاطالة ، اعتماداً على ان القصة معروفة مشهورة . أرأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص أتراه يعمد الى القصة كلها فيسردها ؟ ام انه يعمد احياناً إلى جزء من القصة يورده في خطبته ، واحياناً يكتفي بالإيماء الى القصة والاشارة اليها من غير ان يكون في مثل هذا العرض نقص في الخطبة او اعتراض على الخطيب » [2] .

---

١ – الفن القصصي في القرآن – الدكتور محمد احمد خلف الله ص ١٢٢ .
٢ – من بلاغة القرآن للدكتور احمد احمد البدوي .

اسلوب قصص القرآن

ظاهرة بارزة تلفت النظر في اسلوب قصص القرآن هو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس وذلك من تأثير بلاغته التي ترجع الى جمال الفاظه وحسن نظمه وسمو معانيه ، فانك « لا ترى شيئاً من الألفاظ افصح ولا أجزل ولا اعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، ولا اشد تلازماً وتشاكلاً من نظمه ، واما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في ابوابها ، والترقي أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها »[1] ؛ ويقول الباقلاني « إن اسلوب القرآن خاص به لا يضارعه فيه غيره ، كما انه خارج عن الاساليب المعروفة »[2] « فلم يوجد ولن يوجد في العربية أثر يجاريه في بلاغته بحيث يحفظ جمال الاسلوب مع هذا المقدار من الطول ، والاشتمال على الموضوعات المختلفة من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص »[3] .

ومما يختص به اسلوب القرآن ذلك الايقاع الموسيقي الذي ينجم عن ترابط الكلمات بشكل خاص يكوّن نغماً معيناً رتيباً من مجموعة مقاطع صوتية كما ينجم من الفاصلة واطرادها او تغيرها في نسق معين . فالفاصلة[4] هي مفتاح الوزن القرآني وموسيقى نظمه .

هذه البلاغة القرآنية وما تحمل من معاني الهداية هي التي سحرت العرب في بدء الاسلام واخذت بألبابهم ، فكانت اكبر حافز لهم للهداية وهي التي شهد لها الكتاب والشعراء في كافة العصور بتفوقها وعدم استطاعة مجاراتها.

يقول الكاتب الكبير علي بن ربّن الطبري : « حينما كنت مسيحياً كنت

---

١ – بيان اعجاز القرآن ص ٢٨ – الخطابي حمد بن ابراهيم بن خطاب البستي .

٢ – اعجاز القرآن ص ٦٠ وما بعدها .

٣ – اعجاز القرآن ص ٦٧ .

٤ – الفاصلة : هي الكلمة التي تختم بها الآية القرآنية .

أقول كما يقول عمّ لي متعلم بليغ بأن اسلوب القرآن ليس معجزاً، وليس من علامات النبوة لأنه في استطاعة الناس كلّهم. ولكن عندما حاولت تقليده واطلعت على مدلول كلماته، علمتُ ان أتباع القرآن على حق فيما يدّعونه له، لأني لم اطلع على كتاب يأمر بالخير وينهى عن الشر كالقرآن فعندما يحمل لنا شخص كتاباً يحمل نفس المميّزات، ويوحي إلينا بهذه الطلاوة، وتلك الروعة في القلوب. ويحور مثل هذا النجاح، ويكون في نفس الوقت اميّاً لم يتعلم ابداً فنّي الكتابة والبلاغة، فهذا الكتاب يكون بلا شك من علامات النبوة »[1].

سر التكرار في قصص القرآن

ومما يلفت النظر في قصص القرآن وقصة موسى بالذات هو ان معاني القصة ترد مكررة في مواضع شتى من سُوَر القرآن، وهذا التكرار لايتناول القصة كلها وانما هو تكرار لبعض حلقاتها، وسبب ذلك « ان المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص وهي الأمور التي يبحث عنها وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات »[2].

فليس المقصود من القصص سرد المواد التاريخية بل المواعظ والعبر والتحذير من معصية الله والبشارة برضوان الله وهذه الامور تختلف في موطن عنها في آخر، ومن هنا كان الاختلاف. لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك الى اختلاف الصور الأدبية.

وتكرار القصص في القرآن يتبع الشخصية التي عرفت واشتهرت والأحداث التي شاعت في البيئة العربية ... ومن هنا كانت شخصية موسى اكثر تكراراً من أي شخصية أخرى ... لأن موسى كان نبي اليهود ولقد

---

١ – ادب الدين والدولة ص ٤٤.

٢ – الفن القصصي في القرآن – الدكتور محمد احمد خلف الله ص ٢٧٧.

كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني ... وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً من اخبار موسى ... وقليلاً من اخبار غيره من الأنبياء ... فالقرآن اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدها من البيئة والعقلية العربية ليكون القصص القرآني اشد تأثيراً واقوى سلطاناً [1]

واما الناحية الفنية من التكرار في القرآن فنراها تتمثل في اسلوبه وعباراته البليغة . فتارة يجيء اسلوبه في موطن عن طريق الاطناب وفي مواطن أخرى عن طريق الايجاز مع اختلاف الفواصل من موطن لآخر ومع التنوع بالعبارات البليغة والألفاظ العذبة لتتجلى بلاغته وفنونه الرفيعة في التعبير ، هذا التكرار البليغ برهان على كونه وحياً الهياً يستشعره كل مضطلع على اسرار فصاحة اللغة العربية ، فالشاعر او الكاتب إذا كرّر قولاً لا يكون كلامه الثاني بدرجة الأول في الفصاحة بل تظهر عليه علامات الضعف والتكلف والتفكك ، أما اسلوب القرآن فقد بلغ الغاية في الفصاحة في جميع ما كرر من قصص وسواها .

كما ان في التكرار أثراً ملموساً في التأثير على الجماعات والافراد (فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبولـــه حقيقةً ساطعة ... والسبب في ذلك كون المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب افعال الانسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرَّر) [2] .

الفرق بين القرآن والتـــوراة في عرض القصة

«لم يسلك القرآن مسلك التوراة فلم يقص أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي، وانما اختار بعضهم ليقص قصصهم واعرض عن الباقي . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً : (ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل

---

١ – الفن القصصي في القرآن ص ٢٦٢ .

٢ – روح الاجتماع للدكتور جوستاف لوبون – ترجمة الأستاذ أحمد فتحي زغلول .

ورسلا لم نقصصهم عليك) .

وهو حين اختار بعض هؤلاء الرسل لم يعمد الى اخبار هؤلاء جميعاً وانما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوة الاسلامية وموقف النبي من قومه ، ومن هنا لم يكن فيه ذلك التفصيل الموجود في التوراة ، ثم ان القرآن الكريم لم يعمد الى الزمن فيجعله العامل الاساسي في ترتيب هذه القصص كما في التوراة ، إن كل هذا إنما يدل على الفارق الأكبر بين قصص القرآن وبين قصص التوراة ، وهو انها قصدت الى التاريخ ، اما هو فلم يقصد إلاّ الى العظة والعبرة ، والى البشارة والإنذار ، وإلى الهداية والإرشاد . والى شرح مبادىء الدعوة الاسلامية والرد على المعارضة والى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتّبعه »[1] .

وفي هذا يخاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله : (وكُلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) هود : ١٢٠ . فجملة (وجاءك في هذه الحق) إشارة الى ان القرآن أتى بوقائع صحيحة من التاريخ ليبين لأتباع الأديان القول الفصل في القضايا التي اختلفوا فيها حول حقيقة الأنبياء ورسالتهم والدفاع عما الصق ببعضهم من تهم وأباطيل .

---

١ – الفن القصصي في القرآن – محمد احمد خلف الله .

الفصل الثاني

قصص القرآن ليست مقتبسة من التوراة

الاسلام ليس ديناً جديداً – تميز القرآن عن غيره من الكتب الدينية – الرسل في نظر التوراة والقرآن – دفاع عن السيد المسيح وأمه من افتراءات اليهود .

صدرت كتابات كثيرة من باحثين ومستشرقين عن مصادر الاسلام وهل هو مقتبس من اليهودية مثلاً ؟ والغاية من ذلك واضحة وهي ان محمداً مدّع للنبوة وليس رسولاً من عند الله .

والذي لا يمكن ان يختلف فيه اثنان ان اي دارس للتوراة والقرآن يجد كثيراً من تعاليمهما تتشابه في بعض الأغراض والأهداف وتختلف في البعض الآخر . والسؤال المقصود هو : هل التعاليم الاسلامية المتشابهة مع اليهودية مقتبسة عنها ؟ للجواب على هذا السؤال نضع أمام القارىء هذه الحقائق الآتيـــة :

الاسلام ليس ديناً جديـــداً

فالدارس للاسلام المتمعن في رسالته يرى انه ليس ديناً جديداً ولكنه

امتداد لليهودية والنصرانية ومكمل لهما ومصلح لما طرأ عليهما من البدع والخلافات ، جاء في القرآن في خطابه للمؤمنين : (شرع لكم الدين ما وصّى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى : ١٣ . وعلى هذا فإذا تشابهت بعض الأصول في اليهودية والاسلام فما ذلك إلاّ لأن المصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى .

ثم إن القرآن اثبت ان اليهود حرّفوا كتابهم بقوله : (من الذين هادوا [١] يحرّفون الكلم عن مواضعه) النساء : ٤٦

ولكنه يصرح من جهة أخرى بأن في التوراة احكاماً لم يعتورها تبديل ولا تحريف قال تعالى : (وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين) المائدة : ٤٣ .

جاء في أسباب نزول هذه الآية « ان اليهود اتوا النبي برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا : نسخم [٢] وجوههما ويخزيان [٣] . قال : كذبتم ان فيها الرجم (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارىء لهم فقرأ حتى إذا أتى الى موضع منها وضع يده عليه فقيل له : ارفع يديك ، فرفع يده فإذا هي تلوح (أي آية الرجم) فقالوا : يا محمد ان فيها الرجم ولكنا كنا نتكاتمه بيننا . فأمر بهما رسول الله فرجما) [٤] .

تميز القرآن عن غيره من الكتب الدينية

إن أي دارس للقرآن الكريم يجد الحقيقة المطلقة تشع منه وانه وحي الهي ،

---

١ – هادوا : اي اليهود .

٢ – نسخم : نسود .

٣ – الخزي : الاهانة والفضيحة .

٤ – رواه البخاري ومسلم .

اقرأ مثلاً قصة موسى مع بني اسرائيل في القرآن واقرأها بعد ذلك في سفر الخروج من العهد القديم فتجدها في القرآن أشد تأثيراً في النفس الانسانية ، واحلى وقعاً ، واغزر فائدة من حيث العبرة والعظة مع اختلافات شتى في وقائع القصة .

ويضاف الى هذا ان القرآن اشتمل على حقائق في اسرار الكون تتوافق مع المكتشفات العلمية الحديثة وعلى تشريعات في نظام الاسرة والمجتمع والحكم والاقتصاد ، وعلى نمط جديد في العبادات تسمو بالانسان من الناحية النفسية والجسدية ، كما اشتمل على وصايا خلقية لا نجدها في اليهودية ، او في اي دين من الأديان الحاضرة ، فلو كان القرآن مقتبساً من اليهودية لالتزم طريقتها وشعائرها .

الرسل في نظر التــوراة والقرآن

إن اختلاف وجهة النظر الى رسل الله بين التوراة والقرآن لدليل على ان القرآن غير مقتبس من اليهودية ، بل هو اصلاح لما طرأ عليها من البدع ، ومن هذه البدع وصم الأنبياء والرسل بقبائح الأعمال .

فقد ارسل الله الرسل والانبياء لترقية النوع الانساني وتحريره من طغيان الشهوات وكبح جماحه من الاسترسال في الشرور والآثام .

ومما لا ريب فيه ان الرسل والانبياء الذين ارسلهم الله لاصلاح أقوامهم هيأهم الله ليكونوا متحلين بالعصمة من الآثام ، كما جعلهم على درجة عالية من السيرة الحسنة والخلق الرفيع ليكونوا قدوة لاتباعهم .

ثم إن الرسالة الالهية تشمل البشر كافة لأن الله رب العالمين ، لا رب شعب بعينه ، جاء في القرآن : (ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة) النحل : ٣٦ . هذا بخلاف ما يعتقده بنو اسرائيل الذين انكروا ان يختص الله تعالى بنعمته

ورحمته من يشاء من عباده ، وجعلوا النبوة قاصرة على بني اسرائيل كأن بقية البشر ليسوا من خلقه.

ومما يلفت النظر في كتب اليهود : وصفهم الأنبياء بالكذب والخداع وارتكاب كبائر المعاصي فنسب اليهود الى يعقوب : الخداع ، وزعموا: ان لوطاً زنى بابنتيه وقالوا عن هارون انه دعا الاسرائيليين لعبادة العجل. وافتروا على داوود انه زنى بزوجة اوريا، وعن سليمان: انه عبد الاصنام إرضاء لزوجته ، وقد حكى القرآن قصص هؤلاء الأنبياء ولم يؤيد واحدة من هذه الادعاءات . وهذه ميزة للقرآن يتميز بها على العهد القديم ، فإن وصف هؤلاء الانبياء بهذه المثالب وغيرها من شأنها ان تترك انعكاسات سيئة على نفسية المؤمن التقي الورع ، فيقول في نفسه : إذا كان هذا حال انبياء الله ورسله ، فلا حرج علينا العمل مثلهم ، وهذه ثغرة يمكن ان يستغلها اصحاب النفوس المريضة للانزلاق في المعاصي والآثام.

اما القرآن فقد ذكر سيرة هؤلاء الأنبياء وغيرهم ووصف حياتهم الطاهرة محفوفة باطار من الصبر والتضحية والاخلاص . والترفع عن اهواء النفس مما يجعل حياتهم قدوة صالحة لبني البشر . كما رفع القرآن منزلتهم . وأمر المؤمنين بالاقتداء بهم . ولو ذكرنا الآيات القرآنية جميعها التي نعتت الأنبياء بالفضل والكرامة لضاق بنا المقال ولكن سنعرض هنا بعض الآيات القرآنية التي تعطينا صورة مجملة عن اوصاف انبياء الله . قال الله تعالى :

(وتلك حُجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحق ويعقوب كُلاً هَدَيْنا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داوود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كلٌ من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلاً فضّلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هُدى

الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه اجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين) الانعام : ٨٣ — ٩٠ .

يستهل القرآن هذه الآيات بذكر الحجة الدامغة على وجود الله ووحدانيته ، تلك الحجة التي اعطاها الله لابراهيم ليقيمها على قومه ، فارتفع بها عليهم ، وسُنّة الله في خلقه ان يرفع بالعلم والحكمة من يشاء من خلقه . ثم يذكر الله انه وهب لابراهيم اسحق ويعقوب بن اسحق ووفق كلاً منهما الى الحق والخير كما وفق قبلهم نوحاً .

ثم ذكر الله اربعة عشر نبياً وجعلهم في اقسام ثلاثة :

القسم الأول : الذين آتاهم الله الملك والإمارة والحكم والسيادة الى جانب النبوة والرسالة . وقد جزاهم الله على إحسانهم إحساناً ومثل هذا الجزاء يجزيه الله للمحسنين من خلقه في الدنيا ومنهم من يرجىء جزاءه الى الآخرة .

والقسم الثاني : من عُرفوا بالزهد في الدنيا والاعراض عن لذاتها . ولذلك خصهم الله بوصف الصالحين .

والقسم الثالث : الذين وصفهم الله بالتفضيل على العالمين في زمانهم . فمن كان من النبيين منفرداً في عـــالم او قوم كان افضلهم ، ثم يختم الله هذه الآيات بالدعوة الى الاقتداء بهم .

واذا ذكرنا النظرة السامية التي ينظرها القرآن الى رسل الله ، يَحسُن بنا ان نذكر دفاعه المجيد عن عيسى رسول الله وأمه مريم من افتراءات اليهود وما اختص به من منزلة رفيعة عند الله مما ينزع الشبهة ان الاسلام مأخوذ عن اليهودية .

دفاع عن السيد المسيح وامه من افـــتراءات اليهود

ومن السمو الذي يتحلى به الاسلام انتصاره للحق في الدفاع عن السيد المسيح وامه مريم عليهما السلام مما الصق بهما اليهود زوراً وبهتاناً ، ولتوضيح ذلك نذكر المناسبة والطريقة التي انبرى بها القرآن للدفاع عنهما .

كان حمل مريم بابنها عيسى عليه السلام من غير أن يمسها بشر معجزة من معجزات الله الخالدة ، فلما ولدت مريم عيسى واتت به قومها بني اسرائيل رموها بالزنا، ولكن الله الذي يُدافع عن عباده الصالحين انطق عيسى وهو لا يزال في المهد صبياً مبرئاً أمه من التهمة الشنيعة فقال كما جاء في القرآن: (قال إني عبدُ الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً اين ما كُنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً) فكان هذا النطق المبكر من عيسى عليه السلام تبرئة لوالدته مما رماها به بنو اسرائيل .

ثم مرّ الزمن وشرع عيسى يعظ بني اسرائيل ويدعوهم الى طريق الحق والنجاة وينهاهم عن التعلق بالدنيا وأكل اموال الناس بالباطل، فلم يعجبهم وعظه ، فكادوا له عند الحاكم وادعوا انه يقول انه ملك بني اسرائيل ، فأرسل الحاكم الجند للقبض عليه ، ويروي القرآن ان الله لم يمكنهم من ذلك (بل رفعه اليه) وان الذي القي القبض عليه هو غير عيسى الذي شُبّه لهم انه هو . وهنا يدحض القرآن ادعاءات اليهود ويذم أفعالهم بقوله : (وبكفرهم[1] وقولهم على مريم بهتاناً[2] عظيماً . وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن . وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء ـ ١٥٦ ـ ١٥٨ .

هذا ما انبرى له الاسلام في الدفاع عن ركني المسيحية عيسى وامه مريم ،

---

١ ـ وبكفرهم : اي كفر اليهود بعيسى .

٢ ـ البهتان العظيم : هو قذف مريم بالفاحشة .

ونزيد تأكيداً في الدفاع عنهما ما جاء في القرآن في شأن عيسى عليه السلام:

(اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين) آل عمران : ٤٥ .

وجاء في القرآن في شأن السيدة مريم :

(وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) آل عمران : ٤٢ .

هذا موقف كريم للاسلام يستدعي ان تقام الروابط الأخوية على قواعد اوثق بين اتباع الاسلام والمسيحية على الدوام ، وانه ليس من العدل في شيء ان يكافأ موقف الاسلام هذا بقيام بعض الدول الغربية التي تدين بالمسيحية لنصرة اليهود على المسلمين .

الفصل الثالث

مَنهج القرآن في الدلالة على وجود الله ووحدانيته

الدلائل على وجود الله في قصة يوسف – الإيمان عن طريق العقل في قصة موسى – دحض معتقدات المصريين القدماء – تنزيه الله وتقديره حق قدره – العجز الذاتي للكائنات ينفي عنها صفة الألوهية – الإشراك بالله وليد الجهل – الطبيعة هي المدخل للايمان بالله .

وحدانية الله هي الهدف الأول والاسمى الذي جاء لأجله الاسلام ، فمن يدرس القرآن دراسة شاملة يلفت نظره تنوع الدلائل على وحدانية الله ، ونقدها لمختلف المعتقدات البشرية التي خالطها الاشراك ، والتي للخيال والأوهام نصيب كبير فيها .

ولا يكتفي القرآن بنقد هذه المعتقدات ، بل يعطي الحجة والبرهان على دعواه بدلائل عقلية منطقية لا يجد العقل مناصاً دون التسليم بها .

والقرآن الكريم حينما يحدثنا عن سيرة الانبياء والرسل الذين ارسلهم الله لهداية الخلق ، يقص علينا على لسانهم ما وعظوا به قومهم من الدعوة

الى وحدانية الله ، وترك الإشراك به وعرض الدلائل النيّرة التي تشهد بوجوده . وهكذا كانت القصص في القرآن وسيلة لغرس فكرة التوحيد في النفوس ونزع ما ينافيها من معتقدات أخرى .

وها نحن نقدم انموذجاً لما جاء في قصة يوسف وموسى ثم نستطرد بعد ذلك لذكر بعض ما جاء في القرآن من الدلائل على وجود الله ووحدانيته[1] وبطلان الشرك به .

الدلائل عـلى وحدانية الله في قصة يوسف

تأمل النص القرآني التالي تجد انه يقدم لك البرهان الواضح على وحدانية الله بما لا يدع للشك سبيلاً ، وذلك بما جاء على لسان يوسف عندما وعظ السجينين :

(واتبعت ملّة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلاّ اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) يوسف : ٣٨ — ٤٠ .

إن يوسف في هذه الآية يصرح بأنه لم يبتدع ديناً وانما سار على ملّة آبائه واجداده الذين هداهم الله الى العقيدة الصحيحة ألا وهي وحدانية الله . وهذه العقيدة لا تختلف من عصر الى عصر ، إذ لا يعقل ان يوحي الله الى انبيائه عقيدة في حقيقته تتناقض من رسول الى رسول . فوحدانية الله دعوة اشترك في التأكيد عليها جميع الأنبيـــاء ، وكل عقيدة تناقضها

---

١ — ذكرنا في كتابنا (روح الدين الإسلامي) الدلائل العلمية على وجود الله وناقشنا مظاهر الأشراك في العالم والرد عليها بالدليل القرآني والبرهان العقلي . فليرجع اليها من شاء الاستزادة في هذا الموضوع .

دخيلة على الأديان . هـــذه العقيدة اول من رفـــع رايتها ابراهيم (ابرام) عليه السلام .

ثم نرى يوسف يقول : هل الشرك بما فيه من متناقضات وأرباب متعددة خير ، ام التوحيد وعبادة الواحد الأحد ؟

فتعدد الآلهة تشوش عقل الانسان وترميه في متاهات الخرافات والشعائر الوهمية ، كما تفرق شمل الجماعة الانسانية من جراء تأليه كل طائفة آلهة تختلف عن آلهة الطائفة الأخرى ، بينما وحدانية الله تحرر الانسان من ربقة الخرافات وتوحّد بين ميول الجماعات ، وتسمو بها الى غاية واحدة ، وهي الاخلاص لله وحده وما يستدعي ذلك من العمل الصالح .

ثم يتابع يوسف قوله : إن الاصنام وما الهتموه من مظاهر طبيعية وما خصصتموها به من افعال وسلطة هي جميعها من بنات افكاركم وتسمياتكم ، فكيف تؤلهون أشياء انتم ابتدعتموها لا تقوم على حجة ، ولا تستند الى برهان ؟ فالاله المعبود بحق هو الله وحده ، وافراده وحده بالعبادة هو السبيل القويم الذي يجب ان يسلكه كافة البشر ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بسبب جهلهم واضلالهم من قِبَلِ القيمين على افكارهم .

الايمان عن طريق العقـــل في قصة موسى

وفي قصة موسى عرض للطريقة الاستدلالية على وجود الله . فقد رأينـــا في قصة موسى كيف انه دخل على فرعون يدعوه الى الايمان بالله عن طريق العقل وذلك بالنظر في الطبيعة وما تحتويه من مخلوقات وعجائب ليدخل الايمان الى قلبه عن طريق البحث والنظر والاقتناع .

فها هو فرعون يسأل موسى وهارون (قال فمن ربكما) فيجيب موسى : (ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

فالقرآن يقول : إن المخلوقات جميعها خلقها الله بنظام معين . وكل

مخلوق يختلف عن الآخر بأشياء واسرار اودعها الله فيه ، ثم الهم كل مخلوق حي الى الطريقة الخاصة التي بوسعه ان يعيش بموجبها .

هذه الآية تلخص مجلدات كثيرة في علم الحيوان والحشرات والطيور والأحياء المائية ، إن العلماء المتخصصين في دراسة هذه الأحياء جميعاً ليأخذهم العجب عندما يتأملون الأسرار التي تكتنف حياتها وطريقة توالدها وكيفية المحافظة على نوعها والحصول على قوتها وسلوكها مع بعضها . إن هذا الالهام الذي يسيّر حياة هذه الأحياء ، أو بالأحرى هذه (الهداية) كما يسميها القرآن والتي تختلف من نوع الى آخر لهو من اقوى الدلائل على وجود القصد في الطبيعة الذي هو من صنع الله وعلى بطلان نظرية المصادفة التي يتعلل بها الماديون في تفسير نشوء الكون .

ثم نرجع الى متابعة الحوار بين موسى وفرعون فنرى موسى بعد ان ذكر هذه الآية التي تدل على وجود الله نراه يعدّد انواعاً اخرى مما خلق الله . قال تعالى: (الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا انعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى). انظر كيف اختتم هذا النص القرآني بهذه الجملة (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) ومعنى (اولي النهى) أي اصحاب العقول . فإن خلق هذه الأرض وما عليها من الآيات البينات لتدل بما لا يدع مجالاً للشك على وجود الله خالقها بما يقتنع بها كل ذي عقل . فلما كذّب فرعون وعاند بعد قيام هذه الأدلة العقلية اظهر الله معجزة العصا وغيرها .

فالقرآن يلفت انظارنا الى التفكر بآيات الله في الكون لنستشعر من ورائها القدرة الخلاقة المبدعة ، وليكون إيماننا بالله عن إقتناع وتسليم مدروس .

هذا طريق للاستدلال على الخالق انفرد به الاسلام . فبينما نجد بعض الأديان توصي متبعيها (آمن ثم فكر) وتتخذ المعجزات والأعاجيب التي

صدرت من انبيائها وسيلة للاقناع نرى الاسلام يتخذ العقل أساساً للايمان .

دحض معتقدات المصريين القدماء

وفي حوار آخر بين موسى وفرعون في ربوبية الله نرى أروع ردّ على مظاهر الاشراك بالله عند المصريين القدماء ، يذكره لنا القرآن على لسان موسى . قال تعالى :

(قال فرعون : وما رب العالمين . قال : رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لِمنْ حَوْلَهُ : الا تستمعون . قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) الشعراء : ٢٣ ـ ٢٩ .

المتأمل في هذا النص القرآني يرى فيه لأول وهلة وصفاً شاملاً لربوبية الله لهذا الكون ، وانه الواحد الذي لا ينازعه احد في ملكه .

ولكن العالم المتمعن في العقائد المصرية القديمة يرى من خلال هذا النص القرآني رداً محدداً مقصوداً لمختلف ما كان يدين به المصريون القدماء من معتقدات مما يدل على ان القرآن ينبيء عن أشياء تاريخية صحيحة تدل على صدق نبوة محمد ، وإلى القاريء بيان ذلك :

يبدأ الحوار في الآيات القرآنية السابقة بسؤال فرعون لموسى : (وما رب العالمين) فيجيب موسى بأنه هو (رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) .

تأمل في كلمة (وما بينهما) فانها تشمل النجوم والكواكب وهذا الفضاء الخارجي . فجميع هذه الأشياء الكونية لها رب واحد .

هذا الجواب الذي جاء على لسان موسى فيه رد على المعتقدات المصرية القديمة التي كانت شائعة إذ ذاك .

فقد كان للسماء آلهة اسمها نوت (Nout) تصوروها امرأة عملاقة جسمها مقوس فوق الأرض على شكل قبة ..

وقد كان للأرض اله اسمه غب (Ghob) وهو زوج نوت وهناك اله اسمه شو (Chou) ويمثل الفضاء الجاف الذي بين السماء والأرض [1] .

(وكان القمر إلهاً ولعله كان اقدم ما عبد من الآلهة في مصر ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت اعظم الآلهة) [2] .

ثم نرجع الى صلب المحاورة فنرى فرعون يأخذه العجب من كلام موسى فيجيب بلهجة الاستهزاء موجهاً كلامه الى من حوله (ألا تستمعون) فيستمر موسى قائلاً (ربكم ورب آبائكم الأولين) هذا القول نفي لألوهية فرعون كما انه ردّ على المعتقدات المصرية التي كانت تقول بوجود آلهة للموتى امثال « الاله (سكر) إله جبانة منف (سقاره) والاله (خنتي امنتيو) إله جبانة (ابجو) [3] » .

كما أن هذه الآية تنكر عبادة الملوك الموتى (فعند موت الملك يقام له بجوار قبره معبد تستمر فيه عبادته باعتباره الهاً متوفى) [4] .

ولكن فرعون يُكابر ويجيب موسى جواب الساخر (إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) فيجيبه موسى غير مكترث بسخريته (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) فالمشرق والمغرب كناية عن الشمس ونورها وهذا النظام السائد في هذا العالم من دوران الأرض حول الشمس الذي يجعل الشمس تشرق في مكان معين وتغيب في المكان المقابل وكلمة بينهما) كناية على ما تشرق عليه الشمس من مدن وقرى ونبات وحيوان .

---

١ – كتاب (مصر) تأليف : دريوتون وجاك فانديه ، تعريب الاستاذ عباس بيومي .

٢ – قصة الحضارة – ول ديورانت ج ٢ ص ١٥٦ .

٣ – عن كتاب (مصر) .

٤ – نفس المصدر .

فهذا القول رد على المعتقدات السائدة آنذاك عند المصريين الذين جعلوا لكل مقاطعة ولكل بلدة رباً مختصاً بها امثال الآلهـة : (امن) و (انوبيس) و (اونوريس) و (اوزيريس) و (باست) و (حوريس) و (عنقت)[1] الخ ...

كما ان هذا القول رد على المعتقدات السائدة إذ ذاك من تأليه الحيوانات فقد (عبد المصريون العجل والتمساح والصقر والبقرة والأوزة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة وابن آوى والافعى)[2] ولكن فرعون يجيب موسى مهدداً (قال : لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) هذا التصريح القرآني بألوهية فرعون هو حقيقة تاريخية فقد كان الملك عند المصريين القدماء إلهاً وكان على الدوام ابن (آمون – رع) لا يحكم مصر بحقه الالهي فحسب بل يحكمها ايضاً بحق مولده الالهي فهو اله رضي ان تكون الأرض موطناً له الى حين)[3] .

فنستخلص مما تقدم انه كان للمصريين القدماء عدة آلهة بجانب تأليههم لملوكهم وقد اشار القرآن الى ذلك اشارة صريحة ايضاً :

(وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك) .

من اين لمحمد هذه الحقائق التي يذكرها عن ربه والتي تدل على حقائق علمية لم تعرف في عصر محمد ولا في بيئته ؟ هذه الحقائق لم تُعلم إلاّ منذ أمد قريب وذلك بعد القيام بالحفريات في مصر والوقوف على أسرار الآثار التي فك العلماء رموزها واسرارها . فمحمد لم يأت بهذه الحقائق من عنده بل هو مبلغ عن ربه الذي يعلم تاريخ وعقائد الشعوب قديمها وحديثها .

---

١ – عن كتاب (مصر) .

٢ – قصة الحضارة ول ديورانت ج ٢ ص ١٥٦ .

٣ – قصة الحضارة ص ١٦١ .

تنزيه الله وتقديره حق قدره

ما اكثر ما ضلت البشرية في خالقها وصورته بأشكال من نسج خيالها وقد تغلغلت البدع والأوهام في شأن الخالق وصوّرته بصور لا يستسيغ العقل قبولها مما اعطى الملحدين حجة استغلوها في مهاجمة الأديان.

اما القرآن فقد جاء بالحقيقة المطلقة في شأن الخالق ونزّهه عن مشابهة المخلوقين فقال: (ليس كمثله شيء) (ولا يحيطون به علما).

وفي قصة موسى في القرآن نرى وصفاً دقيقاً لعظمة الخالق والترفع عن وصفه بصفات الخلق الذين يعتريهم الضعف والقصور، نرى ذلك عندما طلب موسى من ربه التجلي عليه لرؤيته وفي جواب ربه عليه بما يقصه علينا القرآن: (ولما جاء موسى لميقاتنا [1] وكلمه ربه قال ربّ ارني انظر اليك. قال: لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا اول المؤمنين) الأعراف: ١٤٣.

اين هذا مما جاء في كتب اليهود الذين جعلوا الله في غاية العجز والضعف فقد صارع الله يعقوب في زعمهم الى الفجر ولم يغلبه [2].

(ولقد كان (يهوه) إله اليهود القومي هو في نظرهم صارماً ذا نزعة حربية... كذلك لا يُرى انه معصوم من الخطأ ويرى ان اشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الانسان، ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه ان يكون شاوّل (طالوت) ملكاً وتراه من حين الى حين شرهاً غضوباً، متعطشاً للدماء، متقلب الأطوار... وهو حي لا يسمح ان يروا منه إلاّ ظهره، وقصارى القول انه لم يكن للأمم القديمة إله آدمي في كل شيء كإله اليهود هذا) [3].

---

١ – لميقاتنا: أي حضر موسى الى الجبل في الوقت الذي حدده الله له.

٢ – راجع الفصل الثاني والثلاثين من سفر التكوين ٢٤ – ٣٠.

٣ – قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٠ تأليف ول ديورانت ترجمة الأستاذ محمد بدران.

مناقشة علمية لمظاهر الاشراك بالله

ذكرنا فيما سبق صورة لما جاء في القرآن في قصة يوسف وموسى للدلالة على وجود الله ووحدانيته وفي القرآن دلائل كثيرة تتمثل فيها الروعة وقوة الحجة في اثبات الوحدانية ودحض الاشراك بالله يحسُن بنا ان نستعرض بعضها .

العجز الذاتي للكائنـــات ينفي عنها صفة الألوهية

ابرز وأظهر حجة أتى بها القرآن في الدلالة على وحدانية الله هي اتصاف الكائنات بالعجز الذاتي وعدم استطاعتها التصرف في تدبير احوال هذا الكون . لأن تدبيره يرجع الى مرجع أعلى يتصف بالقدرة الشاملة ألا وهو الله .

لقد ألّه الانسان مظاهر الطبيعة ، كما ألّه بعض بني جنسه ، وألّـــه الحيوانات والأرواح والتماثيل المصنوعة من المواد الصماء ، كل هذه المؤلهات لو تفكر الانسان في حقائقها لنبذ عبادتها جميعاً .

خذ مثلاً مظاهر الطبيعة ماذا عبد الانسان منها ؟ لقد عبد الشمس اهمها جميعاً لأنها هي التي تمد الكائنات بالضوء والحرارة والطاقة التي يستطيع الانسان بواسطتها ان يعيش . كلا ... ليست الشمس وحدها المصدر الوحيد الذي يستمد منها الانسان حياته ، بل عناك عناصر كثيرة منها الماء والأوكسجين والايدروجين الخ ... والعناصر الكيماوية الموجودة في الأرض . والتي يستطيع بواسطتها ان يعيش النبات ومنه يتغذى الحيوان . دعك من الخلايا الحية المنتشرة على الأرض والتي منها يتكون النبات والحيوان فليست الشمس لها كل الأثر في تكوينها بل هناك عوامل اخرى لا يزال العلم يقف امامها عاجزاً عن فهم اسرارها . هذا مع العلم بأن الشمس ما هي إلاّ جرم من ملايين الأجرام السماوية التي تعمر الكون ، بعضها يزيد الشمس حجماً بأكثر من مليون مرة . فإذا كانت الشمس خلقت هذه الأرض فمن خلق هذه

النجوم جميعاً وهي عبارة عن شموس مثل شمسنا تتراءى لنا صغيرة لأنها ابعد عنا بكثير من الشمس . وما ابلغ ما جاء في القرآن في الرد على الذين عبدوا الشمس بقوله تعالى :

(ومن آياته [1] الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) فصلت : ٣٧ .

ثم ماذا يعبد الانسان ؟ هل يعبد الكائنات الحية التي يعتريها الموت والفناء ؟

ام هل يعبد الأرواح وهي عبادة تقوم على الظنون والأوهام والخرافات لا يدري الانسان من حقيقتها ومن آثارها شيئاً ؟

ام هل يعبد الانسان تماثيل وأصناماً من صنعه ، لا تسمع ولا ترى ولا تعقل ؟

إن أمام الحقائق الكونية التي استكشفها الانسان وعرف بعض اسرارها في هذا العصر برزت امامه قضيتان هامتان :

الأولى : هي الإيمان بقدرة خلاقة شاملة متصرفة في الكون وهي الله سبحانه وتعالى وهذا ما اعلنته ودعت اليه الأديان السماوية : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

والثانية : هي الالحاد ، أي نكران الخالق .

اما الالحاد فهو ادعاء باطل لا يقوم على حجة وبرهان ، لأن كل سبب له مسبب أصلي ، وكل تدبير حكيم يدل على مدبر أحكم . فالطبيعة الصماء لا تنشيء تدبيراً ووجوداً فيه عقل وحكمة ، فالإحكام المتمثل في خلق الكون هو الذي وجه القرآن الأنظار اليه للاستدلال به على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة . قال تعالى يصف ربوبيته وقدرته المسيطرة على هذا الكون :

---

١ - ومن آياته : أي من الدلائل والعلامات على وجود الله .

(الذي له [1] مُلْكُ السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن لــه شريكٌ في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً . واتخذوا [2] من دونه آلهة لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) الفرقان : ٢ ـ ٤ .

هذا النص القرآني يعرض الدلائل على وحدانية الله مستمدة من خلق الكائنات جميعاً ، انظر مثلاً الى قوله تعالى في معرض التحدث عن قدرته في النص القرآني الذي ذكرناه (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) إن كل مخلوق حيواني او نباتي يحتوي على اسرار وطبائع وخصائص في نهاية الحكمة ، كلّ يختلف عن الآخر في تكوينه وشكله مما ينفي قيام هذا الكون صدفة ، بل يدل على وجود ارادة الهية حكيمة ابدعت هذه الكائنات .

وانظر الى قوله تعالى في استهجان عبادة غير الله في النص القرآني السابق :

(لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة) . أي ان الآلهة التي يعبدها المشركون إنما هي مخلوقة لا تملك أي ضر او نفع ، بل الأهم من ذلك انها لا تملك القدرة على إحياء اي ميت .

فمعجزة الحياة وسلطان الموت هما اللغز الذي وقف الانسان امامه عاجزاً لا يجد له تفسيراً غير وجود قدرة عليا فوق قدرته .

ان معجزة الحياة وسلطان الموت هما اللذان يشهدان بربوبية الله وسلطانه الشامل على المخلوقات ووحدانيته التي لا يشاركه فيها احد . تأمل ما جاء في القرآن ايضاً في تثبيت هذا المعنى في النفوس : (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم [3] هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء

---

١ ـ له : المقصود به الله سبحانه وتعالى .
٢ ـ واتخذوا : أي المشركون .
٣ ـ يحييكم : اي يوم القيامة للحساب .

سبحانه وتعالى عمّا يشركون) الروم : ٤٠ .

تأمل في هذه الآية الرائعة كيف ان القرآن بعد ان اثبت قدرة الله في الإحياء وفي الإماتة استطرد الى ذكر وحدانية الله . ومعنى ذلك ان خلق الأحياء يدل على وجود الله ووحدانيته . إن الأحياء مصدرهم الخلايا الحية وكل كائن حيواني او نباتي يحتوي على ملايين الملايين من الخلايا الحية ، والإنسان اليوم مع ما بلغه من معرفة لا يزال عاجزاً عن خلق خلية واحدة ، فما أعظم وما أجلّ هذه القدرة الالهية التي خلقت الحياة على وجه الأرض . انها ولا ريب تشهد بربوبية الله لهذا الكون .

الاشراك بالله وليد الجهل

ما هي الدوافع التي حدت بالانسان الى الاشراك بالله ؟ هذا ما يتساءل عنه الباحث والدارس للمعتقدات البشرية المختلفة .

هناك عدة عوامل نرى لها تأثيراً في النفس الإنسانية ، من بين هذه العوامل عدم النضوج العقلي مما يجعل العقل فريسة سهلة للتصديق بالخرافات والاساطير . ولهذا فإن الاشراك بالله كان في اقوى مظاهره عند الامم القديمة ثم اخذ يضعف تبعاً لانتشار العلم والمعرفة .

فالاشراك بالله مع مجافاته للمنطق لا يرتكز على أي دليل علمي مقبول تقتنع به النفس ومن السمو العظيم الذي يتحلى به القرآن عند محاجحته للمشركين هو ذلك الطابع العلمي الذي يتفق مع المنهج العلمي الحديث والذي يثبت ان القرآن يحترم الفكر ، اقرأ هذه الآية الرائعة :

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات [1] ائتوني بكتاب من قبل هذا او أثارة من علم إن كنتم

---

١ – ام لهم شرك في السموات : أم شاركوا الله في خلقه .

صادقين . ومن أضل[1] ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) الأحقاف : ٢ ـ ٤ .

تأمل هذه المحاجة العلمية في هذا النص القرآني التي تستهل بمخاطبة المشركين بطلب دليل عقلي على صحة اشراكهم (أروني ماذا خلقوا من الأرض) ثم يطلب القرآن من المشركين سنداً نقلياً ودليلاً محسوساً يشهد بصحة اشراكهم (ائتوني بكتاب من قبل هذا) أي فأتوني بكتاب جاء به نبي قبل هذا القرآن يؤيد ادعاءكم . ثم يطلب القرآن منهم اخيراً أي أثر علمي يشهد بأنهم على حق في عبادة غير الله (أو اثارة من علم إن كنتم صادقين) ثم تأمل هذه النتيجة التي توصل اليها القرآن وهي انه كيف يتوجه المشركون الى آلهتهم التي لا تستطيع تلبية حاجاتهم ، بل ادنى من ذلك انها غافلة عما يطلبه منها هؤلاء المشركون (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) .

وجاء في القرآن في محاججة المشركين هذه الآية التي تتميز بطابع التحدي بطلب البرهان على صحة اشراكهم بالله وهم لا برهان عندهم (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) النحل : ٦٤ .

فالقرآن اول كتاب علمي يتخذ العلم والحجة نبراساً له في الدلالة على وحدانية الله .

الطبيعة هي المدخل للايمـــان بالله

هذه السماء وما تحتويه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب السيارة التي يحفظها قانون الجاذبية من ان تتصادم او يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه فتنسفه ، وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما فيها من نبات وحيوان وسهول وجبال وبحار كل ذلك يسير على سنن ونواميس

---

١ ـ ومن أضل : ولا احد اشد ضلالا .

خاصة في نهاية الحكمة وفي سبيل منفعة الانسان إن ذلك من البراهين القوية على وجود قدرة إلهية حكيمة وعلى بطلان مزاعم الماديين بأن الكون وُجِدَ اتفاقاً وصدفة .

وان الوحدة المرتبطة بين النواميس الطبيعية وبين الكائنات الحية لاستمرارها لدليل على وحدة الألوهية .

وان الجمال الذي يشع من أرجاء الطبيعة هو عنصر هام في اثارة الايمان وعبادة الخالق وفي تذوق السعادة الحقيقية .

إن كثيراً من التراث الأدبي عند الأمم قام على لفت الأنظار الى جمال الطبيعة وروعتها . لنذكر على سبيل المثال بعض ادباء الغرب امثال (لامارتين) و (روسو) و (وردزورث) .

ولنذكر اليابان في تعشقها لجمال الطبيعة وتقديسها للازهـــار « فهي عندهم بمثابة الدين فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ويلتقي فيها افراد الشعب جميعاً وهم يرقبون في كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور فإذا ما ازهرت شجرة الكريز مدى اسبوع او اسبوعين في اوائل شهر ابريل يخيل اليك ان أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم بل انهم ليحجون الى الأماكن التي تزخر بهذه المعجزة »[1] .

ونظرة في أدب اليابان فتكاد توشك ألاّ تجد قصيدة واحدة تخلو من وصف مشاهد الطبيعة ، هذا مع العلم بأن اكثر اليابانيين يدينون بالبوذية والبوذية تصطبغ بالالحاد .

ان تقديس مظاهر الطبيعة دون الرجوع الى مصدرها التي منه نشأت لهو خطأ وضلال وغفلة عن الحقيقة في اسمى معانيها . فالانسان في تأمله زهرة جميلة يفوح منها عطر ساحر يجب ان يحدوه وازعان : وازع لجمال

---

١ ـ قصة الحضارة : ول ديورانت جـ ٥ صفحة ٥٩ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .

الزهرة ، ووازع تقديس واجلال للذي خلقها وابدعها على هذا الشكل . وهكذا الحال في تأمل الوديان والسهول والحدائق والبحيرات الخلابة إذ لولا الخالق لما وُجدت هذه المظاهر الطبيعية .

إن جمال الطبيعة وتسخيرها لمنفعة بني الانسان هو المدخل للايمان بالقدرة الالهية وتقديسها .

انظر كيف يوجه القرآن الانظار الى جمال الطبيعة والى العبرة التي يجب ان يستقيها الانسان من ذلك ، قال الله تعالى متحدثاً عن قدرته :

(افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها وما لها من فروج [1] . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي [2] وانبتنا فيها من كل زوج [3] بهيج [4] . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب [5]) ق : ٦ — ٨ .

هذه الآيات تلفت النظر الى جمال القبة الزرقاء في الليلة الظلماء وما رصعت بها من نجوم ، والى روعة الجبال ، والى أصناف النبات والاشجار والزهور ، وما تضفيه على النفس من بهجة ، إن ذلك لدليل على وجود قدرة الهية ابدعت هذه الكائنات .

ويستدل القرآن بهذه المظاهر الطبيعية وجمالها على وحدانية الله بهذه الآيات الآتية : (قل الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى آللهُ خير أم ما يشركون . أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تُنبتوا شجرها أإله مع الله بل

---

١ — فروج : صدوع وخلل .

٢ — رواسي : جبال ثوابت .

٣ — زوج : جميع اصناف النبات من تذكير وتأنيث .

٤ — بهيج : حسن المنظر يبتهج به لحسنه .

٥ — عبد منيب : العبد المقصود به هنا أي العبودية لله التي يشترك في هذا الوصف كل انواع البشر ومنيب معناه راجع لربه متفكر في بدائع صنعه .

هم قوم يعدلون [1] . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون) النمل : ٥٩ — ٦١ .

واقرأ هذه الآيات التالية التي استُهلت باعلان وحدانية الله ثم استدلت بهذه الوحدانية على ما خلقه الله من اجرام سماوية وهذا الكوكب الذي نعيش عليه وما يحتويه من نبات وحيوان ، ونواميس ومظاهر طبيعية سخرها الله لحياة هذه الكائنات ومنفعة بني الانسان بالذات . وما اودعه الله من جمال يتمثل في الحيوان والنبات . ومظاهر الطبيعة . قال الله تعالى متحدثاً عن قدرته :

(يُنَزّل الملائكة بالروح [2] مِنْ أمره على مَنْ يشاءُ من عباده أن أنذروا : أنه لا اله الاّ انا فاتقون . خلق السموات والأرض بالحق تعالى عمّا يشركون ! خلق الانسان من نطفة [3] فإذا هو خصيمٌ مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون [4] وحين تسرحون [5] وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الانفس [6] ، إن ربكم لرؤوفٌ رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق

---

١ — يعدلون : يسوون بالله غيره ، او يعدلون عن الحق بعد وضوحه .

٢ — الروح : هو الوحي الإلهي .

٣ — نطفة : هي المادة السائلة التي يبتدىء تكون الجنين منها .

٤ — تريحون : حين ترون الأنعام راجعة من مراعيها

٥ — تسرحون : تذهبون بها الى الحقول . قد يقول البعض لماذا قدم القرآن وصف جمال الأنعام وهي راجعة على ذهابها وكان بالاحرى وصف الذهاب ثم الاياب ، والجواب ان جمال الانعام وهي راجعة من مراعيها ممتلئة بطونها يفوق جمالها وهي خاوية بطونها وحيث هنا الوصف في معرض الجمال فكان وصف القرآن يحوي من دقة المعنى ما لا يدركه الا العالمون باسرار هذا الوصف .

٦ — إلا بشق الأنفس : إلا بمشقة النفوس .

ما لا تعلمون [١] ، وعلى الله قَصْدُ السبيل [٢] ومنها جائر [٣] . ولو شاء لهداكم اجمعين . هو الذي انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون [٤] ، يُنبتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخّراتٌ بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ [٥] لكم في الارض مختلفاً الوانه إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرون . وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر [٦] فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكّرون) النحل : ٢–١٧ .

تضمنت هذه الآيات صورة شاملة عن خلق الله لهذا الكون . وعرضاً وافياً لأجزائه ، تذكر اولاً ما خلق الله مجملاً (خلق السموات والأرض) ثم تفصل الآيات هذا الاجمال فتبتدىء بخلق الانسان ذلك المخلوق الذي هو الآية الكبرى على وجود الله والذي يبتدىء تكوينه من نطفة ثم يصير

---

١ – ويخلق ما لا تعلمون : هذه الجملة معطوفة على الابل التي جعلها الله اداة للركوب ، أي ان الله سيجعل وسائل للركوب غير التي كانت في عصر نزول القرآن ، وها هو الانسان يتوصل الى اختراع السيارات والقطارات والطائرات مما هدى الله الانسان لاكتشافه .

٢ – قصد السبيل : تبيان الطريق المستقيم الذي يوصل الى الخير .

٣ – جائر : اي من الطريق ما هو مائل منحرف عن طريق الهداية .

٤ – تسيمون : اي مرعى لأنعامكم .

٥ – ذرأ : خلق .

٦ – مواخر : انظر كيف استعمل القرآن مواخر بصيغة الجمع للدلالة على السفن الكثيرة وهذا المعنى لا يتمثل حق التمثيل إلا في هذا العصر حيث اصبح البحر من اهم طرق المواصلات وحيث انشئت الأساطيل الحربية فمنذ اربعة عشر قرناً في زمن نزول القرآن لم يكن البحر له هذا الطابع المميز بكثرة بواخره ، ثم إن محمداً عاش في مكة والمدينة بعيداً عن البحر ولم يرحل في عمره أي رحلة بحرية كل ذلك يعطينا دليلا على ان القرآن وحي إلهي يتكلم عن اشياء ستتحقق في المستقبل كما يعطينا دليلا على صدق نبوة محمد .

كامل النمو مفصحاً عن آرائه بواسطة عقله الذي وهبه الله له ، فهل يليق بالانسان وهذا اصله وهذه مواهبه ان يكون خصيماً لربه مظهراً لانكاره له .

ثم يلي الانسان الحيوان فيذكر القرآن ما خلق الله من انعام كالأبل والبقر والغنم وما فيها من منافع للناس وما في مشهد قطعانها الغادية صباحاً الى المراعي والراجعة مساء من جمال وما فيها من منافع اخرى باعتبارها وسائل الحمل والركوب . ثم يشير القرآن الى انواع الحيوانات الأخرى المستعملة للركوب والتي في بعضها جمال وزينة . ثم ينتقل بنا القرآن الى ميدان آخر من ميادين الطبيعة وهو نزول الماء من السماء وما يترتب عليه من انبات النبات وجميع الثمرات وتنتهي آية النبات والماء بالدعوة الى التفكير في خالقها وما تحمل من دلائــل على موجدها وهو الله (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) ثم ينتقل بنا القرآن الى عالم الافلاك ذلك العالم الذي يقف الانسان امامه مبهوراً حائراً وتنتهي آية العوالم الفلكية باثارة العقل لدراستها واستشعار ما تحمل من دلائل وبراهين على وجود الله (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) . والجدير بالذكر ان كلمة الآيات هنا جاءت بصيغة الجمع لسعة آفاق هذه العوالم الكونية . ثم يعود بنا القرآن فيتكلم عن أجزاء الأرض وما خلق الله فيها من حيوانات ونبات ومعادن مختلف الوانها برغم نشوئها ووجودها في أرض واحدة وتختم الآية التي تصف الوان الطبيعة بهذه الجملة (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) ففي الوانها عظة وعبرة على قدرة الله الخارقة . ثم يتحدث القرآن عن البحر وما فيه من منافع للناس من استخراج اسماكه للاكل ولآلئه للزينة واتخاذه طريقاً للمواصلات والتجارة . ثم يأتي الحديث عن الجبال وحسن توزيعها ويأتي بعد ذكر الجبال : الأنهار إشارة الى الصلة التي تجمع بينها إذ لولا الجبال ما وجدت الينابيع والانهار . وتختم هذه الآيات القرآنية في وصف الطبيعة بهذا البرهان على انتفاء خالق غير الله وعلى انتفاء شريك له . (افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون) أي كيف تسوون الخالق وهو الله سبحانه بغيره من الآلهة التي لا تخلق شيئاً .

المتأمل في هذه الآيات يتراءى له مصدرها الالهي ، فهي ليست من تأليف محمد كما يدعي من لا يدينون بالاسلام . فلو كان القرآن من تأليف محمد لجرى في وصفه للطبيعة كما وصفها العرب في زمنه ، فالعربي قبل الاسلام لم ينظر الى الطبيعة هذه النظرة الشاملة التي نظرها القرآن بل نظر اليها نظرات جزئية من وصف سمائها وسحابها وحيوانها وصحرائها ولكنه لم يجمع هذه الأجزاء في اطار كلي ولم ينسبها الى الخالق الواحد الأحد . كما ان الطبيعة الموصوفة في القرآن ليست هي الطبيعة العربية التي تشتمل على الصحراء والواحة والآبار بل الطبيعة التي وصفها القرآن هي الطبيعة التي فيها البحار والانهار والجبال .

والجدير بالذكر ان اسلوب القرآن في الدعوة الى الايمان بالله هو نفس الأسلوب الذي ينادي باعتناقه بعض كبار العلماء الكونيين في العصر الحاضر . يقول الدكتور جون ادولف بوهلر[1] : (وبرغم ان هنالك كثيراً من الأشياء في الطبيعة مما لم يصل الانسان بعد الى معرفة كنهه او تفسيره ومما لا يزال يكتنفه الغموض . فإننا لا نريد ان نقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون ؛ عندما اتخذوا آلهة لكي يجدوا تفسيراً لما غمض عليهم ، وحددوا لكل إله قدرته وعينوا له وظيفته ودائرة تخصصه ... وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها ، لم يعد هؤلاء الناس في حاجة الى الآلهة التي أقاموها ، بل إن كثيراً من البشر انكروا وجود الله لنفس هذا السبب . والواجب ان نتلمس قدرة الله في النظام الذي خلقه والقوانين التي اخضع لها جميع الظواهر والاشياء . فقد يستطيع الانسان ان يفسر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها ولكن الانسان عاجز عن ان يسن تلك القوانين فهي من صنع الله وحده)[2] .

---

١ ـ استاذ الكيمياء بكلية اندرسون .

٢ ـ عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ١٠٤ .

مراجع الكتاب

القرآن الكريم
الكتاب المقدس – المطبعة الكاثوليكية – بيروت
تفصيل آيات القرآن الكريم لجول لابوم ترجمة الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي
صحيح البخاري وصحيح مسلم
تفسير المنار للشيخ رشيد رضا – مطبعة المنار بمصر
تفسير محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي – عيسى البابي الحلبي
المنتخب في تفسير القرآن الكريم – وزارة اوقاف الجمهورية العربية المتحدة
تفسير القرآن الكريم للاساتذة محمود محمد حمزة ، حسن علوان ، محمد احمد برانق – دار المعارف بمصر
مؤتمر سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي
سيرة النبي عليه السلام للشيخ ابي محمد عبد الملك بن هشام – تحقيق الاساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شبلي
كتاب الروض الأنف للامام عبد الرحمن السهيلي
الطبقات الكبرى لابن سعد
تاريخ الخميس للامام الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري
فتوح البلدان تأليف أحمد بن يحي بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذري
البداية والنهاية للامام عماد الدين بن كثير

- تاريخ الامم والملوك للإمام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري
- تاريخ ابن خلدون تأليف الامام عبد الرحمن بن خلدون
- تاريخ الكامل للعلامة ابي الحسن الشيباني المعروف بابن الاثير
الاغاني للامام ابي الفرج الأصفهاني
- تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي
- قصص الانبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر
حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل
تاريخ اليهود في بلاد العرب للدكتور اسرائيل ولفنسون ـ مطبعة الاعتماد بمصر
- قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ترجمة الاستاذ محمد بدران والدكتور زكي نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر
اليهود في تاريخ الحضارات الأولى تأليف الدكتور غوستاف لوبون ترجمة الاستاذ عادل زعيتر
- ابراهيم ابو الأنبياء للأستاذ عباس محمود العقاد
- ابو الانبياء ابراهيم الخليل للاستاذ محمد حسني عبد الحميد ـ دار سعد بمصر
مصر تأليف اتيين دريوتون وجاك فانديه تعريب الاستاذ عباس بيومي
تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة للاستاذ عبد الله عنان
من بلاغة القرآن للدكتور احمد احمد بدوي
- الفن القصصي في القرآن للاستاذ محمد احمد خلف الله
من منهل الادب الخالد للاستاذ محمد المبارك
الله يتجلى في عصر العلم تأليف جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان
الصهيونية تأليف الاستاذ ميشال كفوري
الفكر اليهودي تأليف ج . ه . هرتس ترجمة الدكتور الفريد يلوز
كفاحي تأليف ادولف هتلر ترجمة الاستاذ لويس الحاج

محتويات الكتاب

الباب الاول
اليهود في نظر القرآن

الباب الثاني
قصة ابراهيم عليه السلام

الباب الثالث
قصة يوسف عليه السلام

الباب الرابع

قصة موسى عليه السلام

الباب الخامس

أضواء على القصة في القرآن